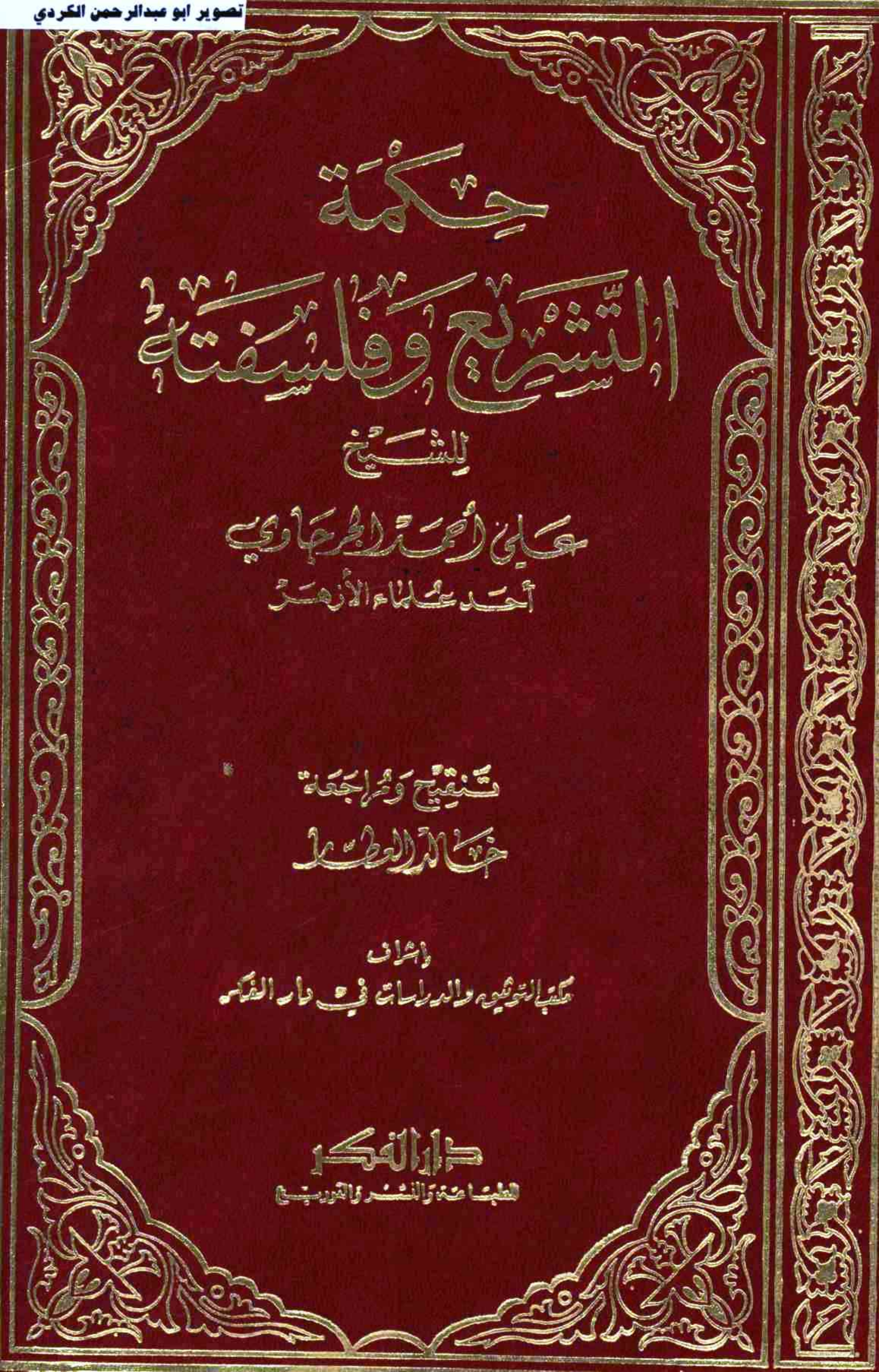


تصوير ابو عبدالرحمن الكردي
حكمة
التشريع وفلسفته
للشيخ
علي أحمد الجرجاوي
أحد علماء الأزهر
تنقيح ومراجعة
خالد العطار
إشراف
مكتب البحوث والدراسات في دار الفكر
دار الفكر
للطباعة والنشر والتوزيع

حكمة التشريع وفلسفته

للشيخ

علي أحمد الجرجاوي

أحد علماء الأزهر

تنقيح ومراجعة

خالد العطار

إشراف

مكتب التوثيق والدراسات في دار الفكر

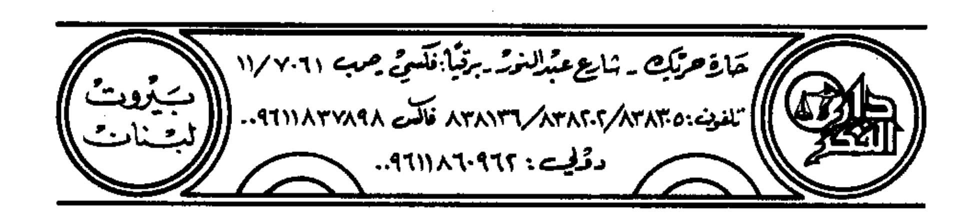
الجزء الأول

دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع

١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م

الطبعة الثانية
١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م



بسم الله الرحمٰن الرحيم

وبه نستعين وبنبيه الكريم نهتدي إلى الطريق السوي. قال الله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥ ﴾.

أما بعد: فاعلم وفقني الله وإياك والمسلمين إلى فهم أسرار التنزيل وما أودع فيما كلفنا به من الفرائض من حكمة بالغة تبهر العقول وترتاح لها النفوس. إن الله جلّ شأنه وعلت قدرته شرع لنا من الدين هذه الفرائض في العبادات والمعاملات على لسان نبيه المصطفى عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين أفضل الصلاة والسلام وما أودع فيها من الحكم التي هي جامعة لكل ما فيه صلاح أمري الدنيا والدين معاً. وليست هي أمور تعبدية فقط أمرنا الخالق جل وعلا بأدائها فنحن نؤديها ولا نبحث عن الحكمة فيها وفي أنها أبواب متنوعة. وضروب متعددة وكيفيات مخصوصة قولية وفعلية، ومالية.

هذا وقد كنت متشوقاً إلى رؤية سفر من الأسفار يبين لنا تلك الحكم والأسرار. وكم مكتبة سألت أصحابها ودار كتب طرقت بابها. وكم قلبت صحائف الكتب الدينية الموضوعة في الأحكام الشرعية. فما وجدت كتاباً وافياً بموضوع (**حكمة التشريع الإسلامي**) وكل ما وقفت عليه واهتديت إليه نبذاً متفرقة أيدي سباً في آلاف من الكتب تذكر لعلاقتها بمسألة شرعية في العبادات والمعاملات. وحينئذٍ وجدت في صدري حرجاً وسألت الله أن يجعل لي من أمري مخرجاً. وبينما أنا كذلك وإذا بصديق طاهر الذيل والعرض والنفس زار داري وازدان بطلعته وجه نهاري، ولما أخذ كل منا مجلسه أخذنا بأطراف الحديث والحديث شجون. وطرقنا أبواب العلم والعلم فنون. إلى أن انتهى الحديث بأن تمنينا وجود كتاب خاص في موضوع (**حكمة التشريع الإسلامي**) ثم إن صديقي هذا حبب إليّ وعرض عليّ أن أقوم بهذه المهمة فأحجمت لقصور الهمة عن إدراك هذه الغاية. فقال لي ناصحاً: على قدر ما يستطيع القلم والعقل. وإن لم يصبها وابل فطلّ. وإن لك أجر المحسنين وثواب العاملين وعندئذٍ قلت: رب هب لي من أمري رشداً، وارسل لي

من عنايتك مدداً. وشرعت أجمع من الشوارد ما صعب فهمه لصعوبة العبارة. وغمض معناه لغموض الإشارة. وبعد جهد طويل وضعت كتابي هذا وسميته (**حكمة التشريع وفلسفته**) وبينت فيه تلك الحكم البالغة زيادة على رأس الفضيلة. وأنا الضعيف العاجز الذي لا حول لي ولا قوة إلا بتوفيق من العزيز الحكيم. وإني ألتمس ممن يطلع عليه ويظهر له بعض خطأ أن يعذرني. فإنه إن كان هناك من خطأ فما غير حسن النية قصدت وما فيه من صواب فهو ما إليه نزعت. أقول هذا خشية سفسطة متعنت أو جاهل يحاول النقد. على غير علم.

هذا وقد نفذت الطبعة الرابعة وها هي الطبعة الخامسة التي تمتاز عن الأولى والثانية والثالثة والرابعة بذكر أحكام كثيرة لم أكن وقفت عليها ولا اهتديت إليها حين الطبعة الأولى والثانية والثالثة والربعة. لأنها كانت مبعثرة في آلاف من الكتب التي تحتاج لزمن طويل وعمر مديد. وهاك ما جرى به القلم. ووقفت عنده الهمم. وإلى الله المآب. وعليه بفضله حسن الثواب.

حكمة التشريع

اعلم أن جميع الشرائع السماوية إنما يقصد منها أربعة أمور: **الأول**: معرفة الله وتوحيده وتمجيده ووصفه بصفات الكمال والصفات الواجبة له والمستحيلة عليه والجائزة. **الثاني**: كيفية أداء عبادته المحتوية على تعظيمه وشكر نعمه التي لو عددناها لا نحصيها﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [1] **الثالث**: الحث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتحلي بحلية الآداب الفاضلة والأخلاق الطاهرة والمزايا التي تسمو بالمرء إلى مراتب الشرف والرفعة كالمروءة في إغاثة الملهوف وحماية الجار وحفظ الأمانة والصبر وما أشبه ذلك من المزايا الجليلة. الرابع: إيقاف المتعدي عند حده بوضع الأحكام المقررة في المعاملات. بحيث لا يختل نظامهم الإجتماعي باختلاف الأمن لوضع هذه العقوبات. **(التي أهملت في هذا الزمن)** وغير ذلك من سائر الأحكام المتعلقة بنظام حياتهم. فهذه الأمور الأربعة التي لأجلها شرعت الشرائع السماوية.

حكمة إرسال الرسل وحاجة البشر إليهم

إن هذا الموضوع الذي نحن بصدده قد خاض في عبابه أولو الأفكار والألباب من فلاسفة يرجعون في أغلب مسائلهم إلى الأصول الدينية. وآخرون يحكمون بالأهواء فمنهم من ضل الطريق وكان كحاطب ليل يخبط خبط عشواء في ليلة ليلاء. ومنهم من كشف الله له الغطاء عن الصواب فعرف الحكمة في إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام وحاجة البشر إليهم. وها نحن نقول في هذا الموضوع كلمتنا سائلين الله تعالى أن يمدنا بمعونته وأن يوفقنا إلى طريق الصواب وأن يبعدنا عن مزالق الأقدام بمنه وكرمه.

إعلم وفقنا الله وإياك أن هذه الحياة الدنيا هي بمنزلة الطريق الموصل إلى الحياة الأبدية التي لا فناء لها أبد الآبدين ودهر الداهرين ولا عبرة بقبول الذين يقولون إن الأنسان

---

(١) (١٤) إبراهيم: ٣٤.

متى خرجت روحه وتحلل جسمه وعاد إلى المادة التي خلق منها لا يعاد له رجوع بل تنقضي حياته انقضاء فناء. أو الذين يقولون بالتناسخ وحلول الأرواح في أجسام أخرى إما حيوانية أو أثيرية ألطف من هذه الأجسام فاؤلئك هم الذين ضلوا السبيل وتاهوا في فيافي الأوهام وظلمات الأفهام.

إنك إذا جردت العقل عن كل الشواغل ونظرت نظرة في حركة هذا الكون ومعترك الحياة لكان لك في هذا النظر دليل واضح وبرهان ساطع قوي على أن أعمال الأنسان لا تذهب سدى وأن هناك حياة أخرى ومحكمة عليا وقاضياً عادلاً يجزىء كل إنسان عمله جزاءً وفاقاً.

أذكر لك نظرية ويقيني أنك لا تنكرها وهي: إن كل الشرائع سماوية أو وضعية وكل المذاهب في كل زمان ومكان قررت وجوب من يقيم الحدود كالقضاة لإقامة منار العدل والإنصاف. ومعاقبة الظالمين وإنصاف المظلومين. فيا ترى لو ظلمك إنسان ولم تتمكن من محاكمته كأن يكون الظلم وقع في مكان بعيد عن العمران أو يكون من ظلمك ذا سطوة وسلطان لا تقدر على محاكمته ثم انقضت حياة أحدكما. هل يذهب هذا العمل سدى ولا تنصف ممن ظلمك؟ أم لا بد من أن يلاقي هذا الظالم جزاء ما جنت يداه في محكمة أخرى غير هذه المحاكم الدنيوية حتى لا يضيع الحق وحتى لا ينتصر الباطل عليه. لا شك في أن تسلم بأن تنال حقك وتنصف ممن ظلمك في ساعة من الساعات.

وأيضاً إذا عملت عملاً لأي إنسان فإنه يجب عليه أن يكافئك عليه. فإذا فرضنا أنه لم يكن قادراً على المكافأة أترى هل يذهب عملك هذا سدى؟ أم تنال الأجر والثواب ولن تغبن في صنيعك ومعروفك.

ومن هنا نعلم أن هناك حياة أخرى غير هذه الحياة وأن هناك حساباً وثواباً وعقاباً.

قلنا إن هذه الحياة الدنيا بمثابة طريق موصل إلى الحياة الأخرى الأبدية. ولكن هذا الطريق مظلم حالك. وهذه الظلمة المعنوية لا يمكن للإنسان بفطرته أن يدرك كنهها وحقيقتها حتى يمكن أن يخوض فيها بعقله منفرداً بغير مرشد لأنه لم يكن حائزاً لصفة الكمال التي هي من صفات الخالق جل وعلا. فإذن هو محتاج إلى نبراس يضيء له الطريق حتى يصل إلى الحياة الآخرة سالماً من الأخطار والآفات. وهذا النبراس هو الشرائع التي يجيء بها الرسل عليهم الصلاة والسلام الذين أرسلهم الله سبحانه وتعالى إلى الخلق يرشدونهم إلى ما فيه سعادتهم في الدارين.

وأيضاً إن هذه الظلمة ذات شعبتين: شعبة فيها آفات وعقبات وأخطار. وشعبة سهلة لا خطر فيها. وإن العقل وإن كان يعلم ويدرك بفطرته بعض ما فيها من الخير والشر إلا أنه لا يدرك بعضها فهو في هذه الحالة محتاج لمن يكشف له الغطاء عن جميعها حتى يسهل عليه السير. ويسلم من كل ضرر. من أجل ذلك أرسلت الرسل عليهم الصلاة والسلام.

ولنضرب لك مثلاً لزيادة الإيضاح. وهو إذا كان أحد الملوك استعمر جهة في قارة أخرى غير قارته وأوجد فيها من يعمرها. أتراه يتركها همجاً بلا وازع يدير أمورهم ومصالحهم ويقوّم المعوج من شؤونهم؟ أم يوجد بينهم من يقوم بهذه المهمة. لا شك في أنك تحكم بوجوب وجود هذا الوازع المرشد. وإلا ساءت حالهم واختل نظامهم واعتدى القوي على الضعيف. ويحل الخراب في هذه المستعمرة وهو ما لا يرضاه ولا يريده ذلك الملك الذي يريد الاستعمار.

فكذلك اقتضت حكمة الباري جل وعلا أن يخلق هذه الأرض وكان الإنسان هو القائم بعمارتها وأداء كل فرد وظيفته في المجتمع الإنساني حتى يعمر الكون لم تشأ الحكمة الإلهية تركها هملا بلا وازع مرشد.

من أجل ذلك أرسلت الرسل عليهم الصلاة والسلام يرسمون الخطة التي يسير عليها بنو الإنسان حتى يصلوا إلى الدار الآخرة آمنين سالمين.

رب قائل يقول كان الأولى أن يوكل الأمر إلى العقل وهو وحده يقوم بهذه المهمة ولا حاجة لإرسال الرسل؟ فنقول إن العقل لم يحرز درجة الكمال حتى يعرف كل ما هو ضروري له في حياته من أجل ذلك وجب أن يوجد من يعينه على الاهتداء ويأخذ بيده إلى كل ما هو ضروري له حتى يستقيم له الأمر ويتم له الهناء:

أنت تعلم أن هناك عالماً آخر إسمه عالم الغيب. وأن هناك داراً أخرى وهي الدار الآخرة. فإذا كان الإنسان يحار ويتخبط في الأمور البديهية التي هي بمرأى ومسمع منه فكيف يدرك بعقله كل الوسائل التي توصله إلى تلك الدار الآخرة التي هي أجل وأعظم؟.

ذهبت جماعة من البصريين إلى أن العدل كاف في استقامة أحوال الإنسان وانتظام شمل حياته. قلنا لهم من الذي يضع قواعد العدل؟ قالوا: هو العقل. نقول لهم: هذا شطط من العقل نفسه صدر منه ولم يدر حقيقته: ليس كل الناس يرضون بحكم عاقل عادل في كل الأحوال ولو قام عاقل عادل وأمر أمة من الأمم أو فريقاً منها بأمر فليسوا جميعاً براضين بهذا الأمر وبهذا الحكم.

إذا كان هذا الإنسان العاقل يتسامى بقوة عقله وتوقد فكرته حتى يصل إلى درجة تدنيه من عالم الملائكة، وإذا عرض عليه أمر مشكل لا يدري له سبباً ولا يعرف له مخرجاً منه يتضاءل أمامه ويقف موقف الخاضع الذليل أمام من يهديه إلى الصواب فقل لي وأبيك أنّى له أن يهدي غيره وهو محتاج إلى من يهديه.

إذا كان الإنسان مع إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام ووجود الوعاظ والحكماء والعلماء والمرشدين ومع وجود الحكومات ووضع القوانين السماوية والوضعية لا يزال يغتال الحقوق ويظلم من هو أضعف منه قوة ويباشر المعاصي بجميع أنواعها ولم يهتد إلى الصواب. فكيف يكون الحال إذا ألقي له الحبل على الغارب ووكل أمره إلى عقله. لا شك انه يتدهور في مهاوي الضلال ويلقي بنفسه إلى التهلكة.

يقول قائل إذا كان الأمر كذلك وكان العقل مهما كبر وعظم واستنار غير كاف في هداية صاحبه أو غيره فلماذا لم يخلق الله في الإنسان قوة كافية يمكنه بها أن يهتدي إلى ما فيه صلاحه ولا حاجة إلى إرسال رسول يوضح له النهج ويمده بالإرشادات. نقول له إن نظام هذا الكون اقتضى أن يكون الناس درجات متفاوتة في العقل بحيث لو كانوا كلهم بهذه الكيفية وكان كل فرد من أفراد النوع الإنساني حاصلاً على القوة الكافية في إرشاده وهدايته لاختل نظام هذا الكون ولكان عالماً آخر خلاف هذا العالم الإنساني. ولكان خلاف هذا الإنسان المفكر بطبيعته. ولكان ملحقاً بعالم الملائكة. زد على ذلك أنه لم يكن هناك فائدة في الثواب والعقاب. وتكون انتفت صفة الرحمة والغفران من الذات العلية. ولم يكن هناك خير ولا شر. لأن الرحمة يستلزم وجودها وجود ارتكاب الذنب. والخير لا يعرف إلا من الشر كما أن الظلمة تعرف بوجود الضياء والضياء يعرف بوجود الظلمة وهلم جرا.

وهنا نقول على سبيل الاستطراد. إن الناس إذا كانوا كلهم عقلاء كما بينا خربت الدنيا فكذلك الحال إذا كانوا كلهم جهلاء فإن نظام هذا الكون يختل ولم تمكث الدنيا على حالتها هذه إلى يومنا هذا. بل كانت تلاشت من عهد آدم عليه الصلاة والسلام فنتج من كل ما تقدم مقدار الحاجة لإرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام لهداية الخلق وإرشادهم إلى طريق الخير وإبعادهم عن طريق الشر.

إذا عرفت هذا فقل معي: اللهم اجعلنا ممن اهتدوا بهداية الرسول الأمين واجعلنا في جنتك من المقربين ونعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

حكمة وظيفة الرسل عليهم الصلاة والسلام

لقد بينا في الباب قبل هذا أن إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام أمر ضروري للنوع الإنساني وأن العقل وحده لا يكفي في هداية الإنسان إلى سعادة الدارين. كما أنه لو خلقت في الإنسان القوة الكافية لإرشاده وصار كل فرد من أفراده عاقلاً لاختل نظام الكون وفسدت على الناس مصالحهم ولما وصل عمار الدنيا إلى هذا الوقت الذي نعيش فيه.

وقد أفردنا هذا الباب خاصاً لهذا الموضوع الجليل لنبين فيه وظيفة الرسل عليهم الصلاة والسلام ونفصلها تفصيلاً وافياً شافياً وعلى هذا نقول:

إن أهل كل دين من الأديان ونحلة من النحل اتفقت على أن هناك خالقاً لهذه العوالم من كواكب في أفلاكها وأجسام حية فيها أرواحها ونباتات في مغارسها وجمادات تنطق بلسان فصيح قائلة. إنني لم أوجد نفسي بنفسي وإنما أوجدني موجد وخلقني خالق: ولكن حارت العقول وضلت الأفكار وتقاعست المدارك وتضاءلت الهمم دون معرفة كنه هذا الخالق العظيم ذي القوة المتين الذي من غرائبه وعجائبه هذا الإنسان الناطق المفكر.

ولما كلت الهمم وعجز كل إدراك عن معرفة هذه الذات المقدسة وأرادت النفوس أن تستريح من تعب المسير. ألقى أهل كل دين عصا التسيار وأراح نفسه بالوقوف عند الحد الذي هو عبارة عن تعيين أهل كل دين هذا الخالق ووصفه أو تشخيصه وتمثيله لحاسة البصر واللمس إلى آخر ما هو موجود في كل دين ومذهب من القواعد والوجود التي بها عرفوا الخالق على زعمهم ووصفوه. وإن كان ذلك لا يطابق الحق والواقع.

فالمجوس قالوا هو هذا العنصر المسمى ناراً فعبدوها. وشخصه الوثنيون وعبدوا هذه التماثيل المجسمة الصامتة. ورأى آخرون كوكب الشمس أكبر الكواكب فعبدوها.

وقال آخرون لا هذا ولا ذاك وإنما الخالق محجوب عن الأبصار وحاسة الأنظار ومستور وراء حجب في نظرنا لا طاقة للبشر على اختراقها وهكذا إلى آخر ما جاء في الشرائع والعقائد المختلفة من التقاليد الخاصة بمعرفة الله تعالى جلت قدرته.

ولما كانت معرفة الخالق جل شأنه أول ما يجب على الإنسان كان أول ما يقوم بإدائه المرسلون هو إرشاد الخلق إلى هذا الخالق العظيم الشأن القوي السلطان. ويصفونه لهم بالأوصاف والنعوت التي تقربه من أفهامهم بلا كلفة ولا مشقة حتى تتشبع مداركهم بمعنى التوحيد من أقرب الطرق وأسهلها.

ثانياً: تذكيرهم بعظمة هذا الخالق وجلال قدره وعظيم قدرته وتصرفه في خلقه وما يجب له وما يجوز وما يستحيل عليه من الأوصاف والنعوت وإنه سبحانه قادر يعز من يشاء ويذل من يشاء يجزىء كلاً على ما كسبت يداه. وهلم جراً من ضروب التحذير والتبشير والوعد والوعيد وما يدخل في معنى الوعظ والإرشاد.

ثالثاً: حض الناس على مكارم الأخلاق والآداب التي تتحلى بها النفوس وهذه الأخلاق إما عائد نفعها على نفس الإنسان كالصدق وصون اللسان عن الكذب وكف النظر عن رؤية ما لا تحل رؤيته. وأما عائد على الإنسان وغيره كالجود وإغاثة الملهوف وإنصاف المظلوم وإطعام السائل والمحروم ويضاف إلى كل هذا الحض على الشجاعة والإقدام والمروءة وسائر الأخلاق الفاضلة. فهم والحالة هذه مرشدون يشرحون للإنسان نعم الخالق ويبشرونه بعظيم ثوابه ويحذرونه من أليم عذابه.

رابعاً: تعليم الإنسان كيفية تعظيم هذا الخالق وأداء ما فرضه عليه من العبادات بجميع أنواعها على أتم نظام: حتى يكون القلب دائماً حاضراً والعبودية متحققة بكمال معناها. والنفس بعيدة عن لهوها ولعبها واحتجابها عن خالقها بالاغيار وخضوعها لسلطان الهوى واسترسالها في غيها وضلالها.

خامساً: تقرير الحدود ووضع القواعد التي ينسج المرء عليها في جميع المعاملات كعقاب الزاني وقطع يد السارق وقتل القاتل وحد القاذف وشارب الخمر وتمييز الحلال من الحرام. فلا يراق دم ولا تضاجع امرأة أجنبية ولا يصرف درهم واحد إلا في وجه الحلال: وهلم جرا من القواعد والقوانين التي يقام بها منار العدل حتى تستقيم أحوال العباد ويسود الأمن في البلاد. فهم من هذه الوجهة قائمون مقام القضاء والمشرعين:

سادساً: يشرحون للإنسان الطرق التي تستقيم بها حياته المادية ويحضونه على اتباعها كحضه على النشاط في العمل وضربهم له الأمثال ونطقهم بالحكمة التي تبغض إليه الكسل.

وقس على هذا كل ما لو قام به الإنسان من الأعمال في هذه الحياة الدنيا لعاش عيشة راضية مرضية.

إذا عرفت كل ما تقدم عرفت أيضاً أنه ليس من وظيفة الرسل عليهم الصلاة والسلام مباشرة وتعليم الصنائع واستخراج ما في باطن الأرض من معادن وإنماء ما فيها من نباتات.

وهكذا من سائر الفنون التي يباشرها أربابها والمشتغلون بها وقس على هذا كل ما ينافي وظيفة الوعظ والهداية والإرشاد. إذ وظيفتهم مجموعة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإرشاد الناس إلى سبيل الخير فيتبعوها وسبيل الشر فيجتنبوها.

إذا عرفت ما تقدم عرفت حقيقة وظيفة الرسل عليهم الصلاة والسلام والواجب الذي أرسلهم الله لأجل القيام به في هذا الوجود. وإذا ما ورد شيء عن الرسل والأنبياء وروي عنهم كلام في أحوال الأفلاك أو هيئة الأرض فإنما يقصد بهذا الفكر والخوض في بحار التأمل من عظمة الخالق والحث على ما أودع الله في تكوين هذه المخلوقات ليقوى اليقين بوجود خالق مبدع. وتنمو مصلحة الإنسان في معاشه ومعاده.

يخاطبون الناس على قدر عقولهم بلغة سهلة لتكون في مقدرة الأفهام وإلاّ ضاعت الحكمة في إرسالهم إلى كافة الأمم.

وعلى كل حال لا يجوز أن يقوم الدين حاجزاً بين الأرواح والأفهام وما ميزها الله من الإستعداد للعلم بحقائق الأشياء الممكنة بقدر الإمكان. حيث في ذلك منفعة متعلقة باستقامة أحوال الإنسان الدنيوية والأخروية.

من أجل ذلك حض الشارع الحكيم وأمر بالبحث والتنقيب بواسطة الأدلة والبراهين مع الاحتراس من تجاوز الحد في سلامة الاعتقاد وشرف القصد. إلى ههنا وقف القلم وانتهى جهد الفكر مع جلال الموضوع وعظم قدره.

شبهة مشهورة

رب قائل يقول: إذا كان الدين لازماً لجميع البشر في جميع أحوالهم الدنيوية والأخروية! وإذا كان كافياً بكل ما يحتاجه الإنسان لسعادة الدارين! فما بالنا نرى الناس سائحين في بحار الغواية تائهين في فيافي الضلال! راسغين في قيود الخلافات في العقائد. تقوم بينهم المنازعات والمناهضات. يتخذ كل ذي دين دينه حجة لاستباح محاربة من خالفه. فتراق الدماء وتدور رحى الحرب بينهم مع اختلاف المصالح والمنافع بين ظهرانيهم!.

وما بالنا نرى جماعة الدين الواحد ينقسمون على بعضهم ويتعصب كل فريق إلى مذهبه ومعتقده في فهمه فينفجر بركان الشرور وتنشق العصا وتضرم نيران الخلافات وتعم الكروب وتغير القلوب والضمائر والنفوس!.

وما بالنا نرى القلوب وقد ملأها الطمع والجشع والاعتداء وحب الشر والبعد عن الخير إلى غير هذا من ضروب الفتن وصنوف الشرور وأنواع الشقاء والبلاء والدواهي الدهماء!.

وما بالنا نرى الدين الذي تقول أنه ملاك جميع الأمور وسياج يحوط بجميع مصالح الإنسان في جميع الأحوال في كل زمان ومكان اتخذوا منه سبباً للمنازعات والمشاغبات!.

نقول: رويداً أيها السائل. اعلم أن كل ما يقع ويحدث من هذا القبيل فإنه وقع وحدث بعد زمن الرسل عليهم الصلاة والسلام وانقضاء حياتهم. ووقع الدين بين قوم لا يفهمون معناه لقصور في الإدراك من أصل الفطرة أو من أضلهم الله على علم من أهل العناد والبدع، أو الذين يغالون فيه، أو الذين لم يمتزج حبه بقلوبهم وضاقت سعة عقولهم عن فهم ما فيه من الحكم البالغة والأسرار الخفية. فأولوا على غير علم ما أراد الشارع الحكيم ولم يتصرفوا فيه كما كان يتصرف الرسل عليهم الصلاة والسلام. ومن سار على سنتهم ونهجهم ونسج على منوالهم في تقرير حقائق أصوله وفروعه. ولأجل تقرير هذه النظرية من الفهم نقول:

إن منزلة الرسل منزلة العقل للإنسان بل هو أرقى من ذلك وإننا نرى الجمهور العظيم من الناس يدركون بواسطة البصر المنظر القبيح والمنظر الحسن ويفرقون بين الطريق السهل والطريق الوعر ولكنهم قد يخطئون في التمييز بين الحسن والقبيح. إما لإهمال أو لجاج وعناد في النفوس ولو قام ألف دليل على خطئهم. فالنقص ليس من جهة الدين. بل من جهة القائمين به والداعين إليه الذين يدخلون فيه ما ليس منه ويخرجون منه ما هو من القواعد الأساسية.

ولم نسمع أن رسولاً من الرسل عليهم الصلاة والسلام جاء بدين ناقص غير واف بحاجة البشر. وإنما الأهواء والقصور وعجز المدارك كل ذلك كان سبباً في كل ما يقع بين الناس من المنازعات والمشاغبات، اللهم إلا الذين أنار الله بصائرهم بنور الحكمة. ولذا يقول الله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (١).

---

(١) (٢) البقرة: ٢٦.

ولا يقال إن الذين ضاقت سعة عقولهم عن إدراك فهم المراد عن أسرار الدين الحنيف داخلين في عداد هؤلاء الفساق وإنما هم فريق آخر أولوا الدين بحسب قوة مداركهم وأفهامهم.

قد عرفت أن كل ما يقع من الاختلافات وما يحدث من البدع في شيء إنما وقع ذلك بعد زمن الرسل عليهم الصلاة والسلام للأسباب التي أوضحناها. وإلا فإن كل شرع يجيء به كل رسول يكون كاملاً وافياً بحاجات الإنسان في كل زمان ومكان.

إذا عرفت ذلك فقد ارتفع الإشكال وعرف مصدر الداء وما يحتاجه من الدواء. هدانا الله وإياك إلى فهم معرفة حقيقة الدين وجعلنا جميعاً من أهل اليقين.

حكمة إرسال نبينا عليه الصلاة والسلام

كان هذا الكون قبل زمن النبوة المحمدية في ظلام حالك من الكفر والإلحاد. وكان الناس في غمرات الظلم والجور وأينما وجهت وجهك ترى مظالم يحار في وصفها الفكر ويكل دون شرحها البنان. مهما أوتي من العلم وقوة البيان.

كانت دولتا الفرس والرومان هما الدولتان اللتان لهما السيطرة على أغلب الأمم في العالم. فدولة الفرس قابضة على زمام الشرق ودولة الرومان قابضة على زمام الغرب. وكلتا الدولتين كان يرتكب حكامهما وأهل الجاه والغنى من رعاياهما مع باقي الرعية مظالم متعددة ويصبون عليهم صوت العذاب الأليم ويبنون من صنوف المظالم بروجاً مشيدة.

ضرائب يئن من عبئها الفقراء. واستعباد بغير شفقة ولا حنان. ودماء تراق على الثرى بلا جريرة. وحقوق تهضم بغير مسوغ سوى ضعف أصحابها أمام قوة الظالمين وغطرسة الباغين وقسوة المتوحشين. وقل ما شئت من ضروب الجور وصنوف الشدائد التي كانت تنصب على الشعوب المحكومة لهؤلاء الحكام الطغاة والأغنياء الذين صور لهم الجهل والظلم أن كل من دونهم عبيد لهم وأنهم هم المقدسون المالكون رقاب العباد حتى فقد الأمن وملئت القلوب بالرعب والخوف واستولت الشدائد والمصائب على الضعفاء وعم البلاء والدواهي الدهماء وضجت الأرض واشتكت إلى خالقها من هذه النوائب والكوارث.

وكانت هذه المظالم سبباً في أن الذل والمسكنة والاستكانة تأصلت في نفوس تلك الأمم فصارت كالغرائز والطبائع القائمة بالنفوس يتوارثها الأبناء عن الآباء. والأحفاد عن

الأجداد. هذا من جهة الأمم التي كانت محكومة وخاضعة للقياصرة والأكاسرة ومن دونهم من الملوك والأمراء وباقي الحكام.

وأما الأمة العربية التي لم تكن خاضعة لسلطان يسوسها ويدير أمورها فإن حروبها واشتباك القبائل فيها كم أفنى من عشائر وخرّب من بيوت. حتى أن النوادب كن يملأن الفضاء بالعويل والنواح. وضربهن على الدفوف كان يزعج الطيور في أوكارها والهوام في مساكنها والوحوش في غاباتها. وكان العربي يعد القتل والسلب من مصائد الشرف ومنازل الرفعة. وكان عندهم السلب والنهب حرفة عامة فيهم.

بلغت بهم الوحشية إلى أن أحدهم يدفن فلذة كبده وهي حية طفلة بلا ذنب جنته. وكانت حجتهم إذا فندت عملهم الوحشي هذا إنهم يخشون العار في المستقبل ويخافون أن ترتكب عار الزنا يوماً ما. وهي حجة باطلة كما لا يخفى.

بلغت بهم الدرجة إلى أنهم كانوا يقتلون أولادهم خشية الإملاق ولم تؤثر بلاغتهم وفصاحة ألسنتهم وخطبهم وشعرهم على نفوسهم فتأنف من ارتكاب أمثال هذه الجرائم والمظالم التي تمثل الوحشية بأكمل معناها.

وهذه التواريخ أمامنا وبين أيدينا نقرأ فيها كل يوم وقائع أيامهم كحرب البسوس وداحس والغبراء وأيام الفجار وغير ذلك من الحروب التي خضبت الأرض بالدماء ظلماً وعدواناً.

أنظر أحوال القوم. لأجل ناقة قتلها رئيس بني ربيعة كانت لبني شيبان قامت الحرب بين هاتين القبيلتين ودامت بينهم أربعين عاماً على ما يقال في تقدير المدة التي دارت رحاها فيها.

هذا من جهة الظلم والجور والحوادث والكوارث واعتداء الإنسان على ابن الإنسان.

وأما من حيث المعتقدات فإن القوم كانوا شيعاً شيعاً في المذاهب والنحل يعبدون الحيوان الأعجم والحجر الصلد والنار المحرقة والكوكب الذي يعتريه الأفول والدهر الفاني المتغير. وغير هذا من المذاهب والعقائد الفاسدة.

اللهم إلا بقايا شرائع الأولين كانت عند نفر منهم ومع ذلك فقد أدخلوا فيها من التحوير والتحريف والتبديل ما أخرجها عن أصل وضعها ولم يفهموا معناها، فضلوا

وأضلوا ودارت من أجل ذلك الحروب واضطربت الأحوال وكثرت البدع. حتى أن القوم بلغت بهم الدرجة أن صنعوا أصناماً من الحلوى وعبدوها ولما جاعوا أكلوها.

فأظلم الكون لأجل هذه المحن والفتن المسطرة على صفحات الزمن.

وكأن الأرض قالت بلسان فصيح: رب أجرني من هذه الخطوب، وأغثني من هذه الكروب، فاستجاب الله نداءها وأرسل إلى الناس كافة ذلك الرسول الكريم ذا الخلق العظيم عليه أفضل الصلاة والتسليم، واختار خير الأمم، وانتخب أفضل القبائل وانتقى منها أشرف العشائر واصطفى منها أكرم البيوت. ثم أبرز للكون هذا الجوهر الصافي الخالص الطيب الطاهر. فهو خلاصة المجد والشرف الصميم وواسطة العقد الثمين وأفضل الأنبياء والمرسلين والملائكة والخلق أجمعين.

بزغت شمس طلعته ﷺ في الليلة الثانية عشرة من شهر ربيع الأول عام الفيل الموافقة «٢٠» إبريل سنة ٥٧١ م بمكة المكرمة وكان أبوه عبد الله قد توفي قبل مولده، ولما بلغ السادسة من عمره فقد أمه آمنة إبنة وهب. فكفله جده عبد المطلب، وبعد سنتين فقده، فكفله عمه أبو طالب، ولم يكن والده تاركاً له إلا خمساً من الإبل وبعض نعاج، وقيل غير ذلك، ولما صار في كفالة عمه نشأ معزوزاً بين بني عمه مع أن عمه أبا طالب لم يكن ذا مال يكفي لعول أهله بل كان فقيراً مع سخاء وكرم نفس وهمة عالية يضرب بها الأمثال فنشأ النبي ﷺ بين بني عمه كريم الأخلاق شريف الطبع ليس لذل اليتيم إليه سبيل، ولا لمسكنة الفقير طريق إليه.

نشأ ﷺ بين تلك الظلمات الحالكة من كفر الملحدين وظلم الجبارين وهو من عهد طفوليته إلى أن جاءه الوحي الإلهي الأمين.

نشأ بعيداً عن تلك الأوهام والخرافات، طاهر الذيل من كل تلك الضلالات. من غير معلم ولا مؤدب. موحداً والقوم مشركون ولم يكن ممن يقرأون ويكتبون ولا ممن اشتهروا بالخطابة ولا من ناظمي الأشعار. وفي هذا معنى لا يفهمه إلا الراسخون في العلم الذين استناروا بنور الحكمة والعرفان.

أنت تعلم أن الطفل ينشأ على ما عليه قومه وأهله من العقائد والمعتقدات ولكنه ﷺ نشأ مخالفاً لقومه في عقائدهم ومذاهبهم ولو كان متعلماً القراءة والكتابة ومعدوداً من الشعراء والخطباء قبل البعثة لكان في مخالفته لقومه مندوحة يقبلها العقل. وأيضاً لو

خالفهم بعد كبر سنه وبلوغه حد الرجال الكاملين في العقل لكان يقال إنه خالفهم بمقتضى عقله الراجح وفهمه الثاقب. وبعد مرامي نظره الذي لا يخطيء. ولكنه ﷺ نشأ على هذه الحالة الشريفة وبغضت إليه الوثنية من صغره إلى أن أرسله الله كامل الأخلاق والآداب بعيداً عن تلك الخرافات حتى كان يسمى عند قومه قبل الرسالة بالأمين.

عجيب أمر هذا الرسول الكريم: لم يكن ذا جند وقوة سلطان وسعة من المال حتى يقال إنه قام بالدعوة العامة لكافة الخلق. بل قام بها وحيداً فريداً لا وزير له ولا عضد يساعده. وقام في وجهه الجبابرة المتكبرون وأصحاب النفوذ في الأمم والشعوب وأرباب العروش فأنزلهم من سماء كبريائهم وغطرستهم وأوقفهم عند حد الخضوع والذلة لمن له العزة والجبروت. وأفهمهم أن العزة لله وحده. وأنه يعطي الملك لمن يشاء. وينزع الملك ممن يشاء. وأنهم لم يتبوأوا منازلهم ليستعبدوا الناس وإنما تبوأوها ليديروا مصالحهم ويرفعوا عنهم المظالم وما هم إلا أشبه شيء بالراعي الذي يهدي غنمه إلى حيث الخصب والمرعى المريع ويسهر في سبيل حفظها من الذئاب والوحوش الضارية ويمنع عنها كل أذى ويجلب إليها كل راحة ونعيم. وإنهم في أممهم لا يفضلونهم بالرئاسة والمال وعظم الجاه. بل بالتقوى واتباع نهج السداد ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [(١)] وإنهم مسؤولون عنهم بين يدي الديان يوم تحاسب كل نفس عما عملت من خير أو شر.

صاح في وجوه أهل الزيغ والشرك وأمرهم بترك عبادة الأصنام والبعد عن التمسك بذيول الأوهام. وقال لهم لا معبود بحق إلا الواحد الأحد خالق هذه العوالم المحجوب عن العيون الذي لا يحيط به مكان ولا يجري عليه زمان ولا تصل إلى كنه ذاته الأفكار وخطاراتها ولا تكيفه العقول ولا تدرك حقيقته المدارك. وأن العجز عن درك ذاته هو الإدراك.

نادى في أهل الكتاب الذين غيروا وبدلوا ونسخوا وحرفوا وصحفوا ما أنزل الله وأشركوا به ما لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ونسبوا له سبحانه وتعالى صفات وأفعالاً لا تنطبق على الذات الربانية. وقال لهم على لسان القرآن: ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [(١)] ذلك الإله الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له شريك في الملك.

---

(١) (٤٩) الحجرات: ١٣.

(١) (٣) آل عمران: ٦٤.

كبح جماح أولئك العاتين الجبارين سفاكي الدماء ومنتهكي حرمة الأعراض. وميتمي الأطفال. ومؤيمي النساء. وآكلي حقوق الضعفاء. وظالمي الأبرياء وأرغم أنوفهم وهم صاغرون. وأذل نفوسهم وهم مستكبرون. وقادهم إلى سبيل الرشاد وهم خاضعون فحقنت الدماء وحفظت الأعراض والأموال والأرواح من أيدي الظالمين واعتداء الطغاة الجبارين وانتصف المظلوم الفقير واتخذ الضعيف من العدل سلاحاً ماضياً ينتصر به على القوي.

عطف على الذين عبدوا الأوهام واتبعوا سلطان الشهوات وعكفوا على اللذات واغتروا بمتاع الدنيا والذين فسدت أخلاقهم ونقصت آدابهم فهداهم إلى الصراط المستقيم. وأبان لهم أن متاع الدنيا قليل. وأن لا نعيم إلا نعيم الآخرة ذلك النعيم المقيم. فاهتدى الضال، وتأدب الفاتك، واستقام المعوج وعرف الطريق التائه في فيافي الطغام.

أنظر يا رعاك الله إلى فرد لا وزير له ولا معين يأخذ بيده يقوم بكل هذه الأمور التي تكل دونها الهمم وتتصاغر أمامها العزائم.

فرد واحد دانت لطاعته الأمم وملوكها. ضعيف أذلّ الجبابرة وأخضع تيجان القياصرة والأكاسرة. أمي تضاءلت دونه مدارك الفلاسفة وأفهام العلماء وبلاغة الشعراء والخطباء.

نشأ أمياً بين حفدة الوثنية قام يرشد قراء الكتب السماوية إلى تمحيص ما بأيديهم ما فيها وما احتوت عليه.

بهر العقول بهذه الدعوة وحارت مدارك ذوي الرأي وأهل النهي في هذا الضعيف القوي الأمي الحكيم الفرد الذي دانت له الملوك والقياصرة والأكاسرة وخضعت له الرقاب.

كان ﷺ ذا نفس كبيرة تطمح للمعالي من صغرها ولا تريد إلا عظائم الأمور. روي أنه كان لجده عبد المطلب فراش يوضع في ظل الكعبة تكرمة له وخصيصاً به فلا يجلس عليه سواه وبنوه يحفون من حوله ولا يقربونه. فكان محمد ﷺ وهو غلام يسير حتى يجلس مجلس عبد المطلب فيأخذه أعمامه ويؤخرونه. فيرى ذلك عبد المطلب فيقول: دعوا ابني هذا فوالله إن له لشأناً. ثم يجلسه معه على فراشه دون أعمامه ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه منه:

أليس يا من تطعنون على الإسلام وتجحدون رسالة سيد الأنام من أكبر المعجزات

هذه الأمور وأقوى الأدلة على صدق رسالته وإنه إنما استمد هذه القوة وهذه الحكمة من بارىء النسم وواهب النعم ومؤتي الحكم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم.

ها قد عرفت يا صاح كيف قام سيد المرسلين بالدعوة وعلمت كيف نشأ صاحب الرسالة ﷺ فاحتفظ بما علمت ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾[1].

رأي هرقل ملك الروم

في بعثة نبينا عليه الصلاة والسلام

يروى عن أبي سفيان أنه قال: أرسل لي هرقل وكنت في ركب من قريش بالشام. فدعانا في مجلسه وحوله عظماء الروم. ثم دعا بالترجمان فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي. قال أبو سفيان فقلت: أنا أقربهم. فقال: أدنوه مني وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سائل هذا عن هذا الرجل فإن كذبني فكذبوه. فوالله لولا الحياء من أن يؤثر عليّ كذباً لكذبت عليه. ثم كان أول ما سألني عنه أنه قال: كيف نسبه فيكم؟ فقلت: هو فينا ذو نسب. قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا. قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا. قال: فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ قلت: ضعفاؤهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون، قال: فهل يريد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: فهل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول: ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل يغدر؟! قلت: لا. ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها. ولم يمكني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة. قال: فهل قاتلتموه؟! قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال. ينال منا وننال منه، قال: فما يأمركم؟ قلت: يقول لنا اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً واتركوا ما كان يعبد آباؤكم ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.

فقال للترجمان قل له: إني سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله فذكرت أن لا، فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله، وسألتك هل كان في آبائه من ملك فذكرت أن لا، فقلت: لو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك

---

(١) (٢٠) طه: ١١٤.

هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فذكرت أن لا. فقد عرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك هل أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم. فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل، وسألتك أيزيدون أم ينقصون فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم، وسألتك هل يريد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حتى يخالط بشاشة القلوب، وسألتك هل يغدر فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك بما يأمركم فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقوله حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين. فلو علمت أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه: اهـ.

ولقد شهد له بالصدق والأمانة وعفة النفس من صغره أكبر أعدائه وألدّ خصومه وهو النضر بن الحارث من بني عبد الدار إذ يقول: لقد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثاً وأعظمكم أمانة حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم قلتم ساحر، لا والله ما هو بساحر.

هذا ومن غرائب الصدق أنه ﷺ ولد يوم الإثنين ونبيء يوم الإثنين، وهاجر من مكة إلى المدينة يوم الإثنين، ومات يوم الإثنين واليوم الذي ارتضته أهل مكة حكماً في وضع الحجر الأسود بالكعبة كان يوم الإثنين وولد ﷺ في ربيع وهاجر في ربيع، ومات في ربيع، عليه الصلاة وأتم التسليم.

رأي النجاشي في نبينا عليه الصلاة والسلام

لما أشتد أذى مشركي مكة على المسلمين أتباع النبي ﷺ قصدوا الهجرة من مكة إلى بلاد الحبشة ليأمنوا أذى هؤلاء المشركين وكان على رأس المهاجرين جعفر بن أبي طالب وقد وصلوا الحبشة، ولكن مشركي مكة أرسلوا وراءهم رسولين من دهاة العرب وهما عمرو بن العاص وعبد الله بن ربيعة قبل أن يسلما، وفي رواية أن الرسول الثاني عمارة بن الوليد.

وكان مع الرسولين هدية يحملانها إلى حاشية النجاشي لكي يطردوا المهاجرين من بلادهم. وقال الرسولان إلى النجاشي بعد أن استمالا حاشية الملك: أيها الملك لقد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دينهم ودين قومهم ولم يدخلوا في دينك بل جاؤوا بدين

ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنتم. وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم لتردهم عليهم.

ولما نظر الملك إلى حاشيته فأجابه من وقعت في يده هدايا قريش إن الحق ما قاله هذان الرجلان فالواجب أن يرد هؤلاء إلى أهلهم ولكن النجاشي لم يعبأ بقولهم حتى يسمع كلام المهاجرين وقولهم في هذا الزعم. فدعا بهم فقدموا إليه ولم يسجدوا له تحية كما هي عادتهم فقال الملك لجعفر: ما بالكم لا تسجدون لي؟ فقال جعفر: إنا لا نسجد إلا لله رب العالمين. ثم سألهم عن دينهم الجديد. فأجابه جعفر بن أبي طالب بقوله: أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف حتى بعث الله فينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم ونهانا عن الفواحش وقول الزور فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به. فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا في ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان. فلما قهرونا وظلمونا خرجنا إلى بلادك واخترناك ورجونا ألّا نظلم عندك: قال النجاشي: هل معك مما جاء به رسولكم عن الله شيئاً؟ قال جعفر: نعم وقرأ عليه آيات من سورة مريم فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته. ثم نظر إلى من حوله وقال: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة. ثم أمر بالهدايا أن ترد فردت إلى الرسولين وشيعهما وهو يقول: والله لا أسلمهم إليكما أبداً:

ولما خرج الرسولان بعد ما لحقهما من الفشل والعار تحدثا مع بعضهما وقالا له: أتعلم أيها الملك ماذا يقول دين هؤلاء في عيسى ابن مريم إنه يقول عبد الله. أفترضى عمن يقول ذلك في المسيح؟ عند ذلك طلب النجاشي المهاجرين مرة ثانية. فلما وصلوا إليه قال لهم: ماذا قال دينكم عن عيسى؟ قال جعفر بن أبي طالب: إنه يقول إنه عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم. قال النجاشي: إن ما بين الدينين لأقل من هذا وأشار إلى عود من القش ثم نظر إلى الرسولين مرة أخرى بعينه فقط. ثم أمر للمهاجرين بأن يظلوا في جواره ملحوظين بعناية الله إلى أن يتوجهوا إلى بلادهم سالمين من غير أذى يلحقهم من أي مخلوق كان.

وهذه معجزة لرسول الله ﷺ لأنه رأى اشتداد أذى مشركي مكة لمن آمن به فقال: «**لو أنكم تفرقتم في الأرض حتى يجعل لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه**» فقالوا له: وإلى أين نذهب يا رسول الله فقال لهم إلى: «**ها هنا**» وأشار لهم بيده الشريفة إلى بلاد الحبشة وقال:

«فإن فيها ملكاً لا يظلم ولايظلم عنده أحد وهي أرض صدق» فهاجر الصحابة إلى بلاد الحبشة ورأوا فيها من أخلاق النجاشي ما ذكرته لك باختصار.

كتاب نبينا إلى النجاشي والرد عليه

في سنة ستة من الهجرة بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري بكتاب إلى النجاشي (**أصحمة**) وكان هو الملك على بلاد الحبشة يدعوه فيه إلى الإسلام. وقد رد على النبي ﷺ بكتاب. وها هي صورة كتاب النبي عليه السلام.

بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى النجاشي «**أصحمة**» وكان هو الملك على بلاد الحبشة: أما بعد فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته التي ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه. وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته وأن تتبعني وتؤمن بي وبالذي جاءني فإني رسول الله وأنا أدعوك وجنودك إلى الله تعالى. وقد بلغت ونصحت فأقبل نصيحتي وقد بعثت إليكم ابن عمي جعفراً ومعه نفر من المسلمين فإن جاؤوك فأقرهم ودع التجبر والسلام على من اتبع الهدى:

فلما وصل الكتاب إلى النجاشي وضعه على عينيه وعظمه ونزل من على سريره فجلس على الأرض. وقد وضع الكتاب في حق من العاج ـ سن الفيل ـ وقال: والله لا تزال الحبشة بخير ما بقي هذا الكتاب فيهم: وقد أسلم وبايع جعفر بن أبي طالب على الإسلام وأرسل صحبة عمر بن أمية الضمري إلى رسول الله ﷺ كتاباً هذه صورته:

بسم الله الرحمن الرحيم. إلى محمد رسول الله ﷺ من النجاشي (**أصحمة**) سلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته لا إله إلا الله الذي هداني إلى الإسلام. أما بعد فقد وصلني كتابك يا رسول الله فما ذكرت فيه من أمر عيسى ابن مريم فورب السماء والأرض إن عيسى ابن مريم لا يزيد على ما ذكرت ولا علاقة ما بين النواة والقمح. وقد عرفنا بما بعثت به إلينا وشهدنا بأنك رسول الله صدقاً مصدقاً وقد بايعتك بواسطة ابن عمك جعفر وأسلمت على يديه لله رب العالمين والسلام عليك ورحمة الله وبركاته آمين.

ولما ورد هذا الكتاب قال النبي ﷺ في بعض الروايات (**اتركوا الحبشة ما تركوكم**).

القرآن الشريف

كلام الله القديم، وصراطه المستقيم وحجته الدامغة، ونوره الساطع، وسيفه القاطع أعناق الكفر، ومنهله العذب الراوي من ظمأ الجهالة، وعلمه الهادي من الضلالة، هو ينبوع الحكمة وميزان العدل وملاك كل الأمور. معجزة المعجزات. وآية الآيات. يبقى بقاء الدهور، محفوظاً من أيدي المحرفين. يتلى ويروى ولا يمل. لذيذ الأسلوب، فصيح التركيب، تحدى البلغاء فأفحمهم، وحاجوه فأقنعهم، وحاربوه فخذلهم، وانتصر عليهم وأدلى بالبرهان إليهم، نزل به جبريل الأمين على سيد المرسلين، وحياً من رب العالمين.

لقد بينا في الفصل قبل هذا كيف نشأ ﷺ أمياً لم يعلمه معلم، ولم يؤدبه مؤدب، ولم يلقنه ملقن، ولم يكن في نشأته من شعراء العرب ولا من خطبائهم حتى تكون هناك مندوحة لمن يتهموه ﷺ بأنه هو صاحب هذه الآيات وهذا الكلام المكتوب في المصاحف المحفوظ في الصدور.

نزل القرآن بهذا اللسان العربي الفصيح في عصر كانت البلاغة عند العرب في ريعان شبابها ورونقها، والقوم كانوا يتفاخرون بأشعارهم حتى لقد بلغت بهم الحالة إلى أنهم كانوا يسجدون للبيت البليغ من الشعر، وعلقوا أشعارهم على الكعبة المشرفة اعتزازاً بها وشهادة لهم بالنبوغ في البيان.

فلما دعاهم ﷺ إلى الإسلام وأفهمهم أنه تنزيل من رب العالمين قال الجاحدون منهم تعصباً لمعبوداتهم وتمسكاً بمعتقداتهم إنه قول شاعر. فرد الله عليهم بقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾[1] وقال أيضاً: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا﴾[2] فرد عليهم بقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾[3].

ثم أراد الله سبحانه وتعالى أن يبين لهم أنه معجزة أيّد بها رسوله الكريم. قال لهم على لسان نبيه: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾[4] وفي آية أخرى يقول: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾[5] وأنتم أفصح الناس لساناً وأرفاهم بيانا.

---

(١) (٣٦) يس: ٦٩.
(٢) (٢٥) الفرقان: ٥.
(٣) (٥٦) الواقعة: ٨٠.
(٤) (١١) هود: ١٣.
(٥) (٢) البقرة: ٢٣.

ثم زاد في الحجة قوة وفي البرهان وضوحاً وقال لهم: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾ ﴾[1].

ولما عجزوا عن التحدي وأصروا على عنادهم وعرفوا أنه لا يوجد في الناس كافة وهم في مقدمتهم من يقدر على مجاراته وبهرتهم الحجة التي أقامها عليهم من أنزله وهي عدم قدرة الإنس والجن على مجاراته ولو عضد بعضهم بعضاً في تأليف ووصف الكلام واختيار المعاني. قالوا إن محمداً تقوله على الله فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٥١﴾ ﴾[2].

لقد عرفت أن العرب وهم هم في البلاغة والفصاحة لم يقدروا على مجاراة أقصر سورة من القرآن. وأزيدك أيضاً أنهم عجزوا عن الإتيان بآية مثل ما في الكتاب العزيز.

وليس هذا كل ما في القرآن من الإعجاز فإنه معجز أيضاً من جهة ما تضمنه من قواعد التشريع في العبادات والمعاملات. تلك القواعد التي لو اجتمع علماء التشريع من يوم أن خلق الله الأرض وهذا الوجود إلى أن تقوم الساعة، وتآزروا وتعاونوا لما أمكنهم أن يضعوا من أصول وقواعد العبادات مثل ما جاء في القرآن الشريف. وكذلك لما أمكنهم أن يضعوا من أصول التشريع في المعاملات مثل ما جاء في القرآن الكريم من القواعد. تلك القواعد الكافلة لانتظام شمل العالم من جميع الوجوه في تقرير الحدود والعقوبات. وفي إقامة العدل في الحقوق المدنية والجنائية وغير ذلك مما تعبت فيه فطاحل العلماء والفلاسفة وأهل الشرائع الوضعية الذين نراهم الآن يحورون ويبدلون ويغيرون في مواد قوانينهم. وكل أمة تضع لها قانوناً مخالفاً لقانون غيرها مع نسخ في المواد وإصلاح في مواضعها ولم يهتدوا إلى الآن إلى وضع قانون جامع لشتاتها كافل لراحة البشر.

ونقول لك أيضاً. إن من إعجاز القرآن تلك الحكم البالغة والمواعظ الحسنة من

---

(١) (١٧) الإسراء: ٨٨.

(٢) (٦٩) الحاقة: ٤٤ ـ ٥١.

ضروب الأمثال وجوامع الكلم التي لم تأت حكماء العصور الماضية وبلغاؤهم وشعراؤهم بمثلها. هذا ولما كان العرب وهم أفصح الناس بياناً قد عجزوا عن تحدي القرآن الشريف فما بالك بغير الناطقين بالضاد. من جميع أصناف البشر؟ لا شك في أنك تقر بأنهم أقصر باعاً وأعجز منهم همة وأحقر من أن يتحدى أحد هذا القرآن الكريم.

قد ورد في صحيح الترمذي عن الحارث الأعور رضي الله عنه قال: مررت في المسجد فإذا الناس يخوضون في الأحاديث فدخلت على علي رضي الله عنه فقلت: يا أمير المؤمنين ألا ترى أن الناس قد خاضوا في الأحاديث. قال وقد فعلوا. قلت نعم. قال: أما أنّي قد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إلا إنها ستكون فتنة**» فقلت ما المخرج منها يا رسول الله. قال: «**كتاب الله. فيه نبأ ما كان قبلكم. وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم. هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله. ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله. وهو حبل الله المتين. وهو الذكر الحكيم. وهو الصراط المستقيم. هو الذي لا تزيغ به الأهواء. ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء. ولا يخلق على كثرة الرد. ولا تقضي عجائبه. هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ[1]﴾. من قال به صدق. ومن عمل به أجر. ومن حكم به عدل. ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم**»: اهـ.

قال أحد المبشرين الأمر يكيين عندما عرف الحق وتجلت له الأنوار الإسلامية: إن ثبات الإسلام في وسط هذه العواصف الهيجاء التي هبت عليه منذ الحروب الصليبية والفظائع الأسبانية. (محاكم التفتيش) والاستعمار الغربي لمعجزة من أعظم معجزات القرآن.

قال الدكتور (مريس) الفرنسي الشهير: إن القرآن أفضل كتاب أخرجته العناية الأزلية لبني البشر: وقال: (بوسورت سميث) الإنكليزي الكبير في كتابه الذي أسماه حياة محمد: من حسن الحظ في التاريخ دون غيره أن محمداً أسس في وقت واحد ثلاثة أشياء من عظائم الأمور وجليل الأعمال فإنه مؤسس: لأمة وأمبراطورية وديانة. مع أنه أميّ. وقلما كان يقدر أن يقرأ أو يكتب ومع ذلك أتى بكتاب هو آية في البلاغة ودستور للشرائع وللصلاة وللدين في آن واحد.

---

(١) (٧٢) الجن: ١.

وقال المسيو (جيبون): القرآن مسلم به من حدود (الأقيانوس الأطلانطي) إلى نهر لجانس بأنه الدستور الأساسي ليس لإصول الدين فقط بل للأحكام الجنائية والمدنية وللشرائع التي عليها مدار حياة النوع الإنساني وترتيب شؤونه. إن الشريعة المحمدية تشمل الناس جميعاً في أحكامها من أعظم ملك إلى أقل صعلوك فهي شريعة حيكت بأحكم وأعلم منوال شرعي لا يوجد مثله قط في العالمين:

وقال المسيو (كارليل): إن القرآن كتاب لا ريب فيه وإن الإحساسات الصادقة الشريفة والنيات الكريمة تظهر لي فضل القرآن. الفضل الذي هو أول وآخر فضل وجد في كتاب نتجت عنه جميع الفضائل على اختلافها. لا بل هو الكتاب الذي يقال عنه في الختام: فليتنافس المتنافسون لكثرة ما فيه من الفضائل المتعددة.

وقال الدكتور (م ـ أهنو) قنصل اليابان في مصر: إن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها إذا تمسكوا بما جاء في القرآن الكريم من تعاليم فإن هذا يكون سبباً في تقدمهم في نواحي الحياة الاجتماعية والأدبية والدينية والسياسية. لأن القرآن قد جمع المدنيات قديمها وحديثها وهو كتاب جامع شامل وقد حصلت منه على عدة تراجم ولكني الآن أطلع على الترجمة الإنكليزية. وقد طالعت فيها كثيراً فأعجبت بما جاء فيه من حكم بالغات وتنظيم للمعاملات. وإني معجب كل الإعجاب باهتمام المسلمين بأمر دينهم والعمل على رفعته. وهم إن ساروا على هذا فإنهم لا شك واصلون إلى غايتهم التي يرجونها:

وقال المستر (أدموند بورك) الإنكليزي الشهير: القانون المحمدي قانون ضابط للجميع من الملك إلى أقل رعاياه. وهو قانون نسج بأحكم نظام قضائي وأعظم قضاء عليم وأعظم تشريع منور ما وجد قط مثله في هذا العالم.

وقال المسيو (جوته): كلما قلبنا النظر في القرآن تملكتنا الروعة والوجل لكننا سرعان ما نشعر نحوه بجاذبية تنتهي بنا حتماً إلى الإكبار فهو بين الكتب المقدسة نموذج عال رفيع، ولسوف يحيا تأثيره في النفوس في جميع الأجيال والعصور.

وقال المسيو (دافيد بورت): القرآن دستور اجتماعي مدني تجاري حربي قضائي وهو فوق هذا كله قانون سماوي عظيم.

وقال المسيو (وليم موير) جميع حجج القرآن طبيعية ودالة على عناية الله بالبشر:

وقال المسيو (جبون) الدستور الإسلامي دستور شامل موحد بين الجميع من الرأس

المتوج إلى أبسط الأشخاص. لأنه يقوم على حكمة أنتجتها أوسع العقول معرفة وعلماً بهذه الحياة.

وقال المسيو (برناردشو): لا بدأن تعتنق الأمبراطورية البريطانية النظم الإسلامية قبل نهاية هذا القرن، ولو أن محمداً بعث في هذا العصر وكانت له (الديكتاتورية) على هذا العالم الحديث لنجح تماماً في حل جميع المشاكل العالمية وقاد العالم إلى السعادة والسلام: اهـ.

وقال بعض الفلاسفة وكبار العلماء: أليس القرآن هو الوثيقة السماوية العظمى التي حررت الإنسان من ربقة الظلم والعسف والطغيان وطهرت القلوب من أدران الحقد والحسد والبغي. وأنارت للناس سبيل الحق والإيمان والعدل والإحسان ورسمت للأمم حدود المثل الأعلى في الحكم والسياسة والاجتماع والعمران ومنحت الفطرة الإنسانية أوفى نصيب من القوة والصفاء والتهذيب وجعلت الناس سواسية في الحقوق والحدود والواجبات. وأسلمت الوجوه والقلوب إلى الله. وحطمت الفوارق التي جعلت بعض الناس أرباباً من دون الله فالمسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم لا ولي ولا مولى ولا رفيع ولا وضيع. الكل إخوان في الله أعوان في الجماعة للفرد، والفرد للجماعة.

لقد نزل القرآن إلى الناس واضح المبدأ والغاية والشرعة والسبيل ما عصب العيون ولا حجب العقول ولا أغلق القلوب ولا حبس الأرواح. بل أعد لكل أولئك الأجنحة الصاعدة وأطلقها في جو صاف رضي فسيح. فالحياة الروحية والحياة المادية والحياة العقلية والحياة القلبية كلها تقوم في ظل الإسلام صفاً واحداً. وتتجه بقوة واحدة يؤيد بعضها بعضاً ويشد بعضها إزر بعض في غير تخاذل ولا تواكل ولا استحذاء ولا التواء إلى غاية واحدة هي السعادة الشاملة للفرد وللجميع وما أعظم ما تعاهد القرآن العقل الإنساني ونفض عنه غبار الخمول وفك عنه قيود الجمود ودفعه بقوة إلى التفكير والتدبير والاعتبار والاستفسار والنظر والاستدلال والتأمل في آيات الكون وفي دقائق الخلق وفي عجائب الطبيعة وفي أسرار الحياة وفي عبر التاريخ وفي آثار الأولين. وربط القرآن بين العقل والقلب برباط وثيق. فالإيمان يقوّم العقل والعقل يقوي الإيمان. ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾[1].

(١) (١٠) يونس: ١٠١.

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ .[1] ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[2].

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾[3]. قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ[4] ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾[5].

لهذه القوة دفع القرآن العقل إلى حظيرة التفكير المستنير. حتى لقد دفعه بهذه القوة إلى التفكير في القرآن نفسه ليتبين أفيه مغمز من الضعف والاختلاف. أم هو الجد والواضح القوي القويم، ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾[6].

واحترم الإسلام العقل الإنساني فجعل قياسه الصحيح ركنا من أركان التشريع الإسلامي.

والقرآن كتاب التوحيد الأعظم شعاره الوحدة المستمسكة في الدين والدنيا. وفي السلم والحرب. وفي المبدأ والغاية. المسلمون جميعاً أمة واحدة وكلمة واحدة: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾[7].

وهنا نقف وقفة قصيرة. فبعد أن جمع الله شمل المسلمين بقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾[1] حذرهم التحذير كله من تفريق الكلمة وتشتيت الجماعة بقوله عز

(١) (٣) آل عمران: ١٩٠.
(٢) (٥١) الذاريات: ٢١.
(٣) (٢٣) المؤمنون: ١١٥.
(٤) (٦) الأنعام: ١١.
(٥) (٧) الأعراف: ١٧٩
(٦) (٤) النساء: ٨٢.
(٧) (٢٣) المؤمنون: ٥٢.
(٨) (٢٣) المؤمنون: ٥٢.

وجل: ﴿وأنا ربكم فاتقون﴾[٢] وما أسرع ما أقبل المسلمون على كتاب الله مستشفين ما وراء الألفاظ من أسرار العلم والأدب والحقيقة والشريعة والآثار والأخبار. وفي سبيل البيان بمقاصد القرآن وضعت العلوم الدينية واللسانية والكونية ثم ترجمت علوم المدنية العالمية. وما لبثت اللغة العربية أن أصبحت مثاب جامعة لعلوم اليونان والرومان وفارس والهند ومصر. وكل أمة تضرب إلى المدنية العلمية والأدبية والفنية بعرق قديم وتنزع إليها بسهم كريم. ثم ما لبث المسلمون أن ناقشوا هذه العلوم والآداب بخاطر وثّاب وعقل غير هيّاب وجرّأتهم سماحة دينهم على البحث والاستقصاء. والتجديد والبناء وبذلك أصبح المسلمون واسطة العقد بين حضارة الأولين وحضارة الآخرين. وعن مسلمي مصر والشام والأندلس انتقلت الحضارة الإسلامية إلى الاقطار الأوروبية. فأينما رأينا الآن من حياة رضية وعلم ومدنية وعدل وحرية فهي أثر من آثار الرسالة المحمدية. وسيعلم الناس كلما نظروا إلى هذا السفر الإلهي (القرآن) بعين البصيرة ونور السريرة أن الإسلام دين الفطرة السليمة. ودين الفكرة القويمة. ودين العقل البصير. ودين العلم المنير. ودين التفكير والتدبير.

وكيف لا تنتظم المشارق والمغارب وهو شهاب الله الثاقب ونوره المتوهّج في الغياهب. ويأبى الله إلا أن يتم نوره ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾[١].

وبعد فيقول الله جل جلاله للمسلمين: ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾[٢] والذكر هو بعيد الصيت وعلو الشأن. ويقول عز وجل مخاطباً نبي القرآن. ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[٣].

فالله سبحانه وتعالى قد كفل المسلمين إذا هم استمسكوا بالقرآن أن يفوزوا بالكفة الراجحة والصفقة الرابحة في هذه الحياة. وأي عهد بعد هذا العهد الذي قطعه الله على نفسه خليق بالاعتصام به والحرص عليه ومن أبرَّ من الله عهداً ومن أصدق من الله حديثاً.

---

(١) (٢١) الأنبياء: ١٠٥ ـ ١٠٧. (٢) (٢١) الأنبياء: ١٠. (٣) (٤٣) الزخرف: ٤٤.

فلتكن أيها المسلم ربيب القرآن تكن السيد الحر القوي العزيز الذي تلقي الدنيا قيادها إليه كما ألقته إلى آبائه من قبل. وليس ربيب القرآن هو الذي يحمله أوراقاً ويهمله أخلاقاً. ولا الذي يتلوه كلاماً ويجفوه أحكاماً. ولكن ربيب القرآن هو الذي يؤمن به ويعمل بما فيه. فمن شريعة هذا الدين القويم أن الإيمان والعمل إلفان متلازمان. لا إيمان بلا عمل ولا عمل بلا إيمان. إن ربيب القرآن حقاً رجل قوي الروح نقي القلب أبيُّ النفس صادق اللسان متنبه الوجدان. يمضي في الحق قدما بعزم لا تثنيه الحوادث. لا يخاف لومة لائم ولا يخشى سطوة جبّار.

فإلى لواء القرآن أيها المسلمون فإن تحت لوائه الشوكة التي لا تغلب والنعمة التي لا تسلب والكلمة التي لا ترد والقوة التي لا تحد والعزة التي لا تحفز ولا تضام اهـ.

هذا وانظر بعين التأمل أن المسلمين لما كانوا سائرين على النهج الذي رسمه القرآن الشريف كانوا في أعلى مراتب العز والرفعة وأقصى درجات الشرف وهناء العيش. ولما أهملوا أمر القرآن أصبحوا يرسفون في قيود من نكد العيش وسوء الحال حتى استعبدتهم الأمم الأخرى. وها هي الكرة الأرضية ضعها أمام عينيك وانظر الممالك الإسلامية وأصقاعها فلا تجد بلداً خالياً من قدم الأجنبي الذي سلبها حريتها. فلا حول ولا قوة إلا بك يا مقلب القلوب. ونسألك اللهم أن تغير الأحوال إلى أحسن حال.

الدين الإسلامي الحنيف

هو الدين الذي جاء به النبي الكريم ذو الخلق العظيم سيدنا محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين وحياً من الله تعالى الذي أيده بالمعجزات الباهرة التي من أجلّها وأعظمها القرآن الشريف الذي فيه آيات بينات لا ريب فيها وهدى للمتقين. وذكرى للغافلين. كتاب قيم لا عوج فيه ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

جاء هذا الدين والعالم في ظلمات من الجهل والكفر والظلم والجور. فأزال هاتيك الحجب عن القلوب كما قلنا في غير هذا الموضع وأنار البصائر بعد العمى. وبدّد شمل الوثنية وفكّ قيود القلوب التي كانت مقيدة بالعقائد الفاسدة والخرافات والأضاليل ورسم لبني الإنسان الصراط السوي الذي يسير عليه فيصل إلى حيث السعادة الأبدية:

كان الناس في غفلة وجهل بالخالق جل وعلا تائهين في بوادي الأوهام والضلالة والزيغ والجهالة فكشف الدين عن القلوب هذا الغشاء الكثيف. فعرف الخالق وظهرت

للعقول دلائل التوحيد وعرفت ما يجب لله تعالى من الصفات والأسماء الحسنى وما يستحيل عليه من أضدادها وما يجوز.

كانت العقول والإرادات والأفكار مقيدة بقيود وضعها الذين طمس الله قلوبهم. ولم تكن مطلقة تتصرف فيما بين يديها من جلال هذا الكون وفهم معنى الكتب السماوية. فجاء هذا الدين مخلصاً لها من هذه القيود وهذا الاسر. وأعطى للعقل حريته في النظر إلى بديع صنع الخالق وفي فهم ما أنزله على رسوله الأمين من الحكم والآيات والأحكام على مقتضى ما رسمه له من الشرائط والحدود التي إذا تعداها فقد ضل وغوى واتبع سلطان الهوى.

كان قبل أن يسطع نور الدين الإسلامي على الذين اهتدوا بهديه لا يعرف ما أنزل الله على رسله إنسان في الوجود. بل كان هناك فئة في عداد العامة يتصرفون فيه على مقتضى أهوائهم وما ترضاه أفهامهم. فجاء الدين الإسلامي مبيناً للناس ما أشكل عليهم فهمه. وما غاب عنهم من الحقائق. فاهتدى الضال وأيقن المستريب. وفي هذا المعنى يقول الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾[1] وقال أيضاً: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾﴾[2].

جاء هذا الدين الحنيف والناس فرق وشيع في معنى الكتب السماوية كل يؤول ما أنزل الله على رسوله كما شاء فأوضح للناس النهج وعرفهم أن كل الشرائع التي أنزلت على الأنبياء والمرسلين إنما ترمي إلى سعادتهم الدنيوية والأخروية. وهي معرفة الله وتمجيده وتعظيمه والهداية إلي خيري الدنيا والآخرة. وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ﴾[3] وقوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ﴾[4] وقوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا

---

(١) (٢) البقرة: ٧٨.

(٢) (٦٢) الجمعة: ٥.

(٣) (٣) آل عمران: ١٩.

(٤) (٤٢) الشورى: ١٣.

﴿يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝﴾[1].

فهل بعد هذا دليل وبرهان على أن دين الله في كل زمان ومكان هو الدين القيم الذي يهدي العقول إلى الوحدانية ومعرفة الإله الحقيقي الذي لا معبود سواه. والذي ينير للبشر طريق السعادة ويرشدهم إلى ما يصلح أمر دنياهم وآخرتهم.

إذا تأملت بعين البصيرة في أصول الدين وقواعده تجد أن الدين يأمر بعد توحيد الخالق وما شاكل ذلك بإقامة العدل فلا تظلم نفس نفساً. ولا يأكل القوي الضعيف. وبذلك يسود الأمن في البلاد ويعيش الإنسان آمناً في سربه: ويأمرنا باتحاد الكلمة وعدم الشقاق والتنابذ ومحو الحقد والحسد من القلوب. وبذا يحصل التآلف والتوادد بين الناس فتنتظم أحوالهم ويكمل هناؤهم:

إن هذه المدنية الأوروبية (**الحقة**) التي يفخر بها الغربيون على العالم أجمع وبسببها طعنوا على الدين الإسلامي إنما هي بعض ما حض عليه نفس هذا الدين الحنيف. ولو فقه هؤلاء معنى الدين الإسلامي وما يريده الشارع الحكيم ورضوا بحكم العقل لما وجدت فيهم إلا مسلماً مؤمناً به عاملاً على إقامة شعائره. محافظاً عليه مدافعاً عنه من اعتداء ذوي الأفهام الفاسدة والعقائد الباطلة.

إننا نرى المشرعين للقوانين يضعون القوانين والأحكام من عند أنفسهم بقصد إقامة ميزان العدل بين الناس. وفي كل آن يحورون ويبدلون ويغيرون. ولم يأت صنيعهم هذا بما يكفل للبشر سعادتهم وهناءهم في الدنيا والآخرة ولم يزل القوم في حيرة إلى اليوم. ولن يزالوا كذلك ما دامت أصول الدين وقواعده في نجوة منهم وما داموا مهملين ما وضعه من القواعد.

إن للإنسان مصلحة خاصة تتعلق بذاته ومصلحة بذاته ومصلحة عامة تتعلق بالمجموع الإنساني. وإن الدين الإسلامي الحنيف قد جاء وافياً كافياً مبيناً للإنسان كيف يدير ويدبر شأن هاتين المصلحتين، بحيث إذا اجتمع الإنس والجن وكان بعضهم لبعض ظهيراً ما قدروا أن يقرروا ما قرره الدين الإسلامي الحنيف من جميع الأحكام ولا بعضها، ولنضرب لك مثلاً على ذلك إقامة للبرهان وإيضاحاً للدليل.

---

(١) (٣) آل عمران: ٦٤.

إن الدين الإسلامي قرر قطع يد السارق فلو أقيم هذا الحد ولم يعطل ما كنت تجد في السجون سارقاً وكنت تترك الذهب في الطرقات والشوارع والأزقة ولا أحد يجسر على القرب منه أو أخذه.

قرر الشارع حد الزاني فلو أقيم هذا الحد ولم يعطل ما وجدنا مومساً تبذل عرضها وتتاجر بجمالها في سوق الفسوق والفجور.

قرر الدين حداً لشارب الخمر فلو أقيم هذا الحد بين الناس لما عمّ هذا الداء بين القوم ولما حصلت نتائج الخمر التي هي أم الخبائث.

قرر الدين حداً للنصابين والدجالين والغشاشين الذين يسلبون أموال الناس بالباطل بطرق يعجز عنها إبليس، فلو أقيم هذا الحد لطهرت البلاد من شر هذه الفئة الضالة المضلة والتي ضررها أشهر من أن يذكر.

شرع الدين الزكاة فلو أداها الأغنياء لما رأيت أثراً للفاقة بين الفقراء والمساكين، وقس على هذا كل ما أمر الدين به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولقد حاجّ الله المعاندين والمكابرين الجاحدين الذين مالوا عن الدين القويم، وحادوا عن سنن اليقين فقال لهم وقوله الحق: ﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ ﴾[1].

وجميل القول ومجمله أن الدين الإسلامي الحنيف جاء كافياً وافياً لحاجات البشر ومرشداً الخلق إلى أمر سعادة الدارين، قال بعض المؤرخين في هذا الصدد ما معناه:

ظهر الدين الإسلامي الحنيف وبقية الأمم والملل والشعوب قد مزقتها المشارب المختلفة وفرقتها المذاهب المتباينة فكان ذلك سبباً لهداية جميع الخلق، وأصبح الناس كلهم أمام هذا الدين القويم بين رجلين. إما داخل فيه طوعاً، وإما مقلد له استكباراً.

اتفقت أهل الأديان على أن الدين الإسلامي الحنيف رفع كل الأثقال والقيود عن بني الإنسان وأحسن إليهم المعاملة في جميع الأحوال حتى ترامت إليه أهل الملل الأخرى يبتغون فضلاً منه. فوجدوا فيه العدل والإنصاف والمساواة والإخاء حتى في التقاضي مع المسلمين وهم بين قضاة مسلمين، وكان ذلك سبباً كبيراً للدخول فيه أفواجاً.

(١) (٢) البقرة: ١١١.

زها العلم كثيراً أيام الفتوحات الإسلامية فتجد النهضة العلمية في بغداد في عصر الرشيد والمأمون لا تختلف عن النهضة العلمية في باريس في أيام (لويز الرابع عشر) فإن مفتاح العلوم في كليهما في الحقيقة هو الدين الإسلامي الحنيف الذي دعا النظر والبصر في كل شيء، ولم يدع نفساً غافلة لاهية إلا ذكّرها بما فيها من القبائح والمعايب.

فالدين الإسلامي منشأ كل علم وباب كل سعادة ومفتاح كل استقلال للرأي والفكر والإرادة، وبه تكمل الإنسانية وتستعد لأن تبلغ الغاية القصوى لتنال من الله أجر العاملين.

استخدم الخلفاء من بني أمية وبني العباس من وجدوا فيه من المهارة من غير المسلمين وصعدوا بهم إلى أعلا المناصب وأسماها في الدولة والإسلام يظلهم بظلاله ويحميهم بحماه.

إنتقل العلم إلى أوروبا من طريق الأندلس ﴿ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝ ﴾[1].

كانت أهل أوروبا غافلة عن قائدها لاهية عن مرشدها فجاءنا ما أرادت من قرب فنضهت لقطع سلاسل الذل التي لبستها من أيدي ملوكها المغرورين، ونقضت العزائم التي قيدها بها زعماء الدين عندهم، وما زالت تلك الأمهات تنمو في وسطهم حتى مزقت حجب الجهل وأزالت الغشاوة التي كانت على قلوبهم وأبصارهم.

فقد المسلمون شرف الاستقلال ودينهم مانحه، وشدوا على دينهم الأغلال ودينهم قاطعه، واسترقوا وهم السبب في تحرير الرقاب، وخانوا وهم الذين حفظوا العهد والوفاء في كل باب. فشا بينهم الغدر والزور ودينهم يحرم الخديعة ويخرج الغاش من أهله.

ما بالهم لا يتناصحون ولا يعتصمون بحبل الله وهم يرون أهل الغرب يكيدون لهم الكيد بلغ سكينه العظم.

أخرجوهم عن مواطنهم وأبعدوهم عن مشارعهم وأزاحوهم عن مواقفهم وأصبحوا على حال من البساطة والسذاجة لا يفرقون بين الضار والنافع.

يقولون ولا يستحون إن دين الإسلام من العوادي عليهم والسبب الأول في تقهقرهم. وقد كذبوا وافتروا على الله والناس وهم في الجهالة بمكان لا يفرقون بين عزهم أمس وذلهم اليوم. ولا يدركون أين كانوا وإلى أين صاروا.

---

(١) (٢٢ الحج: ٥.

يئنون غداً حيث لا ينفع الأنين. ويبكون ولا يجدي البكاء ويندمون ولات حين مناص. لأن البلاء الذي نزل بهم جرته عليهم الذنوب والله سبحانه وتعالى كما يثيب على طاعته يعاقب على معصيته. وهذه سنة في خلقه ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾. اللهم إنا نسألك طهارة في العقول وخلوصاً في العمل من العوج والرياء. وهداية بالعلم إلى الطريق المستقيم ورجوعاً لآداب الدين الحنيف التي فارقناها إنك على كل شيء قدير.

شهادة الفرنج للإسلام والمسلمين

لقد وقفنا في الفصل قبل هذا وقفة علمية بينا للقارىء فيها حقيقة الدين الإسلامي الحنيف ويحسن بنا في هذا الفصل أن نذكر شهادة من بعض مؤرخي الفرنج وعلماء الغرب يشهدون بها للإسلام والمسلمين لأجل أن يقف عليها أولئك الذين طمس الله قلوبهم وختم على سمعهم وجعل على أبصارهم غشاوة.

قال المؤرخ الشهير (**جوستاف ليون**) وحسبك به من عالم إذا قال كلمة سارت مسير الركبان ودوى صداها في أقصى المعمورة قال ما ترجمته (**في كتاب تمدن العرب**):

لما فتح النصارى مدينة غرناطة آخر معاهد الإسلام في الأقطار الأوروبية لم يخطر على بالهم الاقتداء بالعرب فيما عاملوهم به الأجيال المتعددة من حسن المعاملة والرقة وطرح التشيع والتعصب فإن أول أمر أتوا به نحوهم عقب تغلبهم إذاقتهم العذاب الهون ومعاملتهم بما يناقض المعاهدات التي أبرموها معهم وتقضي نصوصها عليهم باحترام معتقداتهم وعدم إيصال الأذى إليهم.

وقد استمروا على هذه الحال جيلاً بتمامه بلا وازع من الذمة والشرف يردعهم عن معاملة المسلمين بالقسوة وغلظة القلب. حتى خطر على بالهم أن يطردوهم من البلاد ويستأصلوا شأفتهم منها بعلة أنهم قد احتكروا الصنائع والمتاجر واستأثروا بجميع المزايا التي يكون منشؤها أعمال العقل. ولعمر الحق ما ذنب العرب في هذه الحالة وخصومهم أقل منهم درجات في العلوم والفنون وقد كان طردهم من البلاد بناء على طلب الأمة الأسبانية المسيحية!!!

أما القساوسة وأئمة الدين فقد تطرفوا في الطلب حيث قالوا بضرورة الفتك بهم وإفنائهم عن آخرهم: بلا فارق بين أمرأة وكهل أو ولد صغير!

فاتخذ (فيليب) الثاني ملك أسبانيا إذ ذاك قواماً بين هذين الطرفين. إذ أنه أمر بالطرد وأردف هذا الأمر بأمر آخر وهو البطش بهم وقد كان!!!

ولم ينج من أهوال هذا الجور المبين إلا الربع منهم!!! أما البقية الباقية فذهبت فريسة سيف الاعتداء وضحية التشيع الأعمى!!!

ولما نال الأسبانيون بغيتهم من طرد العرب إلى خارج بلادهم وقتل القسم الأوفر منهم قبل النجاة قد عم السرور بلادهم وملأ الارتياح والانشراح أفئدتهم. حتى قيل إن البلاد ستدخل في دور جديد ستأخذ فيه بأسباب التقدم والتمدن.

أما الدور الجديد فقد حدث وتولد لما ارتكب الأسبانيون من قتل أمة بأسرها!!! ولنبحث الآن في الأحوال وتغيير الأدوار على أهمية ذلك بالنظر فيما آلت إليه حالة الأسبانيين بعد انطفاء نور الدولة العربية من أقطارهم.

قد لبثوا جملة قرون يحاربون العرب وينازعونهم حتى انتهى الأمر بهم إلى تعلم أساليب الحرب وفنونه منهم ثم قال بعد ذلك.

إن الأمة الأسبانية سقطت بعد استئصال شأفة العرب من بلادها في مهواة من الانحطاط التي لم يذكر التاريخ أن أمة سقطت في مثلها. فإن العلوم والفنون والزراعة والصناعة قد زالت بسرعة فائقة: وأقفلت أبواب المعامل وتركت الأرض هملاً بلا زراعة وخلت المدن من السكان. وما بقي من المعامل بعد العرب أخذ يختفي شيئاً فشيئاً حتى أن أسبانيا اضطرت في أوائل القرن السادس عشر إلى استجلاب العملة من هولندة ليقوموا بإدارة معمل لنسيج الصوف أنشأته الحكومة الأسبانية بمدينة (سيجوقيا).

وقد كانت عاقبة هذا الانحطاط السريع أن الفاقة حطت رحلها في البلاد الأسبانية فوقعت بعد سنوات قليلة في درك الخمول. وذهبت من قلوب أبنائها عاطفة النشاط والميل إلى الإشتغال. ومن أجل ذلك امتلأت مصالحها وفروع دواوينها بالأجانب كالفرنسيين والطليان والألمان وغيرهم. وأخذ هؤلاء في انتشال الأمة الأسبانية من حضيض الانحطاط.

ولكن استحال عليهم بلوغ هذا القصد لأن الداء كان مكيناً واستعصى على أطبائه وذهب جهدهم عبثاً كما يذهب من يحاول إحياء الموتى.

أما العرب فقد كانوا فنيوا عن آخرهم بمساعي (محكمة التفتيش) التي أنشئت وقتئذ

لاستئصال شأفتهم من البلاد!!! ويشهد جميع المؤرخين والكتاب الذين زاروا الأقطار الأسبانية في ذلك العهد بأن الأسبانيين انحطوا انحطاطاً علمياً لم يسبق له مثيل لأمة من الأمم.

وفي آخر القرن السابع عشر كانت قد استحكمت الجهالة حتى أنه لم يكن فيها مدرسة تدرس العلوم الطبية والرياضية وأكدا المؤرخ الأسباني (**كمبومانيس**) أن البلاد الأسبانية على اتساع أرجائها لا يوجد فيها في سنة ١٧٧٦ ميلادية كيماوي كفء للقيام بعمل المواد الكيماوية البسيطة أو صانع ينشيء سفينة صغيرة أو قلعاً من القماش لها.

وقال المسيو (**شارل دير موزه**): متعجباً من الأمور التي يرمي إليها الدين الإسلامي: لم يكن بالعالم أجمع ملة أشد يقيناً وثباتاً من الإسلام. فالارتداد عن هذا الدين يكاد يكون مجهولاً بالمرة. ولهذا ترى رسوخ الدين المحمدي قد أعيا المبشرين حتى إنهم يئسوا من تنصر المسلمين: وقد أحسوا أنهم مثل من يريد مصادمة الجلمود أو يقتفي أثر الخيالات. وقد استشهد بعبارة جاءت في مجلة أوروبية لبعض الغربيين وهي: إن الدين المحمدي هو الآن أكثر من الأديان الأخرى انتشاراً في حين أن الأديان الأخرى ناكصة على أعقابها أو لازمة الوقوف. فالإسلام يتقدم وينتشر ويمتد انتشاره بأفريقيا وآسيا وبجزائر المحيط الهادي بدرجة لا يتصورها العقل. ومحل الغرابة هو مقدرة الإسلام على الظهور والاستقرار بالبلاد الأوروبية وهذا الأمر صار من القضايا التي لا مراء فيها إذ ليس من النادر أن يبلغنا يومياً من أخبار الروسيا أو ألمانيا أو فرنسا أو إنكلترا اهتداء بعض الناس إلى هذا الدين القويم. فترى منهم رجالاً ذوي مدارك عالية يلتجئون إلى التلفظ بالشهادتين بغاية الإخلاص بعد أن كلت عقولهم من الخرافات البشرية وبأسباب مختلفة ترى آخرين لم يصلوا إلى هذا الحد ولكنهم يبدون نحو محمد ﷺ ميلاً قلبياً يعادل التصاقهم بالدين المحمدي وشريعته الغراء فمن أين هذا! ولماذا يا ترى هذا الأمر العجاب؟

وقال مسيو (**جاك مليان**): إن الإسلام دين سماوي وهو دين حب وعاطفة وشرف وليس في الأديان أكثر منه تساهلاً.

وقال المستر (**ولنر**) وهو من الكتاب المشهورين البارزين: إن الديانة الحقة التي وجدتها تسير مع المدنية أنى سارت هي الديانة الإسلامية.

وقال المستر (**برناردشو**) في كتاب له: (لن يمضي على أوروبا قرن من الزمان حتى تعتنق الإسلام). ولما سئل عن ذلك أجاب إني كنت أولاً ولا أزال أحتفظ للإسلام في نفسي

بمكانة سامية لحيويته ولأنه فيما أرى الدين الوحيد الذي يشتمل على جميع العناصر الضرورية التي تجعله مرناً يساير أحوال العالم في تطوراته فهو صالح لجميع الأمم وفي جميع العصور. ولا شك في أنه يجب على العالم أن يهتم به. وقد تنبأت بأن العقيدة التي جاء بها محمد ﷺ سوف تدين بها الأجيال المقبلة في أوروبا كما بدأت أن تسيغها الأجيال الحاضرة.

كان رجال الكنيسة في القرون الوسطى إما جهلاً منهم أو لشدة تعصبهم يصورون الإسلام في أحلك الألوان بل كانوا ينشأون على كراهة الرجل العظيم محمد ﷺ وبغض دينه وكانوا يرونه عدواً للمسيح ولكني درست هذا الرجل العجيب فوجت تهمة عداثه للمسيح بعيدة كل البعد عن الحقيقة. وكان الأولى أن يوصف بأنه (**مخلص الإنسانية**) ولو قدر لإنسان مثل محمد أن يتولى (ديكتاتورية) العالم الحديث فلا بد أن ينجح في حل مشاكله القائمة بما يكفل للعالم من السعادة والسلام.

لقد ظهر في القرن التاسع عشر مفكرون مخلصون مثل: (**كارليل وجيته وجيبون**) أدركوا مزايا الدين المحمدي فأحدث ذلك في القرن الماضي تحولاً في الرأي الأوروبي حيال الإسلام.

أما أوروبا الحديثة فقد تقدمت في هذا السبيل تقدماً حديثاً وبدأت تعشق العقيدة المحمدية وتفتتن بها ولعلها تذهب إلى أبعد من ذلك في القرن الآتي فتعترف بفائدة هذه العقيدة في حل مشاكلها.

بهذا المعنى يجب فهم ما تنبأت به فلقد أخذ الكثيرون من المواطنين الأوروبيين يعتنقون العقيدة المحمدية. ومن ثم ترى أن اعتناق أوروبا للإسلام قد بدأ فعلاً.

وقال الدكتور (جرمانيوس) المستشرق الشهير والاستاذ في جامعة بودابست الذي اعتنق الدين الإسلامي الحنيف: أنا أعتقد أن الإسلام دين الأذهان المستنيرة وأن أصحاب العقول البارعة يجدون فيه ميزات تستولي على إعجابهم. وإنه الدين الذي سيكون في يوم قريب أو بعيد معتقد الطبقات الرفيعة في العالم. وأنا أعرف في بلادي وفي أوروبا كلها رجالاً مستنيرين في أرفع الأسر يحترمون الإسلام ويوشكون أن يتخذوه ديناً ولو في سرائرهم.

ومنذ خمس سنوات أسلم فينا رجل من أعرق الأسر الأرستقراطية هو البارون (آران

فلس) وسمى نفسه (عمر) وأسلم مجري آخر كبير هو: (فيلكس فاي) وقصد إلى سويسرا ينشر فيها مجلة إسلامية. وهذا دليل على سمو الإسلام الروحي والذهني، لأنه يستولي على ذوي الأذهان والفكر. حتى أن الذين لا يؤمنون ولا يدينون بالإسلام لا يستطيعون أن ينكروا النور الذي أضاء العالم من الأندلس إلى الصين واليابان. لا يستطيع ذلك مسيحي ولا بوذي ولا موسوي ولا رجل من أي دين. ولست أتمنى من دنياي شيئاً غير أن أتمكن من نقل الكتاب (القرآن) إلى اللغة المجرية فإنه منقول إليها عن اللاتينية منذ سنة ١٨٣٢ ميلادية نقلاً محرفاً فيه سوء.

وقد نقلت طائفة من السور الأخيرة منذ عشر سنوات. وأمنية أخرى لي لا يستقر الشوق في نفسي إلا حين أنالها. وهي أن أزور الأماكن المقدسة في مكة والمدينة التي تهتز نفوس المسلمين في كل بقعة من الأرض حين التفكير فيها: اهـ.

وقال المسيو (ليون روش) الفرنسي الكبير والسياسي الخطير الذي جاب بلاد المسلمين شرقاً وغرباً وقد مكث فيها ثلاثين عاماً وتعلم اللغة العربية وأجادها ودرس بعض العلوم الشرعية واختلط بالمسلمين في مصر والحجاز والأستانة وتونس والجزائر واختبر أحوال المسلمين. قال:

اعتنقت دين الإسلام زمناً طويلاً لأدخل عند الأمير عبد القادر دسيسة من قبل فرنسا. وقد نجحت في الحيلة. فوثق بي الأمير وثوقاً تاماً واتخذني سكرتيراً (كاتم السر) فوجدت هذا الدين الذي يعيبه الكثير أفضل دين عرفته. فهو دين إنساني طبيعي اقتصادي أدبي ولم أذكر شيئاً من قوانيننا الوضعية إلا وجدته مشرعاً فيه. بل إني عدت إلى الشريعة التي يسميها (جون سيمون): الشريعة الطبيعية فوجدتها كأنها أخذت من الشريعة الإسلامية أخذاً ثم بحثت عن تأثير هذا الدين في نفوس المسلمين فوجدته قد ملأها شجاعة وشهامة ووداعة وجمالاً وجلالاً وكرماً. بل وجدت هذه النفوس على مثال ما يحلم به الفلاسفة من نفوس الخير والرحمة والمعروف في عالم لا يعرف الشر واللغو والكذب.

فالمسلم بسيط لا يظن بأحد سوءاً. ثم هو لا يستحل محرماً في طلب الرزق. ولذلك كان أقل مالاً من الإسرائيليين ومن بعض المسيحيين أي أنه لا يرابي مثلاً.

ولقد وجدت فيه حل المسألتين الاجتماعيتين اللتين تشغلان العالم طراً. الأولى في

قول القرآن: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[1] فهذا أجمل مبادىء الاشتراكية. الثانية: فرض الزكاة على كل ذي مال

وتخويل الفقراء حق أخذها قهراً (**بواسطة الحاكم**) إن امتنع الأغنياء عن دفعها طوعاً. وهذ دواء الفوضوية. وهذا من تأثير هذا الدين الكريم. وإنه دين المحامد والفضائل. ولو أنه وجد رجالاً يعلمونه الناس حق التعليم ويفسرونه تمام التفسير لكان المسلمون اليوم أرقى العالمين وأسبقهم في كل الميادين؛ اهـ.

وقال المستر (**إسحاق طيار**) رئيس بعض الكنائس الإنكليزية من خطبة ألقاها في مؤتمر الكنيسة: الإسلام ينشر لواء المدنية التي تعلم الإنسان ما لم يعلم والتي تقول بالاحتشام في الملبس وتأمر بالنظافة والاستقامة وعزة النفس فمنافع الدين الإسلامي لا ريب فيها وفوائده من أعظم أركان المدنية.

وقال المستر (دوزي): بينما أهل أوروبا تائهين في ظلام الجهالة لا يرون الضوء إلا من سم الخياط إذ سطع نور قوي من جانب الأمة الإسلامية من علوم وأدب وفلسفة وصناعات وأعمال يد وغير ذلك حيث كانت مدينة بغداد والبصرة وسمرقند ودمشق والقيروان ومصر وفارس وغرناطة وقرطبة مراكز عظيمة لدائرة المعارف. ومنها انتشرت في الأمم واغتنم منها أهل أوروبا في القرون الوسطى مكتشفات وصناعات وفنوناً عظيمة.

وقال المسيو (**داود كوهارت**): إن الإسلام دين لا يأمر باتباع عقائد جديدة. ولا يقول بإنزال وحي جديد وسنن جديدة وليس فيه كهنوتية أو معابد سياسية بل فيه دستور الأمم ونظام الممالك.

وقال المسيو (**تولستوي**) الفيلسوف الروسي؛ من فضائل الدين الإسلامي أنه أوصى خيراً بالمسيحيين واليهود كما أمر بحسن معاملتهم حتى أباح هذا الدين لأتباعه التزوج بالمسيحيات مع الترخيص لهن بالبقاء على دينهن. ولا يخفى على ذوي البصائر ما في هذا التسامح. وحسبه فخراً أنه هدى أمة بأجمعها إلى نور الحق وجعلها تجنح إلى السكينة والسلام بعد الخصام وسفك الدماء وفتح لها طريق الرقي والمدنية وهو عمل عظيم لا يقوم به إلا شخص أوتي قوة فوق قوة البشر.

وقال المسيو (دود يانوس) من وزراء فرنسا السابقين: جاء الإسلام مخالفاً لكثير من الأديان التي ضاعت حقيقتها. ولكنه جاء منزهاً عما لا يعقل من الخرافات والأباطيل. ومن

---

(١) (٤٩) الحجرات: ١٠.

عجيب أمره والدليل على صدقه أنه كرَّم المسيح وعظمه. وأنه خالف المسيحيين في تقرير أن المسيح بشر لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً إلا بإذن الله. والإسلام مكمل للإنسانية لا غموض فيه وهو يقرر الوحدانية. فسلم من التناقض والمعارضة العقلية وقد أمر بالمساواة والاشتغال بالعمل وتنزه عن الرهبانية: أما تأخر أهله فناشيء من أنهم انحرفوا عن أصوله وتوجهوا لغير ما يرمي إليه:

وقال الدكتور (سوسة) الإسرائيلي وهو دكتور في الفلسفة من جامعات الولايات المتحدة، وقد أسلم وحسن إسلامه: يرجع ميلي إلى الإسلام إلى ما قبل ثلاث عشرة سنة حينما شرعت في مطالعة القرآن الكريم للمرة الأولى في عهد دراستي في الجامعة الامريكية البيروتية. فولعت به ولعاً شديداً وانصرفت إلى تلاوته مستعيناً بالكتب المزودة بحواشي التفسير لفهم معناه. حتى أهملت البعض من دروسي المدرسية الأخرى وكنت أطرب لتلاوة آيات القرآن: وكثيراً ما كنت أنزوي في مصيفي تحت ظل الأشجار وعلى سفح جبال لبنان. فأمكث هناك ساعات طوالاً أترنم بقراءته بأعلى صوتي إلا أني لم أفكر في أمر اعتناق الإسلام إلا بعد أن قضيت في أمريكا بضع سنوات ودرست فلسفة الأديان وتوغلت في المواضيع التاريخية والاجتماعية حتى أدركت كثيراً من الأمور الغامضة التي كان يصعب عليّ حلها. وفي الوقت نفسه إني اعتقدت بأن محيط أمريكا الذي تتجلى فيه الحياة الديمقراطية بأجلى بيان قد يستحيل على المرء الذي فطر على حب الحرية والسذاجة إلى الانقياد إلى تعاليم الدين الإسلامي المشبع بروح الديمقراطية الحقة والحرية والبساطة. فأستطيع أن أقول بدون تردد بأني مسلم شعوراً وموطناً منذ نعومة أظفاري.

وقد يكون لتأثير ذلك النصيب الأكبر فيما دفعني لأن أنفض عني غبار الميراث من الدين والعنصر، وأن أسبر أغوار الحقيقة لأهتدي بأنوارها إلى المذهب الصحيح إلا أني يجب أن أعترف في الوقت نفسه بأن الميل الفطري لم يكن مستنداً على ما يقره الاستقراء العلمي والتمحيص الفكري والتجارب الشخصية. وما أعظم سروري الآن حين جاء الاستدلال العلمي الصحيح مؤيداً للميل الفطري. فانتميت إلى الدين الإسلامي بدافع طبيعي غريزي وتأييد علمي. فأصبحت بذلك مسلماً شعوراً وموطناً وديناً.

ومن الغريب أن العقيدة السائدة بأن كل من تعلم تعليماً راقياً أصبح ملحداً بطبيعة الحال، قد تمكنت في أذهان شبابنا المثقفين بحيث أصبح الكثير يستغربون ويدهشون إذا أظهر أحد المتعلمين ظاهرة دينية أو تطرق إلى البحث في هذا الموضوع. وأرى لزاماً عليّ

أن أبحث ولو بصورة مقتضبة فيما أورده بهذا الصدد أحد أصدقائي بعد أن أعلنت له رغبتي في اعتناق الإسلام إذ قال: إني لأشعر بخطورة رغبتك هذه لا سيما أنها جاءت في القرن العشرين في القرن الذي طغت فيه المادة وسادت فيه الملموسات وهي بنت فكر شخص عاش في بيئة أمريكية. وأنه من حملة الديكتوراه: وكأن بصاحبي قد خيل له أن من اكتسب علماً حديثاً وجب عليه طرح ناحية الدين جانباً والإنصراف إلى ما في الحياة الدنيا من أعمال مثمرة ملموسة. وما أخطأ هذا الظن وأخطره على مصير شبابنا.

ما هو العلم؟ أو هل يقتصر على تدريبنا لإنشاء المشاريع العمرانية فحسب؟ أنا لا أنكر أن العلم قد نستفيد منه ونستعين به في مشاريعنا الفنية. ولكن أهي هذه الغاية من العلم. أليست هذه المشاريع واسطة لا غاية؟ إذن للعلم غاية سامية يرمي إليها صاحبها هي غير الأعمال الميكانيكية المادية. وما هي هذه الغاية؟ إن الغاية المهمة من العلم الراقي هي بنظري تنبيه حسن الطموح في صاحبه إلى استكشاف الحقائق والتدقيق والتمحيص. سواء في مجالات التفكير الروحي والمعنوي أو في منطقة الأعمال الملموسة لإدراك هذه الحقائق وإذاعتها فيستفيد منها المجتمع في سبيل التعاون والتعاضد للنهوض بالإنسانية إلى أسنى درجات الكمال. اهـ.

وقال المسيو (أرشرهاملتون): لو توقى الناس الحق لعلموا أن الدين الإسلامي هو الحل الوحيد لمشاكل الاشتراكية. فهو الذي يتسع للغني والفقير والقوي والضعيف جنباً إلى جنب:

وقال المستر (غاندي) زعيم الهندوس بالهند: ليدرس الهندوس. الإسلام كما درسته فسيحترمونه كما احترمته. ولقد أصبحت مقتنعاً بأن الإسلام لم يأخذ مكانته في الوجود بحد السيف. بل إنه أخذها بالبساطة وإنكار الذات والشجاعة التي اتصف بها النبي محمد.

وقال بعض كبار المشرعين في مصر وأحد قضاة المحكمة المختلطة الأمر الجوهري هو ألاّ نكرر الخطأ الذي وقعنا فيه في القرن الماضي فنقصي الشريعة الإسلامية من بين المصادر التي نكثر من الرجوع إليها. فالشريعة الإسلامية كما رأيتم مصدر خصب لتشريع وضع لبلاد شرقية عربية. وليس في اتخاذها مصدراً ما يتنافر مع وصلتنا للوثيقة بالتشريعات الغربية.

إن هناك من مبادىء الشريعة الإسلامية ما لو دخل في القانون المصري لعدّ متقدماً من هذه الناحية على الشرائع الغربية نفسها. والذي يدعوني إلى التشديد في وجوب الرجوع

إلى الشريعة الإسلامية عند مراجعة تشريعنا المصري اعتباران. اعتبار علمي فني واعتبار وطني قومي. فالاعتبار العلمي الفني قد ظهر لكم من رقي الشريعة الإسلامية وصلاحيتها لأن تكون أساساً لنهضة علمية في الفقه والتشريع. أما الاعتبار الوطني القومي فأقف عنده قليلاً. مصرنا الآن يتنازعها الشرق والغرب. وبعد أن استقلت ينبغي أن ترسم لنفسها خطة تسير عليها. أهي تريد أن تميل إلى جانب الغرب وأن تستعير المدنية الغربية فتلبس ثوباً غير ثوبها وتقلد مدنية غير مدنيتها فتبقى متخلفة عمن تقلده. أم هي تريد أن ترجع إلى أحضان الشرق دون أن تجافي المدنية الغربية وتحتل مكانها بين البلاد العربية فترفع لواء الشرق العربي بين أمم الغرب؟ فإذا مصر مستقلة وحولها أمم يغضبون إذا غضبت ويرضون إذا رضيت.

إذا كنتم تؤثرون الأمر الثاني فلنرجع في ثقافتنا القانونية إلى الفقه الإسلامي ولنجعل من ذلك الفقه صلة بيننا وبين الأمم العربية. ولنوثق روابطنا بهذه الأمم. فنحن أمة شرقية ولنا ماض مجيد في زعامة الشرق. فمن الخير أن نصل حاضرنا بماضينا. وأن نتعاون مع جيراننا الأقربين. ونحن أخوانهم في اللغة والدم لقد كسبنا استقلالنا في السياسة فلنكسبه في القضاء وفي الفقه وفي التشريع اهـ.

هذا هو القول الحق نقدمه للقارىء الكريم وهو الحكم العدل بعد ذلك والله المستعان.

محادثة مع عالم فرنسي بشأن الإسلام والمسلمين

كنت ذات يوم في صالون الباخرة التي أقلتنا إلى الهند وهو أشبه شيء ببلدة أو المحال العمومية. لأن الناس تختلف إليه عند الفراغ من أشغالهم. إذ اعترضني رجل فرنسي الجنسية. فقال: إني أظنك مسلماً لأن هذا الزي الذي أراه عليك خاص بالمسلمين في الغالب. فقلت له: نعم إني مسلم مصري. وبعد التعارف بيننا طرقنا أبواب العلم وحالة الإسلام والمسلمين. فقال إني على ذكر الإسلام وأهله أريد أن أسألك سؤالاً عن ماضي الإسلام وحاضره وطالما رغبت أن أجتمع بمثلك من علماء الإسلام لأقف على الحقيقة فلم يتيسر ذلك. ولكن والحمد لله قد تم مرغوبي. ثم أخذ كل واحد منا مجلسه وابتدأ بالكلام وهذا معناه وترجمته.

إني قبل كل شيء أؤكد لك بأني لم أقصد بسؤالي إلا الاهتداء إلى الحقيقة والعلم بالمجهول. وما كنت لأقول هذا لولا خشية اتهامي يالتحامل على الإسلام والمسلمين.

إني اطلعت على شيء من تاريخ الإسلام من عهد نشأته إلى هذا العهد فدهشت جداً للفرق العظيم الذي بين حالته الأولى وحالته الحاضرة.

فإن الإسلام قد ظهر في جزيرة العرب ومن قلب آسيا ولم يمض عليه قليل من الزمن حتى انتشر في بقاع المعمورة فلم يبق صقع من الأصقاع إلا ودخله الإسلام. وإن انتشاره هذا لم يكن بواسطة المبشرين ولا غيرهم. بل هو لأجل ملائمته لكل جنس وكل عادة من عادات الناس والأمم كما يعرف ذلك من أحواله وقواعده ومبادئه. وكان المسلمون في تلك العصور في أعظم درجات التقدم من حيث العلوم والمعارف. حتى إن الدول والممالك كانت تخشى سطوة الإسلام وتنظر إلى مقام الخلافة نظر الاحترام والاعتبار. وذلك بخلاف ما عليه المسلمون الآن من الانحطاط المادي والأدبي حتى أنهم أصبحوا محكومين لأمم مخالفة لهم في الدين واللغة والعوائد. فأجبته بقولي:

إعلم يا جناب المسيو (بيرتو) أن الإسلام هو دين الفطرة والعدل والمساواة والحرية والمدنية وإذا بحثت في أصوله وقواعده ومبادئه وتعاليمه تكون أوّل من يرد كل افتراء يفتريه غير المسلمين على هذا الدين الحنيف. وإلا لما انتشر هذا الانتشار العظيم في سائر أنحاء الكرة الأرضية في مدة وجيزة. وذلك التقدم الذي تقدمه المسلمون في العصر الأول ما هو إلا نتيجة سير المسلمين على قواعده والعمل بما جاء فيه من الأوامر والنواهي إلى غير ذلك من المعاملات الحسنة مع أهل الأديان الأخرى.

وإذا قرأت سيرة الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين تعرف مقدار ما كان يبذله هؤلاء في سبيل إعزاز كلمته وتأييد سلطته من إقامة الحدود في مقاطعها وتولية الأحكام لمن هو كفء لها. والذود عن حمى الإسلام من أن تعبث به أيدي الضلال وينال من كرامته أعداؤه. هذا فضلاً عن إكرامهم لأهل العلم والعلماء وإعزازهم لأهل الفضل منهم.

فإذا نظرت إلى أحكام القرآن الشريف ثم نظرت إلى قوانين وشرائع سائر الدول تجد أن الشريعة الإسلامية هي الكفيلة بكل ضروب العدل سواء في الحقوق الجنائية التي يساوى فيها المسلم والذمي في كل الشؤون أو في غيرها. وكان القاضي الشرعي يحكم في كل الدعاوى المدنية والجنائية على مقتضى القواعد الدينية. وكل العقوبات التي جاءت بها

الشريعة الإسلامية والتي إذا تأملت فيها وجدتها وحدها الكفيلة بردع الناس عن ارتكاب الجرائم كما أنك إذا تأملت في أركان الإسلام تجد الإسلام جامعاً لمعنى المدنية الحقيقية.

فالمسلمون في العصر الأول كانوا آخذين بأوامر الدين ونواهيه سائرين على كل ما رسمه لهم في كل أحوالهم الاجتماعية. أما الآن وقد نبذوا الدين ظهرياً وجعلوه نسياً منسياً لا تآلف بينهم ولا اتحاد يعزز جامعتهم والبلية العظمى أنهم استعاضوا بالقانون الوضعي عن القانون السماوي فالقاضي الشرعي لا يحكم الآن إلا في الأحوال الشخصية. هذا مع انكماش علماء الدين. فلا هم يعملون على إقامة الدين وتنبيه الحاكم إلى المفاسد المنتشرة بين المسلمين. فكثر الفساد وانتهكت حرمات الدين وآدابه. ولم يعمل به في الغالب إلا الذين يتخذونه حبالة للتقرب من الملوك والأمراء. وهذا نوع الغش والرياء زد على ذلك الجهل السائد بين بعض الطبقات. فترى الأغنياء يصرفون أموالهم في اقتناء الزخارف وكل مظاهر الغنى وما شاكل ذلك. ولم يأخذ المسلمون من مدنية الغرب إلا ما يضرهم في دينهم ودنياهم. على أن المدنية الغربية (**الحقيقية**) مستمدة من التمدن الإسلامي. إذ الإسلام لم يأمر بالعبادات فقط بل يأمر بأن يعمل المسلم لدنياه كأنه يعيش أبداً ولدينه كأنه يموت غداً.

فلو سعى المسلمون سعي الغربيين من حيث الاكتشافات والاختراعات فهم يعملون بقول الله عز وجل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾.

حتى أن الحكمة التي أودعها الشرع الشريف في الصلاة والصوم والزكاة والحج هي نفس المدنية الحقيقية التي بها ترتقي الأمم إلى أوج السعادة.

فالصلاة والصوم يبعدان النفس عن ارتكاب الدنايا والفواحش. والزكاة تمنع السرقات والجنايات. لأنك إذا بحثت عن جنايات السرقة والسلب والنهب تجد السبب فيها هو الفقر في الغالب. والحج يؤلف بين قلوب المسلمين المنتشرين في سائر أنحاء الكرة الأرضية فيكونون يداً واحدة يشعر كل فرد بما يشعر به الآخر على بعد ما بينهما من المسافة.

وأما ما يرمي به الجاهلون هذا الدين القويم من أنه دين التعصب ضد غيره من الأديان الأخرى خصوصاً المسيحية فكله وهم باطل لا أساس له. وإلاّ لما عاش المسلمون واليهود والنصارى كل هذه المدة من عهد بدء الإسلام إلى اليوم وهم متمتعون بالحرية التامة في مرافق حياتهم يتبادلون فيما بينهم المنافع والفوائد المتعلقة بحياتهم الاجتماعية.

(١) (٢) البقرة: ٢٩.

ومن العجب أن أوروبا تتهم المسلمين زوراً بأنهم متعصبون إذا بدت منهم بوادر الألفة والاتحاد والتضامن في كل ما يهمهم دنيا وآخرة.

وهذا تاريخ الإسلام من أوله إلى آخره لا تجد في أي زمن من الأزمان أن المسلمين قاموا ضد النصارى أو اليهود والحروب الصليبية كلها لم تحركها إلا يد أوروبا التي تريد أن تمحو الإسلام من الوجود.

وعلى الجملة أقول لك إن المسلمين إذا عملوا بدينهم في أحوالهم السياسية والدينية والاجتماعية ونبذوا كل ما يخالف شريعتهم وعملوا بما هو واجب عليهم. لكانوا يسترجعون مجدهم السالف وكان مركز الخلافة الإسلامية العظمى يصير مرهوب الجانب في سائر الدول والأمم والشعوب. وإني أراك قد عرفت حقيقة السبب في تقدم المسلمين في العصر الأول وتأخرهم في العصر الحاضر.

وبعد ذلك قال: الآن قد وقفت على الحقيقة وزال عني الارتياب في معرفة الأسباب. وإني أشكرك شكراً جزيلاً حيث أفدتني فائدة عظمى طالما تعذّر عليّ الاهتداء إليها. ثم أخذنا نتجاذب أطراف الحديث في مسائل أخرى لا داعي لذكرها الآن.

الإسلام والمسلمون
والمؤتمر الإسلامي في جنيف

إن تأخر المسلمين في هذا العصر أمر واقع لا يقاس بمقياس لأنهم حادوا عن الطريق المستقيم. ولم يتمسكوا بما جاء به الدين الإسلامي الحنيف من الأوامر والنواهي. وهذا أمر مشاهد برأي العين لا يحتاج إلى إقامة دليل وإيضاح وبرهان.

ومن المحزن المبكي أن هذا التأخر ليس خاصاً ببلد دون آخر. بل عم جميع البلدان الإسلامية الأمر الذي جعل المؤتمر الإسلامي الذي عقد في جنيف يهتم بما حل بالإسلام والمسلمين.

وقد أرسل لنا المؤتمر الإسلامي المذكور كلمة لأجل نشرها في كتابنا هذا **(حكمة التشريع وفلسفته)** في هذه الطبعة الخامسة ونحن نذكرها بتصرف إجابة واحتراماً لمركز المؤتمر الإسلامي العظيم. قال:

لم يعرف التاريخ أمة ضعيفة رغم قوتها. قليلة رغم كثرة عددها ذليلة رغم عزتها. مشتتة رغم جمعها.

وإذا ما أطلقنا لفظ الإسلام على هذه الأمة التي أصبحت تعرف به فإنما نطلقه على أناس مسلمين حقيقيين ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ ﴾(١) وتخلقوا بغير خلق آبائهم ثم انتسبوا إليه زوراً وبهتاناً.

ولا يحق لنا أن نسمي اليوم بالمسلمين أبداً لأن الإسلام أقوال وأفعال لا أقوال فحسب. وهو بالأحرى إسم لمجموعة طيبة هي: العزة: العزة لله ولرسوله وللمؤمنين المنعة: ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ ﴾(٢) الكثرة: رغم القلة. ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾(٣) خوف الله وخشيته: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ ﴾(٤) التوكل: ﴿ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾(٥) الاتحاد: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ﴾(٦) جهاد. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾(٧).

وغير ذلك من الصفات الكثيرة الجليلة التي تجعل الأمة عزيزة قاهرة قوية حاكمة غير محكومة سائدة غير مسودة وبغير مبادىء الإسلام لا يكون إسلام ولا مسلمون. ولا تغني الأسماء عن الحقائق شيئاً. فالأمة التي لديها مثل الجواهر النفيسة والدرر الثمينة وهي مفلسة ذليلة مقهورة يسيطر على مجموعها أفراد ويحكم في رقابها من لا يخاف الله ولا يرحمها ويسومها سوم البهيمة ثم ترضى بعد ذلك بالذل والعار. ويكون أبناؤها وإخوانها وأزواجها وعشيرتها وأموال اقترفتها وتجارة تخشى كسادها ومساكن ترضاها ووظيفة تؤثرها وشهوات تبتغيها أحب إليها من الله ورسوله وجهاد في سبيله. هي أمة لا تمت إلى الإسلام بصلة أبداً. والأمة التي تأتي نواهي دينها وترتكب محارمه ولا تعمل بأوامره ثم تدعي صلتها به هي أمة هازئة ساخرة لا تستحق من الجزاء أكثر ما يستحقه الهازىء.

هذه حقيقة مؤلمة أيها المسلمون لا بدّ لنا من الاعتراف بها إذا كنا نريد الشفاء مما نحن فيه من الأدواء. وأن نعترف إلى جانب هذا أيضاً بأن الإسلام شيء والمسلمين شيء

---

(١) (١٩) مريم: ٥٩.
(٢) (٤٧) محمد: ٧.
(٣) (٨) الأنفال: ٦٥.
(٤) (٨) الأنفال: ٢.
(٥) (١٢) يوسف: ٦٧.
(٦) (٣) آل عمران: ١٠٣.
(٧) (٨) الأنفال: ٧٢.

آخر. وأننا لا نمثل ديننا تمثيلاً صحيحاً أبداً. لا بل نسيء إليه بمجموعنا إلا النذر من علماء وزعماء وتجار وزراع وصناع.

إن كانت الإساءة على درجات ولا مناص لنا من الإقرار أن مسلمي اليوم الجغرافيين ليسوا على الإسلام الذي سنه الله لهم ووعدهم بموجبه النصر والعزة. إنهم قد اتخذوا الاسم وسهوا عن الجسم وهم يخدعون أنفسهم وما يشعرون. ولو كانوا على سنة الله لكان الله سبحانه وتعالى الذي نصر أجدادهم العراة الحفاة الذين دوّخوا ممالك الروم وفارس والسند والهند وأخضعوا لهم أساطين الأرض وجاءت أقيالها اليوم صاغرة ولم يكن لديهم من السلاح إلا الإسلام وحده. نصروه فانتصروا. فالإسلام والصغار لا يجتمعان. والإيمان والذل ضدان مفترقان.

إن المسلمين في العصر الأول كانوا يلاقون العدو في عدد وعدة ممتثلين قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾[1] الآية ولم يكن الإسلام في يوم من الأيام دين قول فقط بل دين عمل وفعل، وهو بيع النفس والنفيس في سبيل الله تعالى وخدمة خلقه. فلا غرابة أن ترى المسلمين اليوم وقد نسوا ما أمرهم به دينهم فذلّوا بعد عزهم وتشتتوا بعد جمعهم وضعفوا بعد قوتهم.

فأين منا اليوم مثل المسلمين الذين مضوا فأتوني بمثلهم. أين من أغنيائنا ممن يمتلكون الآن الجنيهات المخزونة في الصناديق كمن يكون جهز جيش (العسرة) بمفرده. وهو سيدنا عثمان بن عفان. وأين منهم كمن كان يأتي إلى رسول الله ﷺ بإعانة مالية فيسأله الرسول ﷺ كم تركت لأهلك فيجيبه قائلاً: تركت لهم الله ورسوله: وأين منهم أمثال من يبكي ويحزن إذا ما فاتته الشهادة في الجهاد. وأين منهم من يعذب ويصلي حر الرمضاء لينكر إيمانه فلا يفعل. وأين من يصلب وهو على عقيدته وإيمانه لا يحيد عنهما قيد أنملة.

هؤلاء هم المسلمون المؤمنون. وهؤلاء هم الذين وعدهم الله نصره وقد أنجز.

فإذا كنا أيها المسلمون ننتظر ونحن على ما نحن عليه نصر الله فقد ظلمنا الله وظلمنا أنفسنا وظلمنا الحق أيضاً. فعباد الله عند الله سواء ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾[2]

ولئن نصرنا الله ونحن على ما نحن عليه فيكون ذلك بعيداً عن عدله. فعلينا إذن وقد عرفنا داءنا أن نبدل الأقوال بالأفعال ثم نطلب العزة الأولى فننالها إذ نكون قد سلكنا سبيلها.

---

(١) (٨) الأنفال: ٦٠.

(٢) (٤٩) الحجرات: ١٣.

ونحن نرى اليوم أكثر الحركات التحريرية إنما تقوم والحمد لله على بعض المبادىء الإسلامية. فما بالكم لو عاد الإسلام مرة ثانية بأحكامه وعاد المسلمون الأولون بأفعالهم. ؟ أفلا تخضع لهم الأرض كلها. بل ولا نعود نسمع لغير كلمة التوحيد صدى في الأرض ولا في السماء. فاسلكوا أيها المسلمون سبل ربكم ولا تظلموا أنفسكم وتبتغوا من الله ما لستم له أهلاً وأنتم على ما أنتم عليه. فإن الله سبحانه وتعالى عادل ولا ينال النصر إلا بالدعاء ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾[1].

شبهة بعد شبهة

قد يقول قائل: إذا كان الدين جاء لدعوة المختلفين في فهم ما أنزل الله من الشرائع إلى الاتفاق. فما بال أهل الدين الإسلامي قد تفرقوا شيعاً شيعاً. وما بال حرب الاختلافات بينهم لم تضع أوزارها.

إذا كان الدين الإسلامي يأمر المسلم بأن لا يشرك مع الله أحداً فما بالهم ولوا وجوههم إلى من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً.

وإذا كان الدين أطلق العنان للعقل بشرائط مخصوصة توقفه عند الحد الذي لا يطغى فيه. فما بالنا نرى الكثيرين يقيدون عقولهم بقيود لا تجعل للعقل مجالاً في البحث عن حقائق هذه المخلوقات التي لم تخلق عبثاً. وما بالنا نرى الكثيرين يقنعون بالنذر القليل من فهم هذه الحقائق. إذا كان الدين يأمر باتباع ما شرعه لنا وبينه من الأوامر والنواهي. فما بالنا نرى الكثيرين حادوا عن الصراط السوي وهلم جرا من ابتداع البدع وإدخال ما ليس من الدين في الدين.

مهلاً. مهلاً. رويداً. رويداً. أيها السائل المعترض. هوّن على نفسك. إن المسلمين حصل بينهم ما ذكرت وبعض ما أهملت ذكره لعدم فهم حقيقة الدين الإسلامي الحنيف. ومثلهم هذا كمثل المريض مع الطبيب الغبي الذي عرف الداء وجهل الدواء. وقد استفحل الداء في أهل الدين الإسلامي وشرعوا يبحثون عن الدواء الشافي لهم فلم يجدوا غير اتباع الدين دواء شافياً.

أرسل نظرك إلى المدنية الغربية (الحقة) وهذه المخترعات والاكتشافات وكل ما أفاد

---

(١) (٥٣) النجم: ٣٩.

العالم من العلوم والمباحث وكشف عن أسرار الطبيعة وما يندمج في هذا الباب. كل ذلك حث عليه الدين الإسلامي الحنيف لأنه ما شرع إلا لأجل أن يحصل الإنسان على سعادتي الدنيا والآخرة. ومن يتل القرآن حق تلاوته يجد أكثر من ذلك.

فنتج من هذا أن الذنب ليس على الدين الحنيف لأنه كامل واف بحاجات الإنسان. وإنما الذنب على الذين لم يفهموه. أو فهموه وجادلوا فيه عناداً ولجاجاً. والله سبحانه وتعالى وصف دينه بأنه قيم لا عوج فيه: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾[1].

إذا عرفت هذا زالت عنك أمثال هذه الشبهة ووضح لك نهج الصواب.

موقف الإسلام وموالاة أعداء الإسلام

نذكر هذه الكلمة القيمة التي تنطق بالحق والحكمة لفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر الشريف ـ قال:

إن للأمة الإسلامية شخصية قوية كونها الإسلام عن طريق محو التعصب للجنس والاعتصام بمبدأ الخير العام والرحمة الواسعة المطلق: ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾[2] وبذلك تكون الجماعة الإسلامية مهما اختلفت أجناسها وتباعدت أقاليمها وتباينت ألوانها وألسنتها تدور في اتجاهاتها وأعمالها في مدار المبدأ الثابت الذي لا يتغير ولا يزول ولا يعتريه نقص ولا أفول. فتسري إليها روحه فتنشط في رفع شأنها والقيام بواجبها. تعمر ولا تخرب تصلح ولا تفسد وتعدل ولا تظلم. وتعرف ما لها وما عليها من حقوق وواجبات. وبذلك تسمو الحياة. ويسعد الناس. وفي سبيل هذا المبدأ الذي يدعو إلى الترابط على أساس من الخير.

أمر القرآن بالتضحية في هذا السبيل بالنفس والمال والولد وجعل الأخوة الأمانية هي الأساس. يحس كل إنسان بإحساس أخيه كما تحس كل أمة بإحساس غيرها فيعم السلام الأرض. وبهذا كله تتحقق للمسلمين شخصية بارزة لها هيبتها ومكانها. ولها سلطانها وآثارها وتتحقق بها سعادة البشرية عامة. وصوناً لهذه الشخصية أن لا تتعرض للضعف

---

(١) (٤١) فصلت: ٤٢.

(٢) (٣) آل عمران: ١٠١.

والانحلال. حرص القرآن على تقويتها وحذر التحذير كله من الميل إلى ما يضعفها أو العمل على ما يفسدها أو يقلل من شأنها.

ولقد كان من أبرز ما حرص القرآن على التحذير منه موالاة الأعداء الذين يكفرون بهذه الشخصية التي كونها الإسلام وبناها ودعم بناءها في رباط قوي وتمسك متين.

ويجدر بنا في هذا المقام أن نسوق بعض الآيات التي عرّضت للنهي عن موالاة الأعداء وحثت على البعد عنهم وعدم الاقتراب منهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾(١).

وتقديراً لهذه الشخصية وإحتفاظاً بها وإحياء لهذه المعاني السامية التي تظل بها الأمة الإسلامية مرهوبة الجانب شديدة القوة نهى عن هذه الموالاة ولو لمن كانوا آباء يجب برهم أو إخوة تلزم صلتهم ومودتهم فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ﴾(٢) ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾(٣).

ولكن الأهواء الذاتية والمصالح الفردية قد تسد على بعض الأشخاص طرق الهدى فتعميهم عن مواطن القوة والإيمان وتصم آذانهم عن دعوة الخير وذلك حين يتخلون عن الاعتصام بالله واتباع هداه فإن الاعتصام بالله دائماً طريق الخير وسبيل الفلاح فإذا ما طغت المصالح الفردية وسيطر الهوى على بعض النفوس ألقوا بأنفسهم بين أحضان الأعداء مسارعين إلى ما يرجونه من تحقيق نفع خاص. وبذا يتعاونون معهم على حساب دينهم وأمتهم.

﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾(٤).

(١) (٣) آل عمران: ١١٨.
(٢) (٩) التوبة: ٢٣.
(٣) (٥٨) المجادلة: ٢٢.
(٤) (٥) المائدة: ٥٢.

إن من أشر الناس عداوة لنا اليوم في مصطرع الحياة ومعتركها وفي ترابط المسلمين وقوتهم. وفي وحدة العروبة وتماسكها. هذه الشرذمة الطاغية الباغية التي طالما عاثت فساداً في الأرض وأنكرت المبادىء وهدمت القيم. هؤلاء هم الذين ألّبوا الناس على رسول الله ﷺ وهم الذين أوجدوا الطائفة الثالثة بين المسلمين والكفار فكانت عبئاً ثقيلاً في المجتمع.

هم نقضوا عهودهم مع الرسول وكفروا بالحسنى وحرّفوا الكلم عن مواضعه ومالأوا الأعداء وتحزبوا معهم إطفاء لنور الله وخانوا الرسول وهموا بقتله ودسوا له السم في الطعام فنبأه الله بنياتهم وعصمه من شرهم وسلطه عليهم فشردوا بما كسبت أيديهم ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ۝٥٩ ﴾[1] ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٥ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ۝٥٦ ﴾[2].

﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝٥٧ ﴾[3].

وكم من شر أصاب المسلمين على أيديهم وما غزوة الأحزاب التي زلزل فيها المسلمون إلا أثر من تفكيرهم وسوء تدبيرهم وهكذا فعل بهم رسول الله ﷺ فشردهم وأدبهم ثم خلفه أصحابه فتعقبوهم وأغمدوا سيوف الحق في رقابهم لأنهم عوامل شر ومثيرو فتن ومجامع أحقاد وأضغان فلا بد من كبتهم وقتل هذه النزعات الشريرة فيهم ليستقيم أمر الجماعة الإنسانية ويصلح شأنها ويسودها الأمن والاستقرار والسلام الذي تنشده الحكمة للبشرية جمعاء. وإن يهود اليوم لأسوأ حالاً من أسلافهم. عادوا إلى أخلاقهم فتحركت كوامن الضغن فيهم فهم يحاربون الله ورسوله ويفسدون في الأرض. وإنهم ليجدون في فترات متعاقبة من قوى البغي وعوامل الشر وسواعد الفساد ما يغريهم بقوى الحق والإيمان. ولكن الله وهو الغيور على عباده وضعهم من حيث لا يشعرون بين شقي الرحى بين عوامل التهلكة من جانب وبين وحدتنا وتماسكنا وإيماننا بحقنا في الحياة الكريمة من جانب آخر.

إن القرآن الكريم ليسجل أن اليهود أشد الناس عداوة للمؤمنين ويجعل عدوانهم للمؤمنين في مستوى عداوة المشركين الذين لا يعترفون بالخالق ولا يؤمنون به.

---

(١) (٢) البقرة: ٥٩.

(٢) (٨) الأنفال: ٥٥ ـ ٥٦.

(٣) (٨) الأنفال: ٥٧.

إقرأ قوله تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ﴾[1] ولقد اغتصب اليهود جزءاً من الوطن الإسلامي العربي عزيزاً علينا. أخرجوا منه أهله وسلبوا أموالهم وشردوهم في الصحراء فأصبحوا بلا مأوى أيموا النساء ويتموا الأطفال. فأضاعوا حياة الملايين وحرموهم متعة الحياة. والغصب في طبيعته عمل مذموم حرمته الشرائع السماوية ورفضته القوانين الوضعية فلا عجب أن يكون حكم الله في موالاة هذه الشرذمة أو الاعتراف بها كدولة تقيم في أراضينا المقدسة مهبط الوحي وموقع المسجد الأقصى ومصلى الأنبياء لا عجب أن يكون حكم الله في مثل هذا العمل إنه لا يتفق وإيمان من يقدم عليه أو يقوم به وهو من أقوى أنواع الموالاة التي جاء القرآن بالنهي عنها وتحريمها والبعد عنها ضماناً لسلامة الأمة وحرصاً على كيانها.

إن المسلمين أمة واحدة تجتمع على رأي واحد وهدف وغاية سامية واحدة. وذلك مصدر قوتها في كل حين تقوى فيه ويعلو شأنها ويتألق نجمها. ويد الله مع الجماعة. ومن شذ شذ إلى النار. فلئن حاول إنسان أن يمد يده لفئة باغية يضعها الاستعمار لتكون جسراً له يعبر عليه إلى غايته ويلج منه إلى أهدافه. لو حاول إنسان ذلك لكان عمله هو الخروج على الدين بعينه والنكوس المنكود. ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ ﴾[2] ويقول تعالى: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾[3].

هذا هو ديننا يضع الخطط أمامنا واضحة المعالم ظاهرة والصراط مستقيماً ونحن اليوم نبتلى ونختبر فهل نحن مضيعون هذه الخطط وتلك المعالم. إن خصوم المسلمين اليوم هم خصوم دينهم. حفدة اليهود الخائنين. أخلاقهم من أخلاقهم كيد وإفساد. وقد ابتلانا الله بهم فخذوا حذركم منهم ولا تمدوا أيديكم لهم: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾[4].

---

(١) (٥) المائدة: ٨٢.
(٢) (٣) آل عمران: ٢٨.
(٣) (٤) النساء: ١٣٨ ـ ١٣٩.
(٤) (٥) المائدة: ٥١.

إن إسرائيل لا تقف أطماعها عند حد. تمتد خططهم المدبرة فيما بينهم وبين الممالئين لهم إلى امتلاك البلاد العربية الإسلامية. ولذا كان واجب المسلمين والعرب أن تجتمع كلمتهم لدرء هذا الخطر. وأن يبتعدوا عن كل ما يقوي هذه العصبة الطاغية سواء أكان عن طريق الاعتراف بها أم المعونة الفكرية أو المساعدة المالية أو ترويج سلعهم بيعاً وشراء فإن ذلك كله موالاة لهم تثبت أقدامهم. وذلك كله خطر يهدر في حكم الشرع والدين والقائمين به ويجعلهم في حكم الخارجين على الجماعة الإسلامية إننا اليوم في حاجة إلى طرد هؤلاء الغاصبين وعودة أصحاب الأرض إليها فكونوا يداً واحدة ولا تتثاقلوا فالتثاقل عن رد عدوانهم أو مد يد المعونة العملية في كبح جماحهم موالاة للأعداء.

أيها المؤمنون ﴿ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١).

هدانا الله ووجهنا إلى الخير وحفظ أمتنا من دعاة الفرقة وموالاة الأعداء. ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ (٢). ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٣) ﴾.

صدق الله العظيم.

الحكمة والسر في تكليف العباد

اقتضت إرادة الباري جل وعلا أن يخلق جنس الحيوان ميالاً إلى الشر أكثر منه إلى الخير. ولذلك نرى لكل نوع من هذه الأجناس سلاحاً يتقي به شر المعتدي عليه من بني نوعه.

فجماعة الطيور جعل سلاحها الأظافر والمناقير. وجماعة ذات الظلف جعل سلاحها قرونها. وقس على هذا حمة العقرب وأنياب الأفاعي ومخالب الوحوش وما شاكل ذلك من الأعضاء التي يستعملها الحيوان سلاحاً يدافع به عن نفسه.

وبما أن الإنسان نوع من أنواع جنس الحيوان فقد جعل سلاحه يده ولسانه وسيوفه وحرابه ومدافعه وبنادقه وأساطيله وغواصاته ودباباته وطياراته وما في حكمها من مدمرات الحصون ومدكدكات القلاع.

---

(١) (٢) البقرة: ٢٥٦. (٢)(٦) الأنعام: ١٥٣. (٣)(٩)التوبة: ١١٩.

ولكنك إذا قارنت بين هذه الأسلحة وجدت أن سلاح الإنسان أكثر عدداً وأعظم في الفتك خطراً لأنه يمتاز عن سائر جنس الحيوان بالعقل والإدراك والفكر مع وجود الشر فيه فهو يفكر ويخترع ما شاء له عقله وذكاؤه.

من أجل ذلك ومن أجل هذه المزية وهي مزية العقل والإدراك والفكر كان التكليف.

والتكليف هو عبارة عن أوامر ونواهٍ بواسطتها يمتنع الإنسان عن إتيان ما يخل بنظام هذا المجتمع الإنساني وهذا النظام الذي خلق الإنسان على العمل بما يؤيده ويوطد دعائمه. وهو عبارة عن عمارة الأرض بواسطة الحيوان الناطق المفكر.

ولذلك لا تسري هذه الأوامر والنواهي على المجانين والمعتوهين بكل أنواعهم والصبي الذي لم يبلغ سن الرشد لعدم كمال عقله وإدراكه وبلوغه الحد الذي يحاسب فيه على كل شيء يصدر منه. وأيضاً لا تسري هذه الأوامر والنواهي على باقي الحيوانات من باب أولى وهذا واضح ظاهر من الأوليات الضرورية.

إننا نريد بالتكاليف الأوامر والنواهي الإلهية المبلغة لنا بواسطة الرسل عليهم السلام. ونزيد على هذا أن نفس الإنسان وضع أوامر ونواهي من لدنه توقف بني نوعه عند حدّ إذا تعداه استحق العقاب. وحقت عليه كلمة العذاب. وهو ما نسميه بالقوانين الوضعية التي تضعها الحكومات وتحتم على رعاياها اتباعها.

بيد أن هذه القوانين لا تخلو من النقص في الأحكام. ولذا تراها تبدل وتغير. وتنسخ وتحور. وأما القوانين السماوية فإنها صالحة لكل زمان ومكان. موافقة لكل السكان. لا يعتورها نقص ولا توصف بخلل. وغاية ما في الأمر أن لكل رسول شريعة تخالف شريعة غيره في بعض الوجود مع كمالها في نفسها. فهذا راجع لحكمة أخرى اقتضاها العليم الحكيم.

ولكن كل الشرائع التي جاءت بها الرسل متفقة على توحيد الله ووصفه بالصفات القديمة التي تليق به.

قلنا إن النفس خلقت أمارة بالسوء ميالة إلى الشر بكل أنواعه فهي كالسائمة التي سارت بين الجموح والضلال. فلا هي تهدى من نفسها ولا تطيع المرشد الواعظ باعتبارين: الأول: إن الله سبحانه وتعالى يمنحها الحكمة فتبصر بنور الله المستقيم، الثاني:

متعلق بفطرة الإنسان. وهي العامة من ميله إلى النفس الأمارة بالسوء. إذا علمت هذا فنقول.

جاء في القرآن الشريف قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾[1].

وقد اتفقت كلمة العلماء إلا القليل منهم على أن المراد بالأمانة في الآية الشريفة هو تقلد عهدة التكليف للخلق. وأن عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال وإباءهن إنما هو إباء طبيعي لعدم اللياقة والاستعداد. لأن العقل هو الذي يدرك التكليف ولا عقل لهن حتى يحملنها.

إن من أنواع التكليف الأمر بعدم السرقة. وإلا قطعت يد السارق. وهذا لا شك دليل على أن الإنسان إذا أبصر أو نظر آخر مقطوع اليد لأجل السرقة خاف وارتدع إن كان لصاً. ومن أجل ذلك يسود الأمن الذي هو أعظم ركن من أركان السلام في العالم.

وإن من أنواع التكليف حد الزاني حتى لا يرتكب الناس هذا الذنب كي لا تختلط الأنساب وتضيع حقوق الوارثين وما يدخل تحت هذا الباب من أضرار الزنا.

وإن من أنواعه الصوم وهو رياضة النفس وتهذيبها بإطاعة أمر مولاها القاضي عليها بأن لا تتناول طعاماً وما في حكمه من المفطرات بياض نهارها فتجلى بالظمأ والجوع صفحة القلب فيبصر الهدى فيمتنع عن الشر.

وإن من أنواعه الزكاة حتى إذا واسى الأغنياء الفقراء حصل تآلف بين القلوب. وامتنع الناس عن السرقة لأن الكثير ممن يسرقون يكون الباعث لهم على السرقة غالباً الفقر والفاقة.

وإن من أنواعه الحج. وهو اجتماع المسلمين من كافة الأقطار في صعيد واحد في ذلك المكان للحج والتعارف والمصافحة. وهذا فيه تأييد وتوثيق روابط وعرى الاتحاد وعمارة البلاد. وهكذا من الحكم الجليلة التي سنذكرها في محالها بالتفصيل.

---

(١) (٣٣) الأحزاب: ٧٢ ـ ٧٣.

وإن من أنواعه الصلاة ليقف الإنسان أمام مولاه خمس مرات في اليوم والليلة فيذكر عظمته ويرجو ثوابه ويخشى عقابه وعذابه. ويصفي روحه من أكدار الذنوب فتستحيل من بهيمية إلى ملكية. ولهذه المناسبة نقول:

جاء أعرابي إلى النبي ﷺ ذات يوم وقال له يا رسول الله:

إن فلاناً يفعل كيت وكيت من الذنوب والحال أنه يصلي ومواظب على الصلاة: فقال له رسول الله ﷺ ما معناه: «إن صلاته ستنهاه يوماً ما» فلم يمض على الرجل زمن حتى تاب وأناب وترك الذنوب التي كان يباشرها أولاً. وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾(١).

قلنا إن النفس إذا لم تفعل شراً فإما أن يكون هذا لهداية من الله أو لخوف عقابه وعذابه. ومن أجل ذلك قالوا إن النفس إما ملحقة بعالم الملائكة لطهارتها واتباع أوامر الله ونواهيه. وإما ملحقة بعالم البهائم لاتباع شهواتها المودية بها.

وترى أن الله سبحانه وتعالى ييسر كل أمر أراد الإنسان فعله وتوجهت إليه نفسه سواء كان هذا الأمر حسناً أو قبيحاً. فإن كان حسناً يثاب عليه. وإن كان قبيحاً يعاقب لأجله لأنه متسبب في وجوده باختياره. وقد قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾(٢) وقال جل شأنه: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾(٣).

ومن هذا تعلم بعد كل ما تقدم. أن معنى التكليف فعل ما فيه كلفة ومشقة ولا يتيسر هذا إلا لمن وجد فيه الاستعداد لإدارك معنى التكليف ولا يوجد الاستعداد إلا في الإنسان. فلهذا كلفه الله بهذه التكاليف وبين له طريق الخير والشر. يسلك أيهما شاء. وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾(٤) وقوله تعالى:

---

(١) (٢٩) العنكبوت: ٤٥.

(٢) (٩٢) الليل: ٦.

(٣) (١٧) الإسراء: ٢٠.

(٤) (٧٦) الإنسان: ٣.

﴿ وَهَدَيْنَهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾[1] وقوله: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾[2].

وبهذا تعلم أن الله سبحانه وتعالى أراد الخير للإنسان بهذه التكاليف ولكن لميله للشهوات واحتجاب نفسه عن إدراك ما أراده الله من الخير العظيم جهل هذه الإرادة. وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾[3] أي ظلوماً لنفسه جهولاً بما أراده الله. وهي جملة مستأنفة في الآية الشريفة: ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ﴾[4] الآية ولهذا كانت اللام فيها لام العاقبة أي عاقبة حمل الأمانة التي هي التكاليف أما الثواب أو العقاب.

هذا هو معنى سر التكليف الذي خفي على كثير من العلماء.

حكمة أن العبادة حق الله تعالى

إعلم وفقك الله إلى صالح الأعمال أن أحبّ شيء إلى الإنسان ولو كان غنياً في وفر من المال وصلاح الحال أن تقول له خذ. لا أن تقول له أعطني. ولقد قال في هذا ابن الوردي: (**أحسن الأشياء قولي لك: خذ**) وهذه قضية دلت على صدقها الفطرة الطبيعية التي أودعها الله في خلقه كافة بحيث إذا بعث قارون من رمسه وهو في الغناء والثروة وأهديت له دانقاً من درهم يعدّها منك مكرمة طوقت بها جيده. ولقابلها بالشكران الجميل. وكلما أبصرك أبصر منك محسناً منعماً عليه. وحرك شفتيه بالدعاء لك بالخير جزاء معروفك وإحسانك.

وإذا كان الأمر كذلك فكيف يكون حال الفقير المضطر والمعدوم البائس إذا خففت من بؤسه بأية صفة من صفات البر والإحسان؟ لا شك ولا مرية في أنه يقابلك بأعظم ما يكون من الشكر. ولأظهر لك من الخضوع ما يظهره الخادم لسيده بل ويزيد فوق ذلك إلى درجة تقرب من العبادة ولم يفارق فناء دارك حاطاً رحله. بل يتخذ بيتك كعبة يطوف حولها وقبلة لا يصرف عنها وجهه. ويمسي ويصبح يترنم بقول الشاعر:

أراشوا جناحي ثم بلّوه بالندى ... فلم أستطع من أرضهم طيرانا

---

(١) (٩٠) البلد: ١٠.

(٢) (٩٩) الزلزلة: ٧ـ٨.

(٣) (٣٣) الأحزاب: ٧٢.

(٤) (٣٣) الأحزاب: ٧٣.

إذا عرفت هذا فاعرف أيضاً أن تلك الفطرة المودعة في كل إنسان تقضي بأن كفران النعمة: (غير الكفر الحقيقي لأن هذا من باب أولى) وجحودها وعدم مقابلتها بالشكر كل هذا هو مغضبة للمنعم مجلبة لسخطه ونقمته. وإذا عفا فهذه أيضاً نعمة أخرى منه يقصر عنها الشكر ويقل في جانبها الحمد. وهذا هو العدل الذي يقرب للتقوى. قال الله تعالى: ﴿ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾(١).

وخلاصة ما تقدم أن إسداءك المعروف بكل أنواعه أو بعضه إلى الغير يجعله أسير برك وإحسانك. فإذا كان هذا حال المخلوق مع المخلوق مثله فكيف يكون حاله مع رب الأرباب وأكرم الكرماء. والمنعم على المنعم عليه بما وصل له من إحسانه إليه. والمنعم عليهما معاً بالنعم التي لا تحصى ولا تستقصى. لا شك ولا مراء في أنه إذا كان كريم النفس طاهر الذيل يقدس الأصل قبل الفرع. ومن هنا وجبت عبادة الخالق جل وعلا. وهي عبارة عن شكره تعالى على تلك النعم.

إن نعم الله لا تحصى يضيق عن عدها الحساب. وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾(٢) بيد اني أذكر بعض هذه النعم بمثابة تقرير ودليل على عبادة الله تعالى.

إن من نعمه عليك الصحة. التي قال فيها بعض الحكماء: (الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يعرفه إلا المرضى).

وإن من نعمه عليك هذا النفس الذي لو انقطع عنك بضع ثواب لفقدت الحياة.

وإن من نعمه عليك هذه الحياة التي تود أن تدوم لك أبد الآبدين ودهر الداهرين. إلى غير ذلك من طعام وشراب ومسكن وسمع وبصر وعقل. وإن هناك نعمة أخرى هي جماع كل النعم وهي نعمة معرفته تعالى.

ظهر لك وعرفت من كل ما تقدم أن العبادة واجبة لله تعالى. وهي ليست قاصرة على ما نسميه العبادات من صلاة وصيام. وحج وزكاة وما أشبه ذلك من أنواع الطاعات. وإنما هي جامعة لكل ما يرضي الله تعالى وكل ما أمر به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ويدخل في هذا الكرم والشجاعة وإغاثة الملهوف ومخالفة النفس الأمارة بالسوء وما أشبه ذلك.

---

(١) (٢) البقرة: ٢٣٧.

(٢) (١٤) إبراهيم: ٣٤.

ولا تظن أن شكرك النعم لبني الإنسان. وعبادتك للخالق الديان حق واجب عليك فقط دونهما. فإنه وإن كان لهما حق واجب عليك فإن لك حقاً عليهما مع التفاوت في المعنى والاعتبار.

أما حقك على المخلوق فهو أنه يجب عليه أن يغيثك إذا كنت ملهوفاً ويأخذ بيدك في الشدائد وكل ما يدخل في هذا الباب من أنواع المعروف وضروب الإحسان.

وأما حقك على الله سبحانه وتعالى الذي أوجبه على نفسه بنفسه تفضلاً منه وإحساناً على خلقه تعلمه من هذا الحديث الشريف. قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل: «**يا معاذ هل تدري ما حق الله تعالى على عباده وما حق العباد على الله**» قال معاذ: الله ورسوله أعلم. قال النبي: «**فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً. وحق العباد على الله تعالى أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً**» صدق رسول الله ﷺ لأن الله هو الأصل في الأنعام وعبادته ألزم من الإلزام فإذا لم نؤدّها وجب الانتقام. اللهم إلا إذا صادفتك العناية الربانية. وشملتك الرحمة السرمدية. جعلنا الله وإياك من الشاكرين. ووقانا شر الشيطان الرجيم. وغفر لنا الذنوب والذلات. ووفقنا للأعمال الصالحات.

حكمة الطهارة في العبادات

كلنا يعلم أن الإنسان إذا كان قذر الثياب والأعضاء اشمأزت منه النفوس. وتحولت عنه القلوب والعيون. وكذلك إذا أراد أحد أن يقابل ملكاً أو أميراً فلا بد من أن يلبس أحسن الثياب وأنظفها ويزيل ما على جسمه من الأوساخ والأدران وما في حكم هذا حتى لا يراه في حالة تبغضه إليه. وإذا كان الأمر كذلك مع المخلوقين بعضهم لبعض فكيف يكون حال من يقف بين يدي رب الأرباب وملك الملوك؟.

إن الشارع الحكيم فرض الوضوء والغسل لأجل أن يكون الإنسان خالياً من الأقذار والأوساخ عند أداء الفريضة، وإن هناك حكمة أخرى وهي أن الملائكة في أوقات الصلاة تكره أن ترى المصلي وسخ الثياب كريه الرائحة. وأيضاً إذا وقف المصلون صفوفاً وفيهم رث الثياب يتضورون منه. ومن أجل ذلك سن الشارع الحكيم الغسل يوم الجمعة والعيدين. لأن المسلمين يجتمعون في هذه الأوقات للصلاة مزدحمين متكاتفين جنباً لجنب. فإذا لم يكن الإنسان نظيفاً طيب الرائحة في هذه الأوقات تقززت منه النفوس وتأذّى منه المصلون. وإيذاء الناس ممقوت مذموم.

وإن هناك حكمة أخرى في الاغتسال من الجنابة. وهي أن للإنسان نفسين. نفساً بهيمية ونفساً ملكية. يعني له نفس ملحقة بعالم البهائم. ونفس ملحقة بعالم الملائكة. فإذا ما أراد الجماع تتأذى النفس الملحقة بعالم الملائكة من وجودها في هذا الجسم النجس وهي تتحمل الأذى. أذى الجنابة. فإذا اغتسل الإنسان من هذه الجنابة اطمأنت النفس الملكية وزال عنها ما تكرهه من الإنسان.

وتوجد حكمة أخرى في الوضوء والاغتسال. وهو أن غسل الأعضاء بالماء يوجد نشاطاً فيها ويذهب عنها الكسل فيؤدي الإنسان الفرض وهو نشط. والنشاط يوجد ارتياحاً في القلب فيخلص في العمل. وهـذه من الحكم الجليلة التي سنبينها في محالها.

وأما الحائض فإن اغتسالها يوجد عندها نشاطاً واستعداداً للحمل الذي تريده في كل وقت وآن هذا إذا كانت ذات بعل، وإلا فقد حصلت على النشاط وذهاب الكسل الذي يقعدها عن العمل.

وكذلك النفساء فإن اغتسالها يذهب عنها قذارة بدنها ورائحته الكريهة. وسنبين كل ذلك في محله.

ولو أردنا أن نورد الآيات والأحاديث والحكم المأثورة في فضل الطهارة لضاق بنا المجال. ولكن نورد هنا بعضاً منها زيادة في الفائدة.

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾[1] وقال جل شأنه: ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾[2] وقال ﷺ: «**مفتاح الصلاة الطهور**» وبوجه الإجمال فإن النظافة والطهارة واجبة شرعاً وعقلاً.

هذه الطهارة التي ذكرناها هي طهارة الظاهر. وهي وإن كانت من الأهمية بمكان من المنزلة التي شرحناها. ولكن هناك أيضاً طهارة الباطن التي يجب على الإنسان أن يتصف بها وهو خلوص القلب من درن الكبر والحقد والحسد والعجب والخيلاء وكل الصفات الذميمة المزرية بالمرء المفسدة للأخلاق ومن هنا تعلم أن قوله ﷺ: «**الطهور نصف**

---

(١) (٩) التوبة: ١٠٨.
(٢) (٥) المائدة: ٦.

الإيمان» مراد بالطهارة. الطهارة المعنوية. لأن المسلم إذا كان متصفاً بهذه الصفات المتقدمة يكون إيمانه ضعيفاً. فإذا ما خلا باطنه منها وصفت له روحه وخلصت نفسه صار إيمانه كاملاً.

ويبعد أن يكون المراد من قوله ﷺ: «**الطهور نصف الإيمان**» الطهارة الظاهرية. وقد ذكر في البدائع ما يأتي:

فمنها الطهارة بنوعيها من الحقيقية والحكمية. والطهارة الحقيقية هي طهارة الثوب والبدن ومكان الصلاة من النجاسة الحقيقية. والطهارة الحكمية هي طهارة أعضاء الوضوء من الحدث وطهارة جميع الأعضاء الظاهرة من الجنابة. أما طهارة الثوب وطهارة البدن من النجاسة الحقيقية فلقوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾﴾ [1] وإذا وجب تطهير الثوب فتطهير البدن أولى. وأما الطهارة من الحدث والجنابة فلقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾[2] الآية وقول النبي ﷺ: «**لا صلاة إلا بطهور**» وقوله «**مفتاح الصلاة الطهور**» وقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ﴾[3] وقوله ﷺ: «**تحت كل شعرة جنابة ألا فبلّوا الشعر واتقوا البشرة**» والاتقاء هو التطهير. فدلت النصوص على أن الطهارة الحقيقية عن الثوب والبدن. والحكمية شرط جواز الصلاة.

والمعقول كذلك يقضي من وجوه. أحدها أن الصلاة خدمة الرب وتعظيمه جل جلاله. وعم نواله. وخدمة الرب وتعظيمه بكل الممكن فرض. ومعلوم أن القيام بين يدي الله تعالى ببدن طاهر وثوب طاهر على مكان طاهر أبلغ في التعظيم وأكمل في الخدمة من القيام ببدن نجس وثوب نجس على مكان نجس كما في خدمة الملوك في الشاهد.

وكذلك الحدث والجنابة وإن لم تكن نجاسة مرئية فهي نجاسة معنوية توجب استقذار ما حلّ بها. ألا ترى أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يصافح حذيفة بن اليماني رضي الله عنه امتنع وقال: إني جنب يا رسول الله: فكان قيام الجنابة مخلاً بالتعظيم على أنه إن لم يكن على أعضاء الوضوء نجاسة رأساً فإنها لا تخلو عن الدرن والوسخ فيجب غسله تطهيراً لها

---

(١) (٧٤) المدثر: ٤. (٢) (٥) المائدة: ٦. (٣) (٥) المائدة: ٦.

من الوسخ والدرن فتتحقق الزينة والنظافة فيكون أقرب إلى التعظيم وأكمل في الخدمة. فمن أراد أن يقوم بين يدي الملوك للخدمة في الشاهد أنه يتكلّف التنظيف والتزيين ويلبس أحسن ثيابه تعظيماً للملك. ولهذا كان الأفضل للرجل أن يصلي في أحسن ثيابه وأنظفها التي أعدّها لزيارة العظماء ومحافل الناس.

والثاني: إنه أمر بغسل هذه الأعضاء الظاهرية من الحدث والجنابة تذكيراً لتطهير الباطن من الغش والحسد والكبر وسوء الظن بالمسلمين ونحو ذلك من أسباب المآثم فأمر لإزالة الحدث تطهيراً. لأن قيام الحدث لا ينافي العبادة والخدمة في الجملة، ألا ترى أنه يجوز أداء الصوم والزكاة مع قيام الحدث والجنابة.

وأقرب من هذا الإيمان بالله تعالى الذي هو رأس العبادات وهذا لأن الحدث ليس بمعصية ولا سبب مأثم. وما ذكرنا من المعاني التي في باطنها أسباب المآثم فأمر بغسل هذه الأعضاء الظاهرة دلالة وتنبيهاً على طهارة الباطن من هذه الأمور وتطهير النفس عنها واجب بالسمع والعقل.

والثالث: إنه وجب غسل هذه الأعضاء شكراً لنعمة وراء النعمة التي وجبت لها الصلاة. وهي أن هذه الأعضاء وسائل إلى استيفاء نعم عظيمة بل بها تنال جل نعم الله تعالى. فاليد بها يتناول ويقبض ما يحتاج إليه. والرجل يمشي بها إلى مقصده. والوجه والرأس محل الحواس ومجمعها التي بها يعرف عظم نعم الله تعالى من العين والأنف والفم والأذن التي بها البصر والشم والذوق والسمع التي بها يكون التلذذ والتشهي والوصول إلى جميع النعم فأمر بغسل هذه الأعضاء شكراً لما يتوسل بها إلى هذه النعم.

والرابع: أمر بغسل هذه الأعضاء تكفيراً لما ارتكب بهذه الأعضاء من الإجرام بها. إذ بها يرتكب جل الإثم من أخذ الحرام والمشي إلى الحرام والنظر إلى الحرام وأكل الحرام وسماع الحرام من اللغو والكذب. فأمر بغسلها تكفيراً لهذه الذنوب فكانت مؤيدة لما قلنا: اهـ.

واعلم أن الطهارة لها أربع مراتب.

(١) تطهير الظاهر من الأدران والأخباث.

(٢) تطهير الجوارح من الآثام كن لا تدنس اليد بالسرقة مثلاً والعين بالنظر والرجل بالسعي إلى محرم. وما أشبه ذلك.

(٣) تطهير القلب من الأوصاف الذميمة.

(٤) تطهير القلب عما سوى الله تعالى وهي طهارة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.

جعلنا الله وإياك من المتطهرين.

حكمة إزالة النجاسة بالماء

إنه وإن كان معلوماً بالبداهة أن الماء مزيل للأقذار والأوساخ وكل ما ينافي النظافة. فإن للشارع الحكيم في تكليفنا إزالة النجاسة بالماء حكمة بالغة. لأن الماء يزيل عين النجاسة وأثرها وهو الرائحة الكريهة التي تؤذي الإنسان وكل ما يقرب من الجسم الذي تنبعث منه الرائحة. وأيضاً أن نفس هذه الرائحة عندما تختلط بالهواء وتدخل في سائر البدن بواسطة المسام نضر بالجسم وتخل بالصحة لأن الهواء سيال مركب لطيف قابل للتمدد وهو يدخل بسهولة في أضيق مسام الأجسام وكل الحيوانات ممتلئة به حتى المعادن تحتوي على كمية منه فضلاً عن الإنسان.

ولقد قرر الشارع الحكيم أن الماء الذي يجوز به التطهير يشترط فيه أن لا ينتقل من حالته الطبيعية الأصلية وهي الرقة والسيلان لأنه إذا انتقل من الرقة إلى الثخونة لم يكن صالحاً لإزالة أي شيء من أنواع التطهير. وكذلك إذا خالطه شيء من النجاسات مثل الخمر والبول لم يكن صالحاً لإزالة النجاسة والتطهير. لأن الماء القليل صار نجساً والنجس لا يزيل مثله ومن أجل ذلك وضع الشارع الحكيم شروط الماء الذي يجوز التطهير بها وهي مذكورة في فروع الفقه.

فانظر هذه الحكم العظيمة وتأمل فيها بعين البصيرة تجد أن الشارع جل شأنه قد أحكم كل شيء صنعا.

حكمة الوضوء وطهارة الأعضاء الخاصة

إن هذه الحكمة بينها وبين حكمة الاغتسال التي سنذكرها في غير هذا الموضع وجه تشابه. وإن هناك بعض تباين نوعي بينهما ووجه الشبه على الإجمال هو الطهارة من الأدران والأوساخ المعنوية والحسية. وأما هذا التباين فهو أن الاغتسال عام للجسم كله. وأن الوضوء خاص بأعضاء مخصوصة.

إن فعل الوضوء يكون في بعض المذاهب مفروض الترتيب وفي بعضها مسنون. وعلى كل حال فأمرنا بغسل هذه الأعضاء ومسح الرأس أو الربع أو البعض فيه حكم جليلة وإليك البيان.

يبدأ الإنسان أولاً بغسل اليدين وهما العضوان اللذان يستعملهما أكثر من سائر الأعضاء في ملامسته الأشياء كالمصافحة والبطش وما أشبه ذلك.

ثم الفم بالمضمضة لأنه قرار الأبخرة المتصاعدة من الجوف ومنه تخرج بعض الروائح وآثار الطعام الذي قد يكون متخلفاً بين الأسنان. وليعلم أيضاً طعم الماء إذا كان انتقل من حالته الأصلية أم لا.

ثم الاستنشاق لإزالة ما بالأنف من الآثار الكريهة وما يدخله فيه الهواء من الأتربة وما شاكل ذلك. وليشم أيضاً رائحة الماء.

ثم الوجه لإزالة ما عليه من آثار العرق والأتربة كي يكون نظيفاً. إذ أوّل ما يقع عليه النظر عند الملاقاة والمقابلة. فإذا انتهى من الوجه عطف على غسل اليدين إلى المرفقين. وهما العضوان المتوسطان بين أعضاء الرأس والرجلين.

والحكمة في غسلهما أنهما معرضان في غالب الأوقات بأن يكونا مكشوفين ومعرضين للأوساخ التي تلصق بالأعضاء المكشوفة كالأذنين مثلاً.

ثم الرأس لأنها منبع العرق الخارج من المسام. ولم يفرض الشارع الحكيم غسلها بالماء لما في هذا من المشقة والحرج. واكتفى فيها بالمسح الذي اتفقت عليه الأئمة الأربعة رضي الله عنهم واختلفوا في مقدار الممسوح فيها فقط.

ثم مسح الأذنين لإزالة ما علق بهما من الأتربة التي تدخل في القدر المرئي منها بواسطة الهواء. ثم يمسح قفاه بالماء حتى تكون أعضاء الرأس قد أخذت قسطها من النظافة.

ثم يعطف على الرجلين إلى الكعبين لأن هذين العضوين معرضان للأوساخ والروائح الكريهة. خصوصاً ما يوجد عند الذين يلبسون الأحذية (**الجزم**) وهذا يشاهد كثيراً عند الفرنج والمتفرنجين من المسلمين غير المصلين.

فالوضوء بهذه الكيفية وبهذه الطريقة الحسية يكسب الإنسان نظافة ونشاطاً في أداء

العبادة. وأضف إلى هذا أن الإنسان يقف أمام مولاه نظيفاً طاهراً كما هو الشأن في الاغتسال. هذه هي النظافة الحسية وأما النظافة المعنوية فهاك البيان. إن غسل اليدين يذهب عنهما ما علق بهما من الذنوب ولأنهما آلة البطش وما أشبه ذلك. وكذلك غسل الفم يذهب عنه درن الغيبة والنميمة. ولأن الغيبة لها رائحة منتنة كالجيفة يشمها الذين أنعم الله عليهم بالإيمان الصحيح وصفّى قلوبهم. وقال قال الله تعالى: ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾[1] ولذلك أن المغتاب يفطر إذا كان صائماً في مذهب السيدة عائشة رضي الله عنها.

وكذلك الأذن فإنها الجارحة التي تسمع لغو القول وهجر الكلام وفحشه وما في حكم ذلك.

والأنف لأنها الجارحة التي تشم الروائح الكريهة. وكذلك الوجه فإن فيه العينين وهما الجارحتان اللتان تنظران إلى العورات والمحرمات وضررهما أشهر من أن يذكر.

وغسل الرجلين لأنهما الجارحتان اللتان يمشي بهما الإنسان إلى حيث يحرم المشي كالذهاب إلى محال الفجور وحانات الخمور ومجالس الغيبة والنميمة. ولما كان الرأس لا يباشر شيئاً من هذا كله بل يجاور الأعضاء المتقدمة اكتفى الشارع الحكيم فيه بالمسح للمجاورة فقط. ومجاورة الذنب أقل في الذنب. ولأن غسله فيه حرج عظيم على العباد. والدين يسر لا عسر.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: شرع الاستنجاء لمباشرة الحور العين. وغسل الكفين للأكل في موائد الجنة والمضمضة لكلام رب العالمين. والاستنشاق لروائح الجنة: وغسل الوجه للنظر إلى وجهه الكريم. (النظر الذي حدده الشارع وأجازه) وغسل اليدين إلى المرفقين للسوار. ومسح الرأس للتاج والإكليل. ومسح الأذنين لسماع كلام رب العالمين. وغسل الرجلين للمشي في الجنة:

وقال ﷺ: «**إذا توضأ العبد المسلم فتمضمض خرجت الخطايا من فيه. فإذا انتثر خرجت الخطايا من أنفه فإذا غسل وجهه خرجت الخطايا من وجهه حتى تخرج من تحت أظافره فإذا مسح رأسه خرجت الخطايا من رأسه حتى تخرج من تحت أذنيه. وإذا غسل رجليه خرجت الخطايا من أظافر رجليه. ثم كان مشيه إلى المسجد وصلاته نافلة**».

(١) (٤٩) الحجرات: ١٢.

وقال عمر رضي الله عنه: إن الوضوء الصالح يبعد عنك الشيطان. وقال مجاهد رضي الله عنه: من استطاع أن لا يبيت إلا طاهراً ذاكراً مستغفراً فليفعل فإن الأرواح تبعث على ما قبضت عليه:

هذه هي الحكمة العظيمة في الوضوء. فإذا كنت ممن أنار الله قلوبهم بنوره عرفت أن الله سبحانه وتعالى لم يكلفنا بالوضوء وسائر أنواع التكاليف إلا لمنفعة تعود علينا من جهة الصحة وآداب النفس. نسأله تعالى أن يوفقنا إلى معرفة أسرار هذا الدين القويم. ويهدينا إلى الصراط المستقيم بمنه وكرمه.

الحكمة في موجبات الوضوء ونواقضه

أنت تعلم أن الوضوء في اصطلاح اللغويين هو النظافة ولما كان الإنسان لا يقابل ملكاً من الملوك أو أي عظيم من العظماء إلا وهو في حالة من النظافة وحسن المنظر والهندام بقدر المستطاع كما تقدم بيانه في غير هذا الموضع. فكيف يكون حال من يقف أمام ربه ومالك ناصيته؟.

فرض الشارع الحكيم الوضوء على الإنسان إذا جاء الوقت الذي يقف فيه أمام ملك الملوك ولم يكن متوضئاً. وهذا من الآداب الدينية بمكان. ولأن الوضوء يوجد نشاطاً في الجسم فيؤدّي الإنسان الصلاة بغير كسل وفتور لتكون صلاته مقبولة حيث صدرت منه بارتياح وطيب نفس.

وأما الحكمة في أن الوضوء ينتقض بخروج الريح أو النوم الثقيل أو خروج قيء ملء الفم فإن حدوث وحصول كل هذا ينافي النظافة الحسية التي يجب على الإنسان أن يكون متصفاً بها عند الوقوف أمام ربه وخالقه. ولا يعزب عنك أن القيء إذا ملأ الفم كان دليلاً على أنه خارج من موضع النجاسات. بخلاف ما إذا كان قليلاً فإنه يكون خارجاً من المواضع الطاهرة.

ولرب قائل يقول لماذا عند خروج الريح الذي هو من نواقض الوضوء لا يغسل العضو الذي خرج منه مع أنه المحل المماس للريح الذي كان السبب في إعادة الوضوء بهذه الكيفية وتغسل الأعضاء الأخرى التي لا دخل لها في موضوع النقض. فنقول له: إن الريح الخارج من هذا الموضع ليس له أدنى أثر في الظاهر حتى نقول أن الأثر قد زال بالغسل. وهو أيضاً ليس من المواضع التي يقع النظر عليها فيغسل كباقي أعضاء الوضوء

المخصوصة. ولما كان خروجه من الجسم يحدث فتوراً في الأعضاء مع الرائحة الكريهة فبغسل هذه الأعضاء يذهب الكسل الذي حصل. والعضو المخصوص ليس من الأعضاء التي بغسلها أو مسحها يحصل النشاط ويذهب الفتور من الجسم.

هذه هي الحكمة من حيث فرض الوضوء لإزالة النجاسة المحسوسة وما في حكمها.

وأما الحكم المتعلقة بإزالة النجاسة المعنوية. فهي إن الريح إذا خرج من الجوف كان بمثابة داء زال عن الإنسان إذا حبسه في جوفه من أشد الأشياء ضرراً وخطراً على الإنسان. فخروجه شفاء منه. والوضوء بعد ذلك بهذه الكيفية يكون بمثابة شكر لله تعالى الذي منّ عليه بمنة الشفاء بخروجه.

قلنا إن نواقض الوضوء هي أشياء منافية للنظافة ومنها الريح والقيء ملء الفم. ولرب قائل يقول: إن الشارع جعل من ضمن نواقض الوضوء: النوم الثقيل. وليس هذا في شيء من النظافة أو ضدها. فنقول له إن النوم الثقيل يفقد الإنسان شعوره ويحصل الفتور في الجسم بسببه فلا يأمن الإنسان والحالة هذه من خروج الريح وهو لا يشعر. لأن الريح إذا خرج منه وهو في غيبوبة النوم لا يدري به ولا يشعر.

هذا ولقد ورد في فضل الوضوء أحاديث كثيرة وهذا الفضل داخل في هذه الحكم التي نتكلم عليها كقوله ﷺ: «الوضوء سلاح المؤمن» لأنه إذا كان طاهراً من النجاسة الحسية والمعنوية كانت نفسه أقرب إلى الملائكة الذين لا قبل للشيطان على إغرائهم وقودهم إلى المعاصي. فالوضوء بمنزلة السلاح يقاوم به المتوضي الشيطان.

ولقد ندب الشارع الحكيم الوضوء لمن ينشد الشعر. لأن الشاعر في الغالب يمدح من لا يستحق المدح ويذم من لا يستحق الذم فوضوؤه بعد إنشاده الشعر لإزالة النجاسة المعنوية التي لصقت به من نطقه بلغو القول وفحش الكلام.

وإننا نذكر هنا الفوائد الطبية التي اكتشفها. العلم الحديث في هذا الموضوع. قال بعض كبار الأطباء ما يأتي:

أما الفوائد للوضوء فكثيرة من الوجهة الطبية. فنظافة الفم مرات متعددة في اليوم من أهم أسباب الوقاية من مرض الأسنان واللثة. كذلك غسل طاقة الأنف بماء بارد من أهم الوقاية للزكام المتكرر. وكأنها مثل الحقن بالفاكسين، وقد كتب أخيراً أطباء إختصاصيون في الأنف يبينون للناس هذه الفوائد. وفوائد غسل الوجه والأذنين والأيدي ظاهرة من كثرة

ما يصيب الوجه والأجزاء المعرضة عادة للأمراض الجلدية والالتهابات فإن غسلها عدة مرات كل يوم أحسن وقاية من ذلك المرض.

وقد اتضح أخيراً بأن كثيراً من الميكروبات (**الجراثيم**) بل الأغلبية منها يصيب الإنسان بطريق اختراقها الجلد. كما اتضح أن طفيلات الديدان تدخل الجسم بطريق اختراق الجلد أيضاً. ولا شك أن الغسل المتكرر من الوقاية البسيطة الفعالة. لأن الطبقة الخارجية للجلد تمنع كل الميكروبات من الوصول إلى داخل الجسم إلا إذا حصل فيها (**تسلخ**) aqrasion ولو بسيطاً. فهي حينئذٍ تفقد وظيفتها وتتمكن الجراثيم من الدخول إلى الجسم. وأهم سبب لوجود التسلخات البسيطة هو (**الهرش**) وهو نتيجة عدم النظافة.

وأما الجراثيم التي تدخل الفم فلا تدخل إلاّ من طريق تلويث الأيدي. فإذا كانت الأيدي مغسولة نظيفة على الدوام كانت أحسن وقاية.

هذه هي الحكم الحسية والمعنوية والطبية في حكمة موجبات الوضوء فافهمها واعمل بها لتكون من الذين أنعم الله عليهم بنعمة الحكمة. وفقنا الله وإياك إلى ما يرضيه وجعلنا من المتطهرين.

حكمة موجبات الغسل من الجنابة وغيرها

إن الشارع الحكيم فرض الاغتسال بعد خروج المني ولم يفرضه بعد خروج البول مع أنهما خارجان من مكان واحد وعضو واحد لحكمة بالغة وسر عجيب وإليك البيان.

إن البول عبارة عن فضلة المأكول والمشروب. أما المنيّ فهو عبارة عن مادة مكونة من جميع أجزاء الجسم ولذا ترى الجسم يتأثر بخروجه ولا يتأثر بخروج البول. لأن المنيّ كما قلنا يتحلل من جميع أجزاء البدن. ولذا ترى وتنظر الإنسان إذا أفرط في الجماع ضعفت قوة بدنه. وهذا مصداق قوله ﷺ: «**ما هو إلا نور عينيك ومخ ساقيك**» فالغسل بالماء كما قلنا يعيد إلى البدن هذه القوة المفقودة بخروج المنيّ. وأيضاً فقدان هذه القوة من الجسم تسبب الكسل وعدم أداء العبادة على الوجه المطلوب ولذا قال أبو ذر رضي الله عنه: لما أغتسل من الجنابة كأني القيت عني حملاً: وأن هذا الحمل الثقيل مجموع أمرين:

الأول: زوال الكسل عن الجسم وأن الكسل من أثقل الأحمال.

الثاني: إن الإنسان إذا كان طاهراً من الجنابة وكان نائماً مثلاً صعدت روحه إلى العالم العلوي وشاهدت غرائب وأسرار صنع الخالق. وأما إذا كان جنباً فإن روحه تحتجب عن مشاهدة هذه الغرائب والأسرار لأن الطهارة هي المبرر لصعودها واختلاطها بعالم الملائكة الطاهرين. وكما يقال في الرجل يقال في المرأة من هذه الوجهة. بيد المرأة تمتاز عن الرجل بالحيض والنفاس. أما الحيض فهو الذي يكوّن من جميع أجزاء بدنها كما يكوّن المنيّ من جميع أجزاء البدن فاغتسالها بعد الحيض يعيد لها القوة التي فقدت منها.

وهناك حكمة أخرى تتعلق بالصحة. وهي إزالة الرائحة الكريهة التي تضر بجسمها وجسم بعلها الذي يجامعها. وعند الاغتسال تزول كل بواعث القاذورات ومضعفات الصحة. وقد قال الله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾[1].

وأما الاغتسال من النفاس فيتعلق به فائدتان: فائدة حسية وفائدة معنوية. أما الفائدة الحسية: فهي إزالة الرائحة الكريهة التي تتولد من دم الولادة: وأما الفائدة المعنوية فهي شكر الله تعالى الذي أنقذها من خطر الولادة ذلك الخطر العظيم الذي هو معلوم عند النساء.

ورب قائل يقول إن البول نجاسة ويخرج من العضو الذي يخرج منه المنيّ فلماذا لا يجب الاغتسال بخروجه. فنقول على وجه التسامح إن رحمة الله اقتضت بأن الإنسان لا يغتسل من خروج مادة دائمة الخروج. بخلاف المنيّ الذي يخرج في أوقات مخصوصة ولأن البول كما قلنا أولاً: إنه عبارة عن فضلة المأكول والمشروب. وأيضاً إن الإنسان إذا اغتسل من البول يكون حرجاً عظيماً. ودين الله يسر لا عسر.

هذه هي حكمة الشارع فيما ذكر. وكذا يغتسل المرء إذا التقى الختانان ولم ينزل لقوله ﷺ: «**إذا جلس الرجل بين شعبها الأربع ثم جهدها فقد وجب عليه الغسل وإن لم ينزل**» فاعرف هذه الحكم وفقك الله. ورحم الله من عرف الحكمة فاهتدى بها إلى منار الحق والهدى والطريق المستقيم.

---

(١) (٢) البقرة: ٢٢٢.

الحكمة في أن بعض الأرياح ينقض الوضوء دون البعض الآخر

إن الأرياح التي تخرج من جسم الإنسان أربعة: الريح الخارج من الدبر. والريح الخارج من القبل. والجشاء وهو الريح الخارج من الفم الذي كان محتبساً فوق المعدة. والعطاس، وهو الريح الخارج من الأنف وكان محتبساً في الدماغ وطلب الخروج من الخياشيم.

وقد اقتضت حكمة الشارع الحكيم أن الريح الخارج من الدبر هو الناقض للوضوء دون سائر الأرياح. لأنه يمر في طريقه على أوساخ تكسبه هذه الرائحة الكريهة. وأما الجشاء فهو يخرج من ممر لا أوساخ فيه وهو الحلق. وكذلك العطاس فإنه يخرج ويمر من الخياشيم ولا أوساخ فيها. وكذلك الأمر في الريح الخارج من القبل فإنه وإن كان يمر من ممر البول إلا أن الرائحة الكريهة مفقودة منه: بل ربما يخرج والإنسان لا يشعر به وهو الكثير الغالب. فمن أجل ذلك لا يكون ناقضاً للوضوء. هذه هي الحكمة التي لأجلها جعل الشارع الحكيم أن ريح الدبر هو الناقض للوضوء دون سائر الأرياح. فسبحان من دبَّر الأمور بحكمته.

حكمة الصلاة

الصلاة عماد الدين. ونور اليقين. وشفاء الصدور. وملاك كل الأمور. لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر. وتبعد النفس الأمارة بالسوء عن الشرور التي طبعت على الميل إليها.

وإذا كانت فوائد الاغتسال والوضوء تلك الفوائد العظيمة الجليلة التي بيناها في غير هذا الموضع. وهي السبيل الموصل إلى الصلاة فكيف تكون فائدة الصلاة وهي المقصودة بالذات والغرض الوحيد من الوضوء والتطهير.

يقف الإنسان أمام مولاه في اليوم والليلة خمس مرات خاضعاً خاشعاً ذليلاً أمام العزة الربانية واضعاً هواه تحت قدمه لأنه منصرف بكليته إلى الإله الحقيقي الذي لا معبود بحق سواه. حتى لا تغيب عنه عظمته وهيبته وجلاله في عامة يومه.

يؤدي الإنسان صلاة الفجر في الوقت الذي تكون فيه الروح صافية والنفس مطمئنة. وجمال الطبيعة ظاهر باهر حيث النجوم تميل إلى الغروب. والشمس مؤذنة بالبزوغ. وإذا أردنا أن نبين كيف يكون محو الذنوب الصغائر من صحيفة الإنسان المصلي فلا شيء هناك أفصح من أن نشبه المصلي وهو واقف محرم للصلاة برجل فوق رأسه حمل ثقيل من الذنوب. فإذا طأطأ رأسه للركوع وجلس ووضع جبهته في السجود وكرر سجوده وركوعه وقيامه وقعوده سقط من على رأسه هذا الحمل الثقيل أو بعبارة أخرى نشبهه برجل رث الثياب والبدن قد لبس جلباباً قذراً من وسخ الذنوب وقذارة المعاصي. فوضوؤه وصلاته المشتملة على الأقوال والأفعال المخصوصة بمنزلة غسل لهذه الأقذار والأوساخ. ولذا قال ﷺ: **«مثل الصلوات الخمس كمثل نهر عذب على باب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات فما يبقي ذلك من الدنس»**.

إن من حكم الصلاة وجود الاطمئنان في القلب فلا يجزع عند نزول المصائب. ولا يمنع الخير إذا وفق إليه. لأن الجزع ينافي الصبر الذي هو من أفضل أسباب السعادة. ولأن منع الخير عن الناس مضرة كبرى وعدم ثقة بالخالق الرازق المخلف ما ينفقه الإنسان في سبيل البر والإحسان. وقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴾[1].

وإنك إذا تأملت في حكمة قراءة الفاتحة تبصر نوراً كما تبصر ضياء القمر في ليلة التمام. وضوء الشمس في رابعة النهار.

فالبداءة بالبسملة إشارة إلى أنه يستعين باسم من يؤدى له هذا الفرض وعلى كل شيء فعله يرضيه ويقرب من رحمته ويبعد من عذابه ثم يحمد الله الذي وفقه لأداء هذه الفريضة والذي هو رب كل مخلوق في هذا الوجود والمنعم بدقائق النعم وجلائلها. وحيث أنه سبحانه وتعالى رب الدنيا والآخرة ومالك يوم الجزاء الذي لا ينفع فيه والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً. إذا كان الأمر كذلك فلا نعبد إلا إياه ولا نشرك به شيئاً. نستعين به في كل الأمور لأن الحول والطول والقوة بيده جل جلاله وعظم سلطانه.

وحيث أن الأمر كما علمت وأن الهدى هداه. وأن من ضلّ لا هادي له سواه فنسأله أن

---

(١) (٧٠) المعارج: ١٩ ـ ٢٢.

ينعم علينا بالهدى إلى الصراط المستقيم الذي لا عوج فيه لأنه الصراط الذي ينعم به على من لم يغضب عليهم ولم يكونوا من الضالين. ونسأله أيضاً أن يستجيب دعاءنا.

وقد ورد عن النبي ﷺ عن الله سبحانه وتعالى أنه قال: «**قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين. فإذا قال العبد الحمد لله رب العالمين يقول الله حمدني عبدي. وإذا قال الرحمن الرحيم. قال الله تعالى مجدني عبدي. وإذا قال مالك يوم الدين. قال الله تعالى أثنى عليّ عبدي. وإذا قال إياك نعبد وإياك نستعين. قال الله تعالى هذا بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل**» وقد ورد في البدائع ما يأتي:

فرضية الصلاة ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع والمعقول. أما الكتاب فقوله تعالى في غير موضع من القرآن: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[1] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾[2] أي فرضاً مؤقتاً وقوله تعالى: ﴿حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾[3] ومطلق اسم الصلاة ينصرف إلى الصلوات المعهودة وهي التي تؤدى في كل يوم وليلة وقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾[4] الآية هذه تجمع الصلوات الخمس. لأن صلاة الفجر تؤدي في أحد طرفي النهار وصلاة الظهر والعصر يؤديان في الطرف الآخر. إذ النهار قسمان غداة وعشي. والغداة إسم لأول النهار إلى وقت الزوال وما بعدها العشي. حتى أن من حلف لا يأكل في العشي فأكل بعد الزوال يحنث. فدخل في طرفي النهار ثلاث صلوات. ودخل في قوله: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾[5] المغرب والعشاء لأنهما يؤديان في زلف من الليل وهي ساعاته وقوله: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾[6] قيل دلوك الشمس: زوالها وغسق الليل أو ظلمته، فيدخل فيه صلاة الظهر والعصر وقوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾[7] أي وأقم قرآن الفجر وهو صلاة الفجر فثبتت فرضية ثلاث صلوات بهذه الآية. وفرضية صلاة المغرب والعشاء ثبتت بدليل آخر. وقيل دلوك الشمس غروبها. فيدخل فيه صلاة المغرب والعشاء وتدخل صلاة الفجر في قوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾[8] وفرضية صلاة

---

(١) (٢) البقرة: ٤٣.
(٢) (٤) النساء: ١٠٣.
(٣) (٢) البقرة: ٢٣٨.
(٤) (١١) هود: ١١٤.
(٥) (١١) هود: ١١٤.
(٦) (١٧) الإسراء: ٧٨.
(٧) (١٧) الإسراء: ٧٨.
(٨) (١٧) الإسراء: ٧٨.

الظهر والعصر ثبتت بدليل آخر. وقوله تعالى: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾(١).

روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: حين تمسون المغرب والعشاء وحين تصبحون الفجر. وعشياً العصر. وحين تظهرون الظهر. ذكر التسبيح وأراد به الصلاة. أي صلوا لله. أما لأن التسبيح من لوازم الصلاة أو لأنه تنزيه. والصلاة من أولها إلى آخرها تنزيه الرب عز وجل لما فيها من إظهار الحاجات إليه وإظهار العجز والضعف. وفيه وصف الجلال والعظمة والرفعة والتعالي عن الحاجة، قال الشيخ أبو منصور الماتريدي السمرقندي: إنهم فهموا من هذه الآية فرضية الصلوات الخمس ولو كانت أفهامهم مثل أفهام أهل زماننا لما فهموا منها سوى التسبيح المذكور: وقوله تعالى: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآىِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ ﴾(٢) قيل في تأويله: فسبح أي فصل قبل طلوع الشمس هو صلاة الصبح. وقبل غروبها هو صلاة الظهر والعصر. ﴿ وَمِنْ ءَانَآىِٕ ٱلَّيْلِ ﴾(٣) صلاة المغرب والعشاء. وقوله: وأطراف النهار على التكرار والإعادة تأكيداً كما في قوله تعالى: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾(٤)

إن ذكر الصلاة الوسطى على التأكيد لدخولها تحت إسم الصلوات كذا هنا. وقوله تعالى: ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ ﴾(٥) وقيل الذكر والتسبيح ها هنا هي الصلاة. وقيل الذكر سائر الأذكار. والتسبيح الصلاة. وقوله: بالغدو صلاة الغداة. وقيل الآصال: هو صلاة العصر. ويحتمل العصر والظهر لأنهما يؤديان في الأصيل وهو العشي. وفرضية المغرب والعشاء عرفت بدليل آخر.

أما السنة فما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال عام حجة الوداع: «**اعبدوا ربكم وصلوا خمسكم وصوموا شهركم وحجوا بيت ربكم وأدّوا زكاة أموالكم طيبة بها أنفسكم تدخلوا**

---

(١) (٣٠) الروم: ١٧ ـ ١٨.
(٢) (٢٠) طه: ١٣٠.
(٣) (٢٠) طه: ١٣٠.
(٤) (٢) البقرة: ٢٣٨.
(٥) (٢٤) النور: ٣٦.

جنة ربكم» وروي عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن الله تعالى فرض على عباده المؤمنين كل يوم وليلة خمس صلوات**» وعن عبادة أيضاً رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**خمس صلوات كتبهن الله تعالى على العباد فمن أتى بهن ولم يضيع من حقهن شيئاً استخفافاً بحقهن فإن له عهداً إن شاء عذبه وإن شاء أدخله الجنة**».

وأما الإجماع فعليه إجماع الأمة فإن الأمة أجمعت على فرضية هذه الصلوات.

وأما المعقول فمن وجوه. أحدها أن هذه الصلوات إنما وجبت شكراً للنعمة منها نعمة الخلقة حيث فضل الجوهر الأنسي بالتصوير إلى أحسن صورة وأحسن تقويم. كما قال الله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾[1] وقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾[2] حتى لا ترى أحداً يتمنى أن يكون على غير هذا التقويم والصورة التي أنشيء عليها ومنها نعمة سلامة الجوارح عن الآفات. إذ بها يقدر على إقامة مصالحه. أعطاه الله ذلك كله إنعاماً محضاً من غير أن يسبق منه ما يوجب استحقاق شيء من ذلك. فأمر باستعمال هذه النعمة في خدمة المنعم شكراً لما أنعم. إذ شكر النعمة استعمالها في خدمة المنعم.

ثم إن الصلاة تجمع استعمال جميع الجوارح الظاهرة من القيام والركوع والسجود والقعود ووضع اليد مواضعها وحفظ العين. وكذا الجوارح الباطنة من شغل القلب بالنية وإشعاره بالخوف والرجاء وإحضار الذهن والعقل بالتعظيم والتبجيل ليكون عمل كل عضو شكراً لما أنعم عليه في ذلك، ومنها نعمة المفاصل اللينة والجوارح المنقادة التي بها يقدر على استعمالها في الأحوال المختلفة من القيام والقعود والركوع والسجود، والصلاة تشتمل على هذه الأحوال، فأمرنا باستعمال هذه النعم الخاصة في هذه الأحوال في خدمة المنعم شكراً لهذه النعمة وشكر النعمة فرض عقلاً وشرعاً، ومنها أن الصلاة وكل عبادة خدمة الرب جل جلاله وخدمة المولى على العبد لا تكون إلا فرضاً إذ التبرع من العبد على مولاه محال.

والعزيمة هي شغل جميع الأوقات بالعبادات بقدر الإمكان وانتفاء الحرج إلا أن الله تعالى بفضله وكرمه جعل لعبده أن يترك الخدمة في بعض الأوقات رخصة، حتى لو شرع لم

---

(١) (٤٠) غافر: ٦٤.
(٢) (٩٥) التين: ٤.

يكن له الترك لأنه إذا شرع فقد اختار العزيمة وترك الرخصة فيعود حكم العزيمة يحقق ما ذكرنا أن العبد لا بد له من إظهار سمة العبودية ليخالف به من استعصى مولاه وأظهر الترفع عن العبادة، وفي الصلاة إظهار سمة العبودية لما فيها من القيام بين يدي المولى جل جلاله وتحنية الظهر له وتعفير الوجه بالأرض والحنو على الركبتين والثناء عليه والمدح له:

ومنها أنها مانعة للمصلي عن ارتكاب المعاصي لأنه إذا قام بين يدي ربه خاشعاً متذللاً مستشعراً هيبة الرب جل جلاله خائفاً تقصيره في عبادته كل يوم خمس مرات عصمه ذلك عن اقتحام المعاصي، والامتناع عن المعصية فرض، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[2].

ومنها أنها جعلت مكفرة للذنوب والخطايا والذلات والتقصير. إذا العبد في أوقات ليله ونهاره لا يخلو عن ذنب أو خطأ أو زلة أو تقصير في العبادة: والقيام بشكر النعمة وإن جلَّ قدره وخطره عند الله تعالى هو قليل إذ قد سبق إليه من الله تعالى من النعم والإحسان ما لو أخذ بشكر ذلك لم يقدر على أداء شكر واحدة منها فضلاً عن أن يؤدي شكر الكل فيحتاج إلى تكفير ذلك إذ هو فرض ففرضت الصلوات الخمس تكفيراً لذلك: اهـ.

وأنت ترى في رسالة الصلاة للرئيس ابن سينا أنه قسم الصلاة إلى قسمين قسم ظاهري رياضي مؤلف من الهيئات والأركان كالقراءة والركوع والسجود، وقسم باطني وهو مشاهدة الحق بالقلب الصافي المطهر والنفس المجردة عن الماديات وقد قال ابن سينا ما يأتي:

إن القسم الظاهري الرياضي المربوط بحركة الأشخاص في الهيئات المعدودة والأركان المحصورة تضرع واشتياق وحنين من هذا الجسم الجزئي المركب المحدود السفلي إلى فلك القمر المتصرف بعقله الفعال في عالمنا هذا أعني عالم الكون والفساد.

ومناجاة بلسان البشرية معه فإنه مربي الموجودات المتصرف في المخلوقات واستعاذة به وسؤالاً منه أن يحفظ العقل الفعال ويراعي نظام الشخص المتضرع المصلي بتعبده وتشبهه ليبقى مصوناً محروساً مدة بقائه في هذا العالم عن آفات الزمان.

---

(١) (١١) هود: ١١٤.

(٢) (٢٩) العنكبوت: ٤٥.

والقسم الباطني الحقيقي المفرد عن الهيئات المجرد عن التغيرات تضرع إلى ربه بالنفس الناطقة العالمة العارفة بوحدانية الإله الحق من غير إشارة بجهة ولا اختلاط ببدن، واستدعاء من الوجود المطلق تكميل النفس بمشاهدته وإتمام السعادة بمعرفته وعلمه.

والأمر العقلي والفيض القدسي ينزل من سماء القضاء إلى حيز النفس الناطقة بهذه الصلاة ويكلف بهذا التعبد من غير تعب بدني ولا تكليف إنساني، ومن صلى هكذا فقد نحا من قواه الحيوانية وآثاره الطبيعية، وارتقى إلى المدارج العقلية وطالع المضمونات الأزلية، وإلى هذا أشار عز وجل حيث قال: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[1].

هذا بعض ما في الصلاة من الحكم الجليلة التي أودعها الشارع الحكيم جل جلاله:

حكمة هيئة الصلاة

إن سنة الطبيعة وحكم العادة في النوع البشري قضيا بأن الإنسان إذا وقف أمام من هو فوقه منزلة يقف ساكن الجوارح لا يحركها إلا إذا كانت الحركة يقتضيها المقام ولا تخرج بصاحبها عن حد الأدب. وإذا كان الأمر كذلك مع المخلوق فكيف يكون الأمر والحال إذا وقف بين يدي الخالق العظيم الأعظم؟ لا شك في أنه يكون أعظم تأدباً وأكثر خشوعاً. مضيفاً إلى ذلك استحضار القلب وصرفه عن كل ما سوى مولاه الواقف أمامه ليكون الأدب كاملاً من كل الوجوه.

يقف الإنسان أمام ربه بهذه الصورة ثم يشرع في الصلاة وقد ذكرنا الحكمة في ابتدائه بأم الكتاب التي لو أردنا شرح بعض معانيها شرحاً وافياً لملأنا صحفاً تنوء بالعصبة أولي القوة ولم نبلغ المدى.

وبما أن السرة في النقطة المتوسطة من الجسم بين النصف الأعلى والنصف الأسفل فعند الصلاة يضع الإنسان يديه تحتها اليمنى فوق اليسرى لشرف الأولى. والحكمة في ذلك كي تمتنع من الاجتذاب إلى العالم العلوي. وهو مستودع أسرار السموات لأنها في هذه الحالة تشتاق إلى الصعود إلى تلك الأنوار الربانية ومنعها أيضاً عن الاجتذاب إلى العالم السفلي وهو مستودع أسرار الأرض. وإيقافها بين هذين المستودعين وبهذه الحالة يتم اطمئنانها وصفات كمالها.

---

(١) (٢٩) العنكبوت: ٤٥.

ولما كان العنق هو الجارحة التي تدل على صفة الكمال والعجب والخيلاء. فالإنسان يطأطئه إظهاراً للخضوع واحتراماً لمولاه الذي هو أولى بذلك من كل من تطأطأ له الرؤوس وتخضع لهم الرقاب.

وإن في وضع الوجه على الأرض حكمة بالغة لأنه أشرف أعضاء الإنسان وهو مشتق من الوجاهة. وبوضعه على الأرض يظهر المرء ذلّه وخضوعه إلى مولاه ويصرف قلبه عن الوجاهة الدنيوية ليكون عند الله وجيهاً. إذ التذلل إليه عزة والخضوع له شرف وفخار. وفيه معنى لإرغام الأنف التي هي مقر الكبر والعظمة بوضعها على الرغام إذلالاً لها. لأن الرغام وهو التراب أخس شيء. فكأن الإنسان يقول. إني يا رب وضعت أشرف عضو من جسمي وهو الوجه على أخس شيء وأنا واقف بين يديك لعلمي أنك رب الأرباب وكل ما سواك عبد لك ذليل لعزتك طالب لرحمتك خاضع لسلطانك.

وأن في السجود حكمة بالغة. وهي أن الإنسان إذا داوم على السجود في الصلوات الخمس كان دائماً قريباً من ربه الذي يقول: ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾[1] وإذا كان الإنسان باقترابه من العظماء وأصحاب الجاه يكتسب رفعة شأن وعظم جاه فكيف يكون جاهه ورفعة قدره لو اقترب من خالقه ورازقه؟ وبهذا تكون النفس عالية نزيهة عن أن تأتي الصغائر من الذنوب فضلاً عن الكبائر ولا تدنس بدنس الذنوب لأن تدنيسها يسبب بعدها من الله جل جلاله وعظم سلطانه.

وحيث إن أعظم المنازل وأشرف المراتب وأجل النعم هو القرب من الله كان الواجب على الإنسان أن لا يدخر وسعاً في تنظيف نفسه من درن الذنوب والشبهات. وأن يقف عند حد الجهد في ذلك حتى إذا نظف نفسه وكان هذا التنظيف قليلاً من الكمال عدّ فعله هذا ذنباً لأنه بخل بأداء الواجب عليه كله نحو ربه. ولأن الإنسان جل قصده أن يكون من المقربين. وأنت تعلم منزلة المقربين من الله من الرفعة وعلو القدر.

ومما ورد في السجود قوله ﷺ: «**ما من مسلم يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة وحطّ عنه بها سيئة**» ويروى أن رجلاً قال للنبي ﷺ: ادع لي أن يجعلني من أهل شفاعتك وأن يرزقني مرافقتك في الجنة: فقال له عليه السلام: «**أعني بكثرة السجود**».

ولما كان هذا السجود بهذه المنزلة من الفضل وكان فضل الساجدين هذا خصهم الله

---

(١) (٩٦) العلق: ١٩.

بالثناء عليهم في قوله: ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾[١] وكان يوسف بن أسباط رضي الله عنه يقول: يا معشر الشباب بادروا بالصحة قبل المرض فما بقي أحد أحسده إلا رجل يتم ركوعه وسجوده وقد حيل بيني وبين ذلك: وقال سعيد بن جبير رضي الله عنه: ما أسفي على شيء من الدنيا إلا على السجود: ويروى أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كان لا يسجد إلا على التراب مباشرة غالب أوقاته.

ولما كان النبي هو الواسطة العظمى بين العبد وربه ناسب أن يصلى عليه بعد التشهد رجاء أن يرد عليه التحية بأحسن منها. وحيث أن تبادل التحية باعث على توثيق الائتلاف والمحبة بين الناس فهو يطلب التقرب والتودد من أشرف الخلق وأفضلهم وهذا من مصائد الشرف، وأن الصلاة عليه بمثابة شكر للجميل الذي وصل إليه من الواسطة. وهذا الجميل هو نعمة الإسلام والتقرب من الله جل جلاله وعظم سلطانه.

ولا تكن أيها المسلم كمن تقرب إلى سلطان بكبير عنده فإذا تم له المراد نسي معروف ذلك الكبير. وإن في الصلاة على سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام حكمة بالغة. لأنه سأل الله سبحانه وتعالى أن يبعث هذا الواسطة وهو النبي الكريم كما جاء في الآية الشريفة:

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾[٢].

ويما أن الله سبحانه وتعالى يذكر الإنسان المصلي الساجد لملائكته ويثني عليه يكون هذا داعياً لاشتياقهم لرؤيته وزيارته. والسبب في ذكره تعالى بالثناء عليه كون الإنسان يذكره في صلاته والله يقول في محكم كتابه: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾[٣]. فالمرء عند فراغه من الصلاة يسلم عليهم. يبدأ بمن على يمينه لأن ملائكة اليمين أفضل من ملائكة الشمال. ولأن الأدب يقضي بإكرام الزائرين فما بالك إذا كانوا من الملائكة المقربين المطهرين. وكانت الزيارة لهذا الأمر الشريف؟. جعلنا الله وإياك من المصلين الراكعين الساجدين المحبوبين المقربين. وجعلنا داخلين في شفاعة سيد المرسلين. عليه الصلاة وأتم التسليم.

---

(١) (٤٨) الفتح: ٢٩.
(٢) (٢) البقرة: ١٢٩.
(٣) (٢) البقرة: ١٥٢.

حكمة الخشوع في الصلاة

إن النفس الأمارة بالسوء والمطبوعة على الميل إلى الشر كالسائمة الجموح التي لا تنقاد إلا بوسائل الشدة وكبح جماحها حتى تصير سائمة ذلولاً تنقاد إلى حيث يريد صاحبها الذي لا يريد لها إلا كل خير والمرعى الخصيب. فلو عقلت هذه السائمة وفقهت مراد الرعي لانقادت إليه وألقت بين يديه زمامها طائعة خاضعة. ولكن الجموح عادة من عاداتها. فخضوعها هو السبب الوحيد لسعادتها. ولذا كان الخشوع في الصلاة سبب قبولها. وفي قبولها سعادة الإنسان. تلك السعادة الأبدية التي لا تقوّم بثمن ولا يقدر الإنسان على أداء واجب الشكر لمن أنعم عليه. ولكن مع هذا التمثيل نقول.

إن السائمة تخضع للراعي خضوعاً جسمياً وتنقاد لقوته وبطشه والجموح كامن في نفسها. وأما الخضوع من الإنسان في الصلاة هو أن يكون القلب مطمئناً صافياً من كدورات الأغيار متوجهاً بكليته إلى الله عز وجل. ناظراً بعين قلبه إلى عظمة الخالق وجلاله حتى كأنه يراه بعيني رأسه. كما ورد في الحديث الشريف الذي رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي أوله: (**بينما نحن جلوس الحديث**) ومرادنا منه جواب النبي ﷺ لما سأله جبريل عليه السلام عن الإحسان فقال له: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

ومن هنا تعلم أن الخشوع في الصلاة واستحضار القلب مع سكون الجوارح هو الإيمان الكامل. وإليك بعض ما ورد في الخشوع واطمئنان القلب عند الدخول في الصلاة.

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾[1] وقال جل شأنه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ۝١٤﴾[2] وقال: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٢٠٥﴾[3] وقالت السيدة عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه اشتغالاً بعظمة الله عز وجل: وقال النبي ﷺ: «**لا ينظر الله إلى صلاة لا يحضر الرجل فيها قلبه مع بدنه**» وكان سيدنا إبراهيم الخليل إذا قام إلى الصلاة يسمع وجيب قلبه على ميلين. وكان علي بن أبي طالب كرم الله وجهه إذا حضر وقت الصلاة يتزلزل ويتلون وجهه. فقيل له: مالك يا أمير المؤمنين؟ فيقول: جاء وقت أمانة عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملتها.

---

(١) (٨٤) الإنشقاق: ٦.　(٢) (٢٠) طه: ١٤.　(٣) (٧) الأعراف: ٢٠٥.

ويروى عن علي بن الحسين رضي الله عنه أنه كان إذا توضأ اصفر لونه. فيقال له: ما هذا الذي يعتريك عند الوضوء؟ فيقول: أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم: وكان سعيد التنوخي رضي الله عنه إذا صلى لم تنقطع الدموع عن خديه ولحيته. ورأى رسول الله ﷺ رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة فقال: «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه» ويروى عن حاتم الأصم رضي الله عنه أنه سئل عن الصلاة فقال: إذا حانت الصلاة أسبغت الوضوء وأتيت الموضع الذي أريد الصلاة فيه فأقعد حتى تجتمع جوارحي ثم أقوم إلى الصلاة وأجعل الكعبة بين حاجبيّ والصراط تحت قدمي والجنة عن يميني والنار عن شمالي وملك الموت ورائي وأظنها آخر صلاة ثم أقوم بين الرجاء والخوف وأكبر تكبيراً بتحقيق وأقر قراءة بترتيل وأركع ركوعاً بتواضع وأسجد سجوداً بتخشع وأقعد على الورك الأيسر وأفرش ظهر قدمها وأنصب القدم اليمنى على الإبهام وأتبعها الإخلاص ثم لا أدري أقبلت مني أم لا. وقال ابن عباس رضي الله عنه: ركعتان مقتصدتان في تفكير خير من قيام ليلة والقلب ساه.

هذه هي الحكم في الخشوع عند أداء هذه الفريضة التي هي مفتاح باب الرحمة والسعادة الأبدية. جعلنا الله وإياك من أهل الخشوع لعزته والخضوع لعظمته. ومن أهل جنته.

حكمة جعل الصلاة
في هذه الأوقات المعلومة

إعلم وفقك الله إلى صالح الأعمال أن الله سبحانه وتعالى لما عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال وأبين أن يحملنها وحملها الإنسان اقتضت حكمته تعالى أن يخفف عن الإنسان الضعيف من عبئها ولم يكلفه بأداء الصلوات الخمس التي هي جزء من الأمانة في وقت واحد أو في أوقات متقاربة لما في هذا من المشقة وهي حكمة بالغة وإليك البيان.

يهب الإنسان من نومه مبكراً وقد أخذ قسطاً من الراحة بالنوم وأمضى الليل الذي لا شغل فيه يباشره لمعاشه كما قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ ﴾[1] والوقت الذي يصحو فيه الإنسان من نومه هو أجمل الأوقات وهو الفجر

(١) (٧٨) النبإ: ١٠ ـ ١١.

، الذي أقسم به الباري بقوله: ﴿وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝﴾ ففي هذا الوقت يكون الليل قد آذن بالذهاب وكوكب الصبح قد آذن بظهوره من وراء الحجاب. فيصير الجو صافياً والهواء نقياً والكون وقد ساد عليه السكون. والأرض وما أقلت والسماء وما أظلت في أبهى مناظر الجمال. والنفس مطمئنة والروح صافية والقلب خال من الشواغل فإذا ما صحا الإنسان على هذه الكيفية وشرع في العمل والشغل جعل فاتحة عمله أداء الواجب عليه نحو رازقه وخالقه. وأيضاً أن الإنسان إذا نام تخدرت أعضاء جسمه وفقد الحواس. ولهذا سمي النوم الموت الأصغر. وفي هذه الحالة يكون الإنسان معرضاً للهوام والأخطار ولم يكن له من حارس إلا العناية الربانية التي تحرسه من كل ما يؤذيه. وهذه نعمة كبرى ومنة عظمى يعجز الإنسان عن أداء شكرها. فكانت صلاة الصبح بمنزلة شكر لله تعالى على هذه النعمة التي لا تقدر بثمن.

ثم بعد ذلك يشرع في الكد والكدح وطرق أبواب الرزق مدة تتراوح بين ست أو سبع ساعات. ويكون قد استجمع مقداراً من الرزق فيؤدّي صلاة الظهر شكراً لرازقه الذي أنعم عليه بهذه النعمة. بعد ذلك يشرع في العمل باشتغاله فيما يهمه إلى وقت العصر وهو الذي تكون الشمس فيه قد مالت للغروب ويكون الإنسان قد حصل على رزق يومه فيؤدّي صلاة العصر قياماً بشكر الباري الذي ساق إليه هذا الرزق. ثم يشرع في العمل حتى يأتي وقت المغرب، وهو الوقت الذي يكون فيه الإنسان قد استكمل كل رزقه فيؤدّي صلاة المغرب شكراً لله الذي وفّقه لإتمام نهاره في طاعته ووفقه للحصول على رزقه ثم يشرع في تناول الغذاء مع الراحة بعده إلى أن يجيء وقت العشاء فيؤدّي صلاتها شكراً لله على نعمة الصحة ونعمة هذا الغذاء الذي حصل عليه في عامة يومه.

ويلاحظ أن المدة لما كانت طويلة بين الصبح والظهر وقد يجوز أن تنسيه خالقه ورازقه سنّ الشارع صلاة الضحى لعظمه. وقد أقسم الله به بقوله: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝﴾.

هذه هي الحكم الباهرة في تفريق أوقات الصلاة على هذه الصورة. وفقنا الله وإياك إلى شكر نعمه، وهدانا إلى طريق رضاه بمنه وكرمه.

---

(١) (٨٩) الفجر: ١ ـ ٢.

(٢) (٩٣) الضحى: ١ ـ ٢.

حكمة القراءة الجهرية والسرية في الصلاة

بينا في موضع آخر حكمة قراءة الفاتحة في الصلاة ومجمل ذلك أن الإنسان يحمد ويشكر مولاه ويمجده ويقدسه. ولما كانت الآذان تتلذذ بسماع كلام الله لحلاوة معناه وعذوبة لفظه وجمال أسلوبه وترتيبه. ولما كان النهار مظنة الضوضاء والأصوات التي تؤلم الآذان جعلت القراءة في صلاة النهار سرية. حتى لا يمتزج صوت تلاوة القرآن اللذيذ المعنى واللفظ بتلك الأصوات والألفاظ البشرية. فيمتنع التأثير القلبي المطلوب.

ولما كان الليل مظنة الهدوء والسكون أوجب الشارع الجهر في صلاته لعدم امتزاج أي صوت وأي كلام بكلام الله عز وجل فيكون الصوت في هذه الحالة حلواً لذيذاً مؤثراً التأثير المطلوب للقلب.

وبما أن الإنسان لا يميل بطبعه إلى الكثرة في كل شيء حبب الشارع إلينا الإطالة في صلاة الليل ليكون الإنس وافراً والحبور عظيماً واللذة كاملة بالقرب من رب العالمين. ذلك القرب الذي أوضحنا معناه في غير هذا الموضع.

ولما كان رسول الله ﷺ يطيل في صلاة الليل، ويقرأ فيها كثيراً كان أبو بكر رضي الله عنه يطيل في صلاة الليل ويقرأ فيها البقرة وعمر بن الخطاب رضي الله عنه يقرأ النحل وهود ويونس وبني إسرائيل ونحوها من السور التي تقاربها.

وإن الشارع الحكيم قد حبب إلينا أن نقوم الليل ونقضي زلفاً منه في التهجد والعبادة للحكمة المتقدمة. وهي اللذة بالقرب من الخالق جل جلاله. وذكر في البدائع ما يأتي:

ويجهر (أي الإمام) ليتأمل القوم ويتفكروا في ذلك فتحصل ثمرة القراءة وفائدتها للقوم فتصير قراءة الإمام قراءة لهم تقديراً كأنهم قرأوا. وثمرة الجهر تفوت في صلاة النهار. لأن الناس في الأغلب يحضرون الجماعات في خلال الكسب والتصرف والانتشار في الأرض فكانت قلوبهم متعلقة بذلك فيشغلهم ذلك عن حقيقة التأمل فلا يكون الجهر مفيداً بل يقع سبباً إلى الإثم بترك التأمل وهذا لا يجوز. بخلاف صلاة الليل لأن الحضور إليها لا يكون في خلال الشغل. وبخلاف الجمعة والعيدين لأنهما يؤدّيان في الأحايين مرة على هيئة مخصوصة من الجمع العظيم وحضور السلطان وغير ذلك فيكون ذلك مبعثة على إحضار القلب والتأمل. ولأن القراءة من أركان الصلاة والأركان في الفرائض تؤدى على

سبيل الشهرة دون الخفاء. ولذا كان النبي ﷺ يجهر في الصلوات كلها في الابتداء إلى أن قصد الكفار أن لا يسمعوا القرآن وكادوا يلغون فيه فخافت النبي ﷺ بالقراءة في الظهر والعصر لأنهم كانوا مستعدين للأذى في هذين الوقتين ولهذا كان يجهر في الجمعة والعيدين لأنه أقامهما بالمدينة المنورة بعد الهجرة، وما كان للكفار والمشركين بالمدينة قوة الأذى، ثم وإن زال هذا العذر بقيت هذه السنة كالرّمل في الطواف ونحوه: اهـ.

فسبحان من أودع في كل شيء حكمة بالغة وتبارك الله أحسن الخالقين.

حكمة عدم جواز القراءة
بغير اللغة العربية في الصلاة

الحكمة في ذلك راجعة إلى الاتعاظ المرغوب فيه الذي يحصل من تلاوة كلام رب العالمين باللفظ العربي المبين. لأن القرآن الشريف يتضمن شيئاً كثيراً من العبر والمواعظ والترغيب والترهيب والثناء والتعظيم. وكل هذه الأمور تظهر جلية للإمام والمأموم. إذا كانت القراءة باللفظ العربي المبين. أما إذا كان الإنسان عاجزاً عن القراءة بالعربية فله حكم آخر، وقد جوزوا له ذلك للضرورة. وقد ورد في هذا الموضوع ما يأتي:

قال أبو يوسف ومحمد إن كان يحسن القراءة باللغة العربية لا تجوز صلاته بغيرها وإن كان لا يحسن تجوز، وقال الشافعي لا يجوز أحسن أو لم يحسن. وإذا لم يحسن العربية عنده يسبح ويهلل ولا يقرأ بالفارسية وأصله قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾[1] فلا يكون الفارسي قرآناً فلا يخرج به من عهدة الأمر. ولأنّ القرآن معجز والإعجاز من حيث اللفظ يزول بزوال النظم العربي فلا يكون الفارسي قرآناً لعدم الإعجاز. ولهذا لم تحرم قراءته على الجنب والحائض. إلا أنه إذا لم يحسن العربية فقد عجز عن مراعاة لفظه فيجب عليه مراعاة معناه ليكون التكليف بحسب الإمكان. وعند الشافعي هذا ليس بقرآن فلا يأمر بقراءته.

وأبو حنيفة رضي الله عنه يقول: إن الواجب في الصلاة قراءة القرآن من حيث هو لفظ دال على كلام الله تعالى الذي هو صفة قائمة به لما يتضمن من العبر والمواعظ والترغيب والترهيب والثناء والتعظيم لا من حيث هو لفظ عربي.

---

(١) (١٢) يوسف: ٢.

ومعنى الدلالة عليه لا يختلف بين لفظ ولفظ قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾[١] وقال جل شأنه: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾[٢] ومعلوم أنه ما كان في كتبهم بهذا اللفظ بل بهذا المعنى فإفهم هذا وقل رب زدني علماً.

حكمة تعدد الركعات في الصلاة

إعلم أن الله سبحانه وتعالى حكيم لم يفرض علينا أداء الصلاة بهذه الصفات المخصوصة عبثاً وإنما له في ذلك حكمة بالغة عجز بعض الأفهام عن إدراكها حتى أن بعضهم قال إنها أحكام تعبدية أمرنا الله بأدائها على هذا الوجه المخصوص وليس للإنسان أن يسأل عن السر في فرضها على هذه الصفة. ولكن لا يخفى على من أوتي شيئاً من العلم والحكمة وصفاء البصيرة أن الشارع الحكيم أشبه شيء بالطبيب الذي يعطي الدواء للمريض على حسب ما تقتضيه حالته، وأن النفس أشبه شيء بالمريض الذي يحتاج للدواء بصفة مخصوصة وكيفية مخصوصة. وقد قلنا في غير هذا الموضع إن الغرض الوحيد من التكاليف التي أمرنا بها هو لأجل سعادة الإنسان دنياً وآخرة ولأجل أن يقرب العبد من الله سبحانه وتعالى. وقلنا إن الدين يسر لا عسر.

فالشارع الحكيم فرض ركعتين في الصبح وأربعاً في الظهر ومثلها في العصر وثلاثاً في المغرب وأربعاً في العشاء وجعل هذا الترتيب بهذا التفاوت ليكون المرء قريباً من الله بحيث لم يرهقه من أمره عسراً بزيادة الركعات على هذا المقدار. ومعلوم أن المرء إذا أدّى الصلاة بهذه الصورة لم يجد تعباً في العبادة ولم تفته مصلحته المعاشية.

أنظر إلى البستاني الخبير بفن الزراعة تجده يعطي كل غرس المقدار اللازم له من السقيا إذا زاد على الحاجة أو نقص عنها فسد الزرع وضاع ثمره الذي يبتغيه. فكذلك الله سبحانه وتعالى علم أن تقدير الركعات بهذه الكيفية كاف لإعطاء النفس قسطها من القرب إليه وتمكين الإيمان في قلبه. وليس لنا بعد هذا البيان أن نسأل عن شيء آخر. لأن ذلك يدخل بالإنسان إلى مضايق لا طاقة له بها والله يقول: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا

---

(١) (٢٦) الشعراء: ١٩٦.

(٢) (٨٧) الأعلى: ١٨ ـ ١٩.

﴿ قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨٥] كما أن المريض ليس له أن يسأل الطبيب أو أن يعارضه في إعطائه الدواء النافع بالصورة التي اختارها وقدّرها على حسب أصول فن الطب.

هذا وقد قيل في هذا الموضوع ما معناه: إن الشارع الحكيم فرض الصبح ركعتين لأن في هذا الوقت لم يكن نشطاً فيكفيه ركعتان وفي الظهر أربع لأنه في هذا الوقت يكون قد ذهب عنه الكسل. وكذلك الأمر في العصر وفرض ثلاثاً في صلاة المغرب لأنها وتر النهار كما ورد في الحديث الشريف. ولما كان المرء في العشاء خالياً من الأعمال والأشغال عادة فرض عليه أربعاً.

وعلى هذا أو ذاك فإن الشارع حكيم كما قلنا في تعدد الركعات. ولو لم يكن هناك مصلحة وفائدة للإنسان لما فرضها بهذه الكيفية. هدانا الله وإياك إلى معرفة هذه الحكم البالغة.

الحكمة في صلاة النافلة

إعلم هدانا الله وإياك إلى الصراط السوي أنه لا شيء في الدنيا أعذب وأحلى لدى العبد من مناجاة مولاه والوقوف بين يديه والقرب منه. ذلك القرب الذي بينا حقيقته في موضع آخر. وإننا الآن نبين لك الحكمة في صلاة النافلة القبلية والبعدية بحسب ما اهتدى إليه العقل ووقفنا عليه في مظانه والله أعلم وفوق كل ذي علم عليم.

إن الإنسان إذا داوم على الأكل من طعام واحد يملّ منه وإن كان لذاته لذيذاً. أما إذا انتقل منه إلى غيره وجد فيه القابلية إلى تناوله من غير ملل. وهذا أمر يكاد يكون طبيعياً في الإنسان من أجل ذلك سنّ الشارع الحكيم صلاة النافلة قبل الفرض وبعده للانتقال من فرض محتم عليه أداؤه إلى سنة غير مفروضة ليكون ذلك داعياً إلى أداء الفرض بارتياح نفس وانشراح صدر بغير ضجر ولا ملل.

وهناك حكمة أخرى وهي: إن صلاة الفرض المحتم على الإنسان أداؤه يجب أن يكون القلب فيه كالمرآة التي تطبع فيها صورة المرئيات بصورتها الطبيعية. فصلاة النافلة قبل أداء صلاة الفرض هي بمثابة صقل للقلب حتى يؤدي الفرض والقلب قد زالت عنه بصلاة النافلة أدران وأوساخ الوساوس وكل ما يشغله من أمور الدنيا ويكون منصرفاً بكليته إلى مناجاة مولاه خالي القلب عن كل ما سواه.

وأما صلاة النافلة البعدية فهي: إن الإنسان إذا صقل قلبه بصلاة النافلة القبلية للدخول في صلاة الفرض حتى يؤديها على الوجه المطلوب ثم يقوم إلى صلاة الفرض حصلت هناك لذة للقلب وانشراح للنفس. ولأجل أن يتمتع بهذه اللذة وهذا الانشراح سنت صلاة النافلة البعدية حتى لا تنقطع عنه تلك الرحمات الإلهية وذلك الانشراح القلبي.

وهناك حكمة أخرى وهي: أنه ربما حصل نقص في أركان الصلاة الفرضية ولم يدر به المصلي. فصلاة النافلة البعدية تكون متممة لما نقص من صلاة الفرض وأيضاً أن الصلاة تقرب الإنسان من مولاه. وقد بينا معنى القرب فيما تقدم. ولما كان الإنسان يعد أحسن الساعات وأيمن الأوقات قربه ممن يحبه ويميل إليه سنّ الشارع الحكيم صلاة النافلة ليكون الإنسان دائماً قريباً من ربه متلذذاً بمناجاته.

هذه هي الحكم الجليلة في صلاة النافلة القبلية والبعدية قد عرفتها بأجلى وضوح فداوم عليها لتكون من المقربين الفائزين.

الحكمة في أن الصلاة تكره في بعض الأوقات

ورد أن المشركين كانوا يؤدون لمعبوداتهم الصلاة في هذه الأوقات التي تكره فيها الصلاة فالشارع الحكيم أراد أن يؤدب نفوسنا ويزيد في كمالها بعدم تشبهها بأهل الشرك في عباداتهم. حتى يكره للإنسان أن يصلي وأمامه صورة مجسمة فراراً من الفتنة والتشبه بالوثنيين.

ولرب قائل يقول لماذا كرهت الصلاة في هذه الأوقات المخصوصة ولم تكره في البيت الحرام إذا صلاها في هذه الأوقات المكروهة نفسها. فنقول له إن هذه مزية امتاز بها البيت الحرام لأن المسلم عند وجوده فيه يكون أبعد عن التشبه بالمشركين والمجوس ولأنه موجود في أول بيت وضع للناس. وهذه حكمة عظيمة جليلة.

روي عن النبي ﷺ: «نهى عن الصلاة عند طلوع الشمس وقال: إنها تطلع بين قرني الشيطان يزينها في عين من يعبدها حتى يسجد لها فإذا ارتفعت فارقها فإذا كانت عند قائم الظهيرة قارنها فإذا غربت فارقها فلا تصلوا في هذه الأوقات» فالنبي ﷺ نهى عن الصلاة في هذه الأوقات من غير فصل فهو على العموم والإطلاق. ونبه على معنى النهي وهو طلوع

الشمس بين قرني الشيطان. وذلك لأن عبدة الشمس يعبدون الشمس ويسجدون لها عند الطلوع تحية لها وعند الزوال لاستتمام علوها وعند الغروب وداعاً. فيجيء الشيطان فيجعل الشمس بين قرنيه ليقع سجودهم نحو الشمس له. فنهى النبي ﷺ عن الصلاة في هذه الأوقات لئلايقع التشبه بعبدة الشمس. وهذا المعنى يعم المصلين أجمعين. اهـ بدائع بتصرف.

حكمة صلاة الجماعة

إن الحكمة في صلاة الجماعة أيها المؤمن إذا عرفتها وفقهتها فقد أوتيت فضلاً كبيراً وكنت من الذين أنعم الله عليهم بنعمة الإيمان.

إن الصلاة المنفرد فيها معنى الانفراد وهو على نقيض الاجتماع والاتحاد. فمن أجل ذلك فضلت صلاة الجماعة على صلاة المنفرد. وأن لها مزايا أخرى وفوائد جمة لا تخرج عن دائرة التآلف والاتحاد ولكن باعتبارات. فمنها الاجتماع ووجود المسلمين في صف واحد وراء إمام واحد. وفي هذا من معنى الاتحاد ما قد عرفت. ومنها أن المسلم الفقير يقف بجانب المسلم الغني بلا فارق ولا تمييز بينهما. وفي هذا معنى المساواة التي تترنم بها الأمم الأخرى المتمدينة. لأن تلك المساواة في الحقيقة هي من قواعد الدين الإسلامي الحنيف.

إذا عرفت هذا عرفت أن السيد والمسود والخادم والمخدوم يستوي الكل أمام الله في الوقوف بين يديه. ولا يفضل عربي عن عجمي إلا بالتقوى ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[1] وإن الكرم وهو مجموع الأخلاق الفاضلة لا يشترط أن يكون في جماعة الأغنياء، وإنما هو نعمة من النعم الجليلة يمنحها الله من يشاء من عباده.

ولقد خالف أهل هذا العصر هذه القاعدة فإنك ترى في المساجد يوم صلاة الجمعة الأغنياء في الصفوف الأولى غالباً والفقراء في الصفوف المتأخرة حتى لقد صارت هذه قاعدة عمومية وحالة طبيعية، أو كادت تكون. بحيث لو وجد أحد الأغنياء في الصف الأخير اضطراراً كان في صدره حرج. كما أن الفقير إذا وجد في الصف الأول أحس في

---

(١) (٤٩) الحجرات: ١٣.

نفسه أنه في غير مكانه اللائق به وبمنزلته. وكل هذا مخالف لحكمة تفضيل صلاة الجماعة على صلاة المنفرد.

وهناك حكمة أخرى وهي: إن صلاة الجماعة من شأنها أن تجمع المسلمين ولو لم تكن بينهم معرفة. فإذا ما اجتمع المسلمون في صف واحد وراء الإمام واستقبلوا القبلة التي في استقبالها معنى الوحدة والاتحاد حصل بينهم التعارف والتوادد والتآخي وما هو سبب في تآلف القلوب. ذلك التآلف الذي عليه سعادة الحياة الحقيقية.

وأيضاً نقول إن فضل صلاة الجماعة على صلاة المنفرد لها حكم أخرى وهي: إن الإنسان إذا كان خادماً وناداه مخدومه وسيده وجب عليه تلبيته. فما بالك إذا ناداه الله على لسان المؤذن الذي يقول: حي على الصلاة حي على الفلاح. أي أقبلوا يا عبادي على الصلاة والفلاح. كأنه قال إذا أقبلتم وصليتم الصلاة المطلوبة فلحتم وصلح حالكم ونجحتم فيما تريدون وترغبون. لا شك أنه في هذه الحالة يكون من أوجب الواجبات عليه إجابة دعوة رب الأرباب وملك الملوك.

ولما كان فضل صلاة الجماعة ما قد عرفت قال النبي ﷺ: «**صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بخمس وعشرين درجة**» وفي رواية «**بسبع وعشرين درجة**». وقال سعيد بن المسيب: ما أذن مؤذن منذ عشرين سنة إلا وأنا في المسجد. وقال حاتم الأصم: فاتتني صلاة الجماعة فعزاني أبو إسحاق البخاري. وروي أن ميمون بن مهران جاء المسجد فقيل له إن الناس قد انصرفوا فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون لفضل هذه الصلاة أحب إليّ من ولاية العراق. ولو أردنا أن نذكر بعض ما ورد في فضل صلاة الجماعة لضاق بنا المقام.

الحكمة في صلاة الجمعة

إن الشارع الحكيم قد فرض علينا صلاة الجمعة وحضّ عليها لاجتماع كلمة المسلمين ووجود التآلف بينهم حيث في هذا اليوم المبارك يتركون أشغالهم عند حلول وقت الصلاة ويجتمعون في مسجد واحد أو مساجد متعددة ويسمعون من الخطيب الحكم والمواعظ والنصائح التي تدعوهم إلى إصلاح أمورهم وأمور دينهم ودنياهم.

ولما كان الأسبوع قد استعملته العرب والعجم وأكثر الملل والنحل جعل ميقات المسلمين في يوم الجمعة لفضله على سائر الأيام. وأيضاً كان هذا الوقت مقدراً بأسبوع لئلا يسرع دورانه فتحصل المشقة على جماعة المسلمين. ولو تأخر اجتماعهم عن أسبوع تفوت

الحكمة البالغة المترتبة على صلاة الجمعة. وقد ورد في القرآن الشريف بما يفيد الحث على أداء هذه الفريضة. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝﴾[1] ولا يفهم من الأمر بترك الاشتغال عند وقت صلاة الجمعة ان المسلمين يتركون أشغالهم ويتفرغون للصلاة عامة يومهم. بل الأمر أنه عندما يؤذن المؤذن ويقول: حي على الصلاة حي على الفلاح. يجيبونه ويؤدون هذا الفرض ثم ينصرفون بعد أدائه إلى أشغالهم كما قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾[2] ولأن الله سبحانه وتعالى أمرنا بالعمل للدين والدنيا معاً وفي هذا حكمة بالغة.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: **«إن الله فرض عليكم الجمعة في مقامي هذا في يومي هذا في شهري هذا في سنتي هذه فمن تركها في حياتي أو بعد مماتي استخفافاً بها وجحوداً عليها وتهاوناً بحقها وله إمام عادل أو جائر فلا جمع الله شمله ولا بارك له في أمره ألا لا صلاة له ألا لا زكاة له ألا لا حج له ألا لا صوم له إلا أن يتوب فمن تاب تاب الله عليه»** وروي عن ابن عمر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«من ترك ثلاث جمع تهاوناً طبع الله على قلبه»** ومثل هذا الوعيد لا يكون إلا بترك الفرض وعليه إجماع الأمة.

وقد ورد في فضل الجمعة من الأحاديث غير ما ورد في فضلها من الآيات ما فيه عبرة لذوي الألباب. قال ﷺ: **«خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها. ولا تقوم الساعة إلا يوم الجمعة»** وقال أيضاً: **«إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة وعليكم السكينة والوقار ولا تسرعوا فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا»**.

ومن هذا يفهم أن الشارع الحكيم لم يرهقنا من أمرنا عسراً إذا نادى المؤذن وقت الصلاة. لأن الشارع أحكم أمور ديننا ودنيانا وأمرنا في الحالتين بما فيه كل صلاح وفلاح. وأن من رحمة الشارع وشفقته علينا جعل صلاة الجمعة ركعتين لأن هذا الوقت يجتمع فيه

---

(١) (٦٢) الجمعة: ٩ و١٠.

(٢) (٦٢) الجمعة: ١٠.

السقيم والمريض وذو الحاجة. وقد رخص الله سبحانه وتعالى لمن لم يمكنه إدراكها بسبب البعد أو ما شاكل ذلك أن يصليها ظهراً. ومن هنا تعلم أن الدين الإسلامي الحنيف دين يسر لا عسر فيه. ولقد قال الله تعالى: ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾[(١)].

هذه هي الحكمة في صلاة الجمعة فحافظ على أدائها لتكون من المقربين. والله سبحانه وتعالى يهدينا وإياك سواء السبيل.

الحكمة في خطبة الجمعة

اعلم أيها المسلم أن الله سبحانه وتعالى أنزل القرآن الشريف وفيه من الحكم والمواعظ والفوائد الدنيوية والأخروية ما لا نقدر على وصفه. ولو أعطينا من البيان وفصاحة اللسان ما به نكون أستاذاً لسحبان.

إن فيما قرره الشارع الحكيم صلاة الجمعة. وقد علمت الحكمة في مشروعيتها. وهاك شرح الحكمة في خطبتها لتكون على علم إن كنت من الغافلين.

يجتمع المسلمون في هذا اليوم المبارك في هذه الساعة في مسجد واحد أو مساجد متعددة من سائر أطراف البلاد لأجل أن يؤدّوا فريضة الجمعة. ولكن قد ثبت لك أولاً أن الإنسان ميال إلى الشر أكثر منه إلى الخير وهذه قضية ذكرها الله في القرآن الشريف بقوله:

﴿ ۞إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾[(٢)]

قرر الشارع الحكيم الخطبة قبل صلاة الجمعة لتذكير المسلمين بمصالحهم الدنيوية والأخروية وهم مجتمعون في مكان واحد حتى تستقيم أحوالهم في الدنيا والدين ليكونوا من أهل اليقين وأصحاب اليمين.

ولقد كان السلف الصالح من المسلمين في صدر الإسلام لا يقتصرون على التبشير بالجنة والتحذير من النار وكل ما هو متعلق بأمر الآخرة. بل كانوا يشرحون للمصلين كل ما فيه فائدة دنيوية أو أخروية تعود عليهم. بخلاف خطباء هذا العصر الذين يخطبون على المنابر خطباً طال عليها القدم. ولا تؤثر في القلوب التأثير الشرعي المطلوب.

كان الخطيب في صدر الإسلام يقف على المنبر ويشرح الداء الذي أصيبت به جماعة المسلمين ويصف الدواء بصورة مؤثرة. فإذا كان الجهاد شرح لهم ثواب الكرام المحسنين.

---

(١) (٥) المائدة: ٦.

(٢) (٧٠) المعارج: ١٩ ـ ٢١.

وإذا كانت هناك فتن وما أشبه ذلك شرح لهم ما يوطد دعائم الأمن في البلاد وهداهم إلى الصراط المستقيم، وإلى صلاح أمري الدنيا والآخرة. هذه هي الحكمة في خطبة الجمعة وهذه فوائدها فهل نحن بها عاملون؟.

الحكمة في صلاة العيدين

إن الشارع الحكيم قد أنزل شرعه وفيه من المصالح الدنيوية والأخروية ما لا يوجد في أي شرع من الشرائع الأخرى. سواء أكانت سماوية أو وضعية. لأن الدين الإسلامي جاء متمماً لكل شرع ودين سواه.

قلنا في غير هذا الموضع إن صلاة الجماعة فضلت على صلاة الانفراد لما فيها من معنى الاجتماع والاتحاد بوقوف المسلمين متكاتفين صفاً وراء إمام واحد كأنهم البنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً. وقلنا إن الشارع الحكيم رأى أن هذا الاجتماع لا يكفي في اتحاد المسلمين واجتماع كلمتهم فشرع صلاة الجمعة. ثم رأى أيضاً أنها لا تكفي لذلك الأمر فشرع صلاة العيدين ليكون الاتحاد أعظم والنفع أكبر وهاك البيان.

إن صلاة عيد الفطر بعد أن يؤدي المسلم فرض الصيام من أعظم الأسباب لتآلف المسلمين، إذ يعطي الغني الفقير من فضل ما أعطاه الله فيزول عنه جوعه واحتياجه. وبذلك يزول همّ قلبه ويمد يده مصافحاً أخاه المسلم كأنهما من بيت واحد وأب واحد فيصير الإنسان في هذا اليوم المبارك مكتسباً أجر الصيام وأجر الكرم. وإنقاذ الفقير من مخالب الفقر والعسر والفاقة وضيق ذات اليد. وأنت تعلم ذلّ الفقر والفاقة وقانا الله-وإياك شر كل ذلك.

وهناك حكمة أخرى في مشروعية صلاة العيدين. وهي إظهار قوة المسلمين لأعدائهم وما في حكم ذلك من قوة السلطان والجاه. ومن أجل ذلك يستحب دخول المسلمين في المسجد من باب وخروجهم من باب آخر عند أداء الصلاة. ليكون ذلك أدعى لعظم قدرهم في نظر أعدائهم ويرونهم متحدين هذا الاتحاد المتين مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[1] فيتناولون المودة وروابط الإخاء.

إذا عرفت هذا فنقول أيضاً: إن الدين الإسلامي لم يمنع من الأمم عوائدهم في

---

(١) (٤٩) الحجرات: ١٠.

أفراحهم بل يقرها على ما هي عليه. وإذا كان فيها ما هو مخالف للدين والآداب حسنها وأكملها أو أبدلها بخير منها والدليل على ذلك أنه قبل ظهور الإسلام كانت للعرب أعياد يظهرون فيها سرورهم. منها يوما النيروز والمهرجان. فلما قدم النبي ﷺ المدينة ووجد الأنصار يؤدّون شعائر هذين العيدين قال لهم: «**ما هذان اليومان**» قالوا كنا نلعب فيهما في الجاهلية فقال النبي ﷺ: «**قد أبدلكم الله خيراً منهما يوم الأضحى ويوم الفطر**» والحكمة في هذا التبديل أن النبي ﷺ لو أقرهم لخيف أن يكون هذا للتنويه بشعائر الجاهلية. فانظر يا رعاك الله ما أعظم هذه الحكم وأما أجلها وما أكبر نفعها للمسلمين في كل أمور الدنيا والدين.

حكمة سجدة التلاوة

إعلم وفقني الله وإياك إلى صالح الأعمال أن الأنسان كلما امتثل وأتى بالطاعات التي أمر بها من قبل الشارع ازداد قرباً من الله تعالى الذي يقول في محكم كتابه: ﴿ **وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب** ﴾[1] وناهيك بهذا القرب الذي يفتح على الإنسان كل أبواب الخير دنيا وآخرة. ولا شك أن سجدة التلاوة التي أمرنا الله بها فيها من الخضوع والتذلل لملك الملوك ورب الأرباب ما لا يخفى على إنسان.

وهناك حكمة أخرى، وهي مخالفة الشيطان الرجيم الذي أمر من جانب الحق جلّ وعلا بالسجود فأبى واستكبر وكان من المبعدين المطرودين من رحمة الله تعالى. ومن أجل ذلك ورد أنه كلما سجد الإنسان ازداد غيظ الشيطان وأخذ في البكاء والعويل والنواح. لأنه يرى الرحمات تنزل تترى من السماء على الراكعين الساجدين الذين امتثلوا أمر ربهم وهو محروم من تلك الرحمات العظيمة بسبب عصيانه. وقد ذكر في البدائع ما يأتي:

روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا تلى ابن آدم آية السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي ويقول أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فلم أسجد فلي النار**» والأصل أن الحكيم متى حكى من غير الحكيم أمراً ولم يعقبه بالتكبير يدل على أنه صواب فكان الحديث دليلاً على كون ابن دم مأموراً بالسجود. ومطلق الأمر

---

(١) (٩٦) العلق: ١٩.

للوجوب. ولأن الله تعالى ذمّ أقواماً بترك السجود فقال: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[1] وإنما يستحق الذم بترك الواجب. ولأن مواضع السجود في القرآن منقسمة: منها ما هو أمر بالسجود وإلزام للوجوب كما في آخر سورة القمر. ومنها ما هو إخبار عن استكبار الكفرة عن السجود فيجب علينا مخالفتهم بتحصيله. ومنها ما هو إخبار عن خشوع المطيعين فيجب علينا متابعتهم لقوله تعالى: ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾[2] اهـ صدق الله العظيم.

حكمة صلاة القصر

إن الشارع الحكيم شرع لنا صلاة القصر في السفر لحكمة منه أرادها لمصلحة المسلمين. وذلك أن الإنسان إذا كان مسافراً فهو معرض للأخطار ووعثاء الأسفار إذ يكون دائماً مشغول البال كما هو معلوم لدى من كابد عناء ومشقة الأسفار.

ولرب قائل يقول إن السفر لا يكون في كل الأحوال مظنة لحصول المشقة. فكان الواجب أن يفصل في هذا الحكم فنقول له إن الشارع رأى أن الغالب في السفر حصول المشقة حتى قالوا: إن السفر قطعة من العذاب، وقالوا: إن العذاب قطعة من السفر، لأن المسافر يعاني من المشاق ما لم يعان بعضه وهو في حالة الإقامة.

وقد ورد في الكتاب العزيز قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ ﴾[3]

ولقد ورد أن يعلى بن أمية قال: سألت عمر بن الخطاب. قلت ليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا وقد أمن الناس. فقال لي عمر: عجبت مما عجبت. فسألت رسول الله ﷺ فقال: «**صدقة تصدق بها عليكم فاقبلوا صدقته**».

ولا يعزب عليك أن القصر واجب في السفر ولو كان السفر لمعصية حتى إذا أتمّ المسافر يكون مسيئاً. والحكمة في ذلك أنه إذا كان العاصي ممن يعلمون مقدار المعصية، ويعلمون أن القصر في السفر رحمة من الشارع بمن يسافر أملى عليه ضميره ووجدانه أن هذه رحمة وحكمة من الشارع الحكيم بأمثاله. فربما يرق قلبه ويعدل عن إتيان المعصية. وهي حكمة بالغة، وذكر في البدائع ما يأتي:

---

(١) (٨٤) الإنشقاق: ٢١. (٢) (٦) الأنعام: ٩٠. (٣) (٤) النساء: ١٠١.

إن الحاج إذا دخل مكة في أيام العشر من ذي الحجة ونوى الإقامة خمسة عشر يوماً، أو دخل قبل أيام العشر ونوى الإقامة لا يصح. لأنه لا بد له من الخروج إلى عرفات. فلا تتحقق نية إقامة خمسة عشر يوماً فلا يصح. وقيل سبب تفقه عيسى بن أبان هذه المسألة. وذلك أنه كان مشغولاً بطلب الحديث. قال فدخلت مكة في أول العشر من ذي الحجة مع صاحب لي وعزمت على الإقامة شهراً فجعلت أتم الصلاة فلقيني بعض أصحاب أبي حنيفة فقال: أخطأت فإنك تخرج إلى منى. وعرفت. فلما رجعت من منى بدا لصاحبي أن يخرج وعزمت على أن أصاحبه ورجعت أقصر الصلاة. فقال لي صاحب أبي حنيفة: أخطأت فإنك مقيم فما لم تخرج منها لا تصير مسافراً. فقلت: أخطأت في مسألة واحدة في موضعين. فدخلت مجلس محمد واشتغلت بالفقه.

حكمة الاقتصار على ركعتين في السفر

اعلم أن الصلاة فرضت والنبي ﷺ في مكة قبل أن يهاجر إلى المدينة ولما هاجر زيدت الثنائيات إلى رباعيات.

والحكمة في قصر الرباعية إلى ثنائية دون الثلاثية والثنائية لأن الرباعية تقبل القسمة نصفين. إذ تصير الأربع ركعات اثنتين. وأما الثلاثية فلا تقبل القسمة مناصفة. ولقد ورد أنها وتر النهار لوقوعها عقبه وإن كانت هي ليلية. وعلى هذا يكون إذا ذهب ثلثها خرجت عن الوتر الذي لأجله فرضت ثلاثاً. وهي لا يمكن أن تنصف. وإذا نصفت على فرض خرجت عن حد الوتر أيضاً وقالت السيدة عائشة رضي الله عنها: **(فرضت الصلاة ركعتين فأقرت صلاة السفر وزيد في صلاة الحضر)** ومن هذا يفهم أن قصر الصلاة حكمي لا حقيقي وقال ابن عباس رضي الله عنه: إن الله فرض على لسان نبيكم صلاة المقيم أربعاً والمسافر ركعتين: ولما كانت صلاة الصبح ركعتين لم يشملها حكم القصر لأن حذف نصفها مجحف بها كل الإجحاف. وأيضاً لم يرد في الشرع أمر بصلاة ركعة واحدة فقط لأنها تصير فذة والشارع لم يعتبر الفذة.

هذه هي الحكمة في جعل القصر للرباعيات دون الثلاثيات والثنائيات. وهو قصر حكمي لا حقيقي.

حكمة صلاة الخوف

قد بيّنا في غير هذا الموضع أن الإنسان أقرب ما يكون من مولاه وخالقه إذا وقف

للصلاة وسجد لها خاشعاً خاضعاً ذليلاً أمام عزته. وقلنا إن أداء الصلاة بالشروط المطلوبة يوجد في القلب اطمئناناً وثباتاً لأنه يقرب ممن لا يعول إلا عليه في الشدائد.

ولما كان الإنسان في حالة خوف من عدوه ومن كل ما يحذره ويخشى منه على حياته في أشد الاحتياج إلى من يشد به أزره ويتخذه درعاً يتقي به ما عساه يصيبه من الاضرار. فليس هناك أعظم وأنفع للمرء من الصلاة في أوقاتها ولا يتركها لهذا الخوف ليكون الإنسان قريباً من ربه الذي في قدرته أن يحميه ويقيه شر هذا العدو المفاجىء مهما كان شديد البطش قوي الساعد. ويحفه بجيش من جنده ينصره به حتى يصل إلى مقر الأمان. وهو في هذه الحالة كأنه يقول بلسان حركة ركوعه وسجوده: يا رب لا عون لي إلا عنايتك ولطفك به فأعني بحق قوتك وضعفي على هذا العود. وقني شره وارحمني من هذا الخطر الداهم.

وحيث أن الصلاة من أركان الإسلام ودعائم الأيمان شدد الشارع الحكيم في وجوب أدائها في مثل هذا الموقف ولم يسقطها عنه. كأنه تعالى يقول للإنسان: إذا أدّيت أيها العبد ما فرضته عليك من الفرائض تقرب مني وتطمئن بذكري. وقانا الله وإياك شر الأعداء، ورفع عنا كل بلاء بمنه وكرمه.

حكمة صلاة المريض

إعلم أن الصلاة للدين كالعامود القائم وسط الخيمة فإذا ما نزعه من مركزه نازع تقوضت الخيمة. ومن أجل ذلك أمرنا الله بأداء الصلاة في كل أوقاتها وفي كل الأحوال ولو الحالة التي يكون فيها الإنسان مضطرب القلب لخوف عدوٍ مفاجىء في حرب أو في غير حرب. أو ضعيف القوى كالمريض.

ولرب قائل يقول: إن الدين يسر لا عسر. فكيف يكلفنا الله بالصلاة في حالة المرض وهي حالة ألم وضعف واضطراب فكر! فنقول له: إنّ الشارع لما علم أن الصلاة تجعل الإنسان دائماً قريباً من مولاه. وقربه منه يجعله مرموقاً بعين رعايته وعنايته كلفه الله بأدائها ولم يسقطها عنه للفائدة التي تعود عليه، ثم سهل عليه طريق القرب والوصول إليه حتى لا يجد تعباً ولا عقبات في سبيله. وأمره أن يؤدّيها إما قائماً إن أمكنه القيام وإلا فقاعداً. وإن شقّ عليه ذلك فأيماء ولو لم يمكنه النطق بل يكفي في ذلك تحريك الشفتين.

وهناك حكمة أخرى. وهي أن المريض إذا كانت منيته قد دنت وأدّى الصلاة إلى آخر

نفس من الحياة وكانت له ذنوب غفر الله له ذنوبه لاجل أن يلاقيه طاهراً منها فينال الغفران ويكون قرير العين بالرضوان. ومقر النعيم والإحسان مع الحور العين. وإلاّ أنعم عليه بتعجيل الشفاء حتى لا يذوق مرارة المرض. هذه هي الحكم البالغة في صلاة المريض فاعرفها وأعمل بها لتكون من الفائزين المقربين.

حكمة صلاة الاستسقاء

إن الإنسان إذا نزلت به الكوارث وأحدقت به المصائب فبعضها قد يمكن أن تكون عنده معدات لأزالتها وبعضها لا يمكن إزالتها بأية وسيلة من الوسائل ولو استعان بالإنس والجن وكل ذي قوة وحول وطول وسلطان.

ومن هذه المصائب والكوارث الجدب المسبب عن انقطاع الغيث الذي هو حياة كل ذي روح في الوجود. وبه تخرج الأرض لنا الغذاء المتنوع الأنواع المختلف الثمرات. هذا خلاف المنافع الأخرى العديدة في مصالحنا الكثيرة وضروريات المعاش، فإذا كان الماء أجل نعمة من الباري جل شأنه كانت المصيبة بفقده من أكبر المصائب التي تتضاءل أمامها كل القوى ما عدا قوة الله تعالى القادر على كل شيء.

وإذا كان الإنسان واقعاً في مصيبة ووجد من يقدر على إنقاذه منها فلا شك أن خضوعه له وتذلله أمامه يكون النهاية القصوى. ولو طلب منه أجراً لأعطاه ما لديه من المال. فكيف يكون تذلله لله سبحانه وتعالى في هذه الحالة مع أنه سبحانه لا يريد منه أجراً.

من أجل ذلك جعل الشارع الحكيم صلاة الاستسقاء طلباً للرحمة والإغاثة بإنزال الغيث الذي هو حياة النفوس فيخرج الناس إلى مكان متسع خارج البلد عادة ويصلون منفردين ضارعين إليه ليغيثهم بالماء. ويستحب أن تخرج الأطفال والشيوخ والدواب ليكون ذلك أظهر في الخضوع وفي تعجيل الرحمة. وقد قال ﷺ: «لو لا شباب خشع وبهائم رتع وشيوخ ركع وأطفال رضع لصب عليكم العذاب صبا» وقال أيضاً: «هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم» وهذه الصلاة ثابتة أيضاً بالكتاب الكريم حيث يقول الله تعالى وقوله الحق: ﴿فقلت استغفروا ربكم أن كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً﴾ وقد أريد بالاستغفار الصلاة وهي تؤدى في ثلاثة أيام متتابعات من غير جماعة وهي ركعتان.

روي أن رسول الله ﷺ صلى الجمعة فقام رجل فقال: يا رسول الله أجدبت الأرض وهلكت المواشي فاسق لنا الغيث: فرفع رسول الله يديه إلى السماء ودعا فما ضمَّ يديه حتى

مطرت السماء. فقال رسول الله ﷺ: «لله در أبي طالب لو كان في الأحياء لقرت عيناه» فقال علي كرم الله وجهه: تعني يا رسول الله قوله:

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

فقال ﷺ: «أجل». وفي بعض الروايات قام ذلك الأعرابي وأنشد فقال:

أتيناك والعذراء يدمى لبابها وقد شغلت أم الصبي عن الطفل

إلى أن قال:

وليس لنا إلا إليك فرارنا وليس فرار الناس إلاّ إلى الرسل

فبكى النبي ﷺ حتى اخضلت لحيته الشريفة. ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ورفع يديه إلى السماء وقال: ﴿اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً عذباً طيباً نافعاً غير ضارٍ عاجلاً غير آجلاً﴾ فما رد رسول الله ﷺ يده الشريفة إلى صدره حتى مطرت السماء. وجاء أهل البلد يصيحون: الغرق الغرق يا رسول الله. فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه وقال: ﴿اللهم حوالينا ولا علينا﴾ فانجابت السحابة حتى أحدقت بالمدينة كالاكليل. فقال النبي ﷺ: «لله در أبي طالب لو كان حياً لقرت عيناه من ينشدني قوله» فقام علي كرم الله وجهه وأنشد البيت المتقدم.

حكمة صلاة الكسوف والخسوف

قلنا في حكمة صلاة الخوف: إنها توسل إلى الله تعالى ليدرأ عن المصلي ما يخشاه. ونقول هنا: إن الكسوف والخسوف آيتان من آيات الله يخوف الله بهما عباده. ففي هذه الحالة يسنّ للإنسان أن يصلي هذه الصلاة المعلومة ليظهر خضوعه وتذلله لواجب الوجود الذي بيده الأمر. والذي لو أوقف حركة الشمس والقمر كلاً منهما في برجه وتعطلت حركة دورته أو غير ذلك مما هو مخالف لما تعودناه من انتظام دوران الفلك لنتج من ذلك الضرر والخطر. أو قل لهلك البشر. أو أقل ما فيها اختلاف نظام المعيشة. وفقد كل من النبات والحيوان قوته المتولدة من تأثيرات هذين الكوكبين كما قرره علماء النبات والباحثون في خواص الأجسام. والله قادر أن يقلب نظام هذا الكون وأنه إذا شاء أن يذهبنا ويأتي بخلق جديد غيرنا لفعل في أقل من لمح البصر.

فالإنسان إذا صلى عند حصول الكسوف والخسوف فهو يتوسل إلى الله تعالى أن يقيه

المكروه ويدفع عند كل ضرر ويظهر له خضوعه وتذلله. ويعلن يقينه بأن الله هو الفعال لما يريد.

روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: كسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ فقال: «**ألا إن الشمس والقمر آيتان من إيات الله تعالى لا ينكسفان لموت أحد أو لحياته فإذا رأيتم من هذا شيئاً فاحمدوا الله وكبروه وسبحوه حتى تنجلي**». وفي رواية أبي مسعود الأنصاري: ﴿**فإذا رأيتموها فقوموا وصلوا**﴾.

واعلم أن السبب في كسوف الشمس هو توسط القمر بينها وبين الأرض فيحجب ضوءها وشعاعها الواصلين إلى الجهة المقابلة لها من سطح الأرض. وقد يكون الكسوف كلياً أو جزئياً بحسب وبقدر ما يكون احتجاب الضوء كلياً أو جزئياً. وأما سبب خسوف القمر. فهو توسط الأرض تماماً بينه وبين الشمس. وبذلك تحجب ظل الشمس عنه وترسل ظلها عليه فيغتم قرصه. وقد يكون الخسوف كلياً أو جزئياً بقدر ما يكون قرصه محتجباً كله أو جزء منه. هذا، ونقول على سبيل الاستطراد لأجل أن تقف على قوة وقدرة هذا الرب المدبر هذا الكون بحكمته: إن الشمس أكبر من الأرض بقدر مليون وثلثمائة ألف مرة وهي في السماء الرابعة ولذا تجد قرصها صغيراً مثل القمر لبعدها عنا ويقطع ضوؤها في الثانية الواحدة (٧٥٠٠٠) فرسخ تقريباً ويصل إلينا في ثمان دقائق و١٨ ثانية فيكون بعد الشمس عن الأرض بمقدار (٣٧) مليوناً من الفراسخ تقريباً. وأما القمر فيضيء علينا بالليل بواسطة انعكاس أشعة الشمس عليه. وهو أصغر من الأرض بنحو (٤٩) مرة وأقرب إلينا من الشمس بمقدار (٤٠٠) مرة ويبعد عنا بمقدار (٩٥٠٠٠) فرسخ تقريباً وهو في السماء الأولى ولذا نرى قرصه مثل قرص الشمس في القدر مع كونه أقل جرماً منه بكثير كما علمت فانظر يا رعاك الله إلى القدرة الإلهية التي تدبر الكون على أبدع صنع وأتم نظام.

حكمة سقوط الصلاة عن المرأة في وقت الحيض

لقد عرفت فيما سبق حكمة الطهارة في الصلاة وبناء على ذلك فقد سقطت الصلاة عن المرأة في زمن الحيض. لأن الدم لا ينقطع عنها في مدة تترواح بين ثلاثة أيام وعشرة غالباً. وأقل الحيض ثلاثة أيام وأكثره عشرة. فهي في هذه الحالة لا تستطيع أداء الفرض. إذ الطهارة متعذرة بطبيعة الحال.

وفي إسقاط الصلاة عن المرأة في زمن الحيض حكمتان. الأولى تعذر الطهارة كما قلنا. والثانية الشفقة بالمرأة. إذ لو قضت الصلاة الفائتة بعد زمن الحيض وانقطاع الدم لتعبت من تراكم الأوقات التي يقتضي أداؤها وقتاً كبيراً وتتعطل مصالحها الأخرى. ولرب قائل يقول: إذا كان الأمر كذلك وكما ذكرت فلماذا لم يسقط عنها الصوم إذا حصل في زمن الحيض. لأنا نجد أن الشارع كلفها بقضاء الصوم في زمن الطهر. فنقول له: إن الصوم شهر واحد في كل عام وفي إمكانها أن تقضي الأيام التي أفطرتها في وقت الحيض في أيام الطهر. وهناك حكمة أخرى. وهي عدم حرمانها من فوائد الصوم العظيمة التي سنشرحها في موضع آخر في حكم الصوم وهذه الحكمة تدل على أن الدين الإسلامي سمح سهل لا يرهق الناس من أمرهم عسراً كما قال الله تعالى: ﴿**وما جعل عليكم في الدين من حرج**﴾ صدق الله العظيم.

حكمة صلاة التراويح

الحكمة في ذلك عظيمة جداً. ولو وفق أهل الأديان الأخرى وعرفوها لسبحوا بحمد هذا الدين الحنيف وهللوا وكبروا من تعاليمه السامية.

أنت تعلم وفقك الله إلى معرفة أسرار حكمته: إن الصائم يظل سحابة يومه لا يذوق شيئاً من الطعام والشراب وما في حكمهما من المفطرات إلى وقت الغروب. فإذا جاء الأجل المسمى يتناول ما لذ وطاب من كل شيء كان منهياً عنه قبل هذا الوقت. حتى إذا كملت طلباته يجد نفسه في فتور وجسمه في اضمحلال لا حراك له. وهذا أمر مشاهد في غالب الصائمين. ويمكث على هذه الحالة إلى أن يؤدي صلاة العشاء وبعدها صلاة التراويح، وهي مركبة من ركوع وسجود وقيام وقعود وغير ذلك فلا يخرج منها إلا وكأنه نشط من عقال وذهب عنه ما كان يجده من الفتور والاضمحلال. من أجل ذلك سنّ الشارع الحكيم صلاة التراويح.

هذا وقد قال كثير من الأطباء الغربيين: إن المسلمين الصائمين بصلاتهم المعتادة بعد العشاء يذهب عنهم كثير من الأمراض التي تكاد تفتك بهم فتكاً: وقال المستر (أدوارد ليني) ما ترجمته: دعيت يوماً لتناول طعام الإفطار في رمضان عند أحد كبار التجار المسلمين، فرأيت أكثر الصائمين يقبلون على الطعام بشدة حتى جزمت أنهم سيصابون جميعاً بمرض المعدة. وبعد ذلك جاء وقت العشاء فأخذوا يصلون الفريضة وبعدها صلاة التراويح.

فجزمت أن هذه الحركات تفيدهم قوة ونشاطاً وتذهب عنهم ما عساه يصيبهم من الأمراض. ووثقت من أن الدين الإسلامي كان حكيماً في تشريعه.

هذا والذي جمع المسلمين على هذا العدد المعلوم في صلاة التراويح سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ووافقه الصحابة على ذلك في عهده. واستمر العمل على ذلك في أيام عثمان وعلي رضي الله عنهما وقد قال النبي ﷺ: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين**».

وقد زاد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عدد ركعاتها فجعلها ستاً وثلاثين ركعة وكان يقصد رضي الله عنه في هذه الزيادة مساواة أهل مكة في الفضل والثواب. لأنهم كانوا يطوفون بالبيت الحرام مرة بعد كل صلاة أربع ركعات. فكان يصلي بدل كل طواف أربع ركعات لينال الأجر والثواب. رضي الله عن الصحابة أجميعن.

حكمة إخفاء الصلاة الوسطى

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾[1] فإذا تأملت في هذه الآية الشريفة تعلم أن الله سبحانه وتعالى لم يبين فيها الصلاة الوسطى بصريح العبارة. ويرجع هذا لحكمة بالغة تفيد الإنسان في دنياه وآخرته. ذلك أن الإنسان إذا نظر بعين البصيرة إلى عدم البيان في هذه الآية صراحة، حمله ذلك على المواظبة على صلاة الأوقات الخمس المفروضة في أوقاتها وعدم التهاون فيها. ولا شك أن هذه المواظبة ترجع بفائدة عظيمة وثواب كبير على المصلي. ولهذه الحكمة أخفى الله سبحانه وتعالى ليلة القدر في شهر رمضان لأجل أن يطلبها الإنسان في عموم الشهر. ولا تلتفت لمن قال إن ليلة القدر حصلت مرة واحدة وانتهت ولن تعود. وأخفى ساعة الإجابة في يوم الجمعة لأجل أن تكون العبادة مقبولة وتقع في جميع أوقات هذا اليوم المبارك. وأخفى اسمه الأعظم في جميع الأسماء لأجل حفظ وتلاوة جميع أسمائه الشريفة. وأخفى وقت الموت ليكون الإنسان آتياً بالتوبة في جميع الأوقات.

قال محمد بن سيرين: إن رجلاً سأل زيد بن ثابت عن الصلاة الوسطى. فقال: حافظ على الصلوات كلها تصبها. وعن الربيع بن خيثم أنه سأله واحد عنها فقال: يا ابن عم

---

(١) (٢) البقرة: ٢٣٨.

الوسطى منهن فحافظ على الكل تكن محافظاً على الوسطى، ثم قال الربيع: لو علمتها بعينها لكنت محافظاً لها ومضيعاً لسائرهن. قال السائل: لا قال الربيع: فإن حافظت عليهن فقد حافظت على الوسطى.

واختلف العلماء في الصلاة الوسطى بعد عدم البيان صراحة في الآية الشريفة على أقوال، أصحها أنها صلاة العصر. وروي عن علي بن أبي طالب وابن مسعود وابن عباس وأبي هريرة والنخعي وقتادة والضحاك رضي الله عن الجميع. وروي عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنا نقرأها على عهد رسول الله ﷺ: ﴿**حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى (صلاة العصر) وقوموا لله قانتين**﴾[1] وروي عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة قال: أمرتني أم سلمة أن أكتب لها مصحفاً وقالت: إذا انتهيت إلى آية الصلاة فاعلمني فأعلمتها فأملت علي: ﴿**حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى (صلاة العصر) وقوموا لله قانتين**﴾ وروي عن محمد بن طلحة قال: شغل المشركون رسول الله ﷺ عن صلاة العصر حتى اصفرت أو احمرت. «أي الشمس» فقال: «**شغلونا عن الصلاة الوسطى ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً كما شغلونا عن الصلاة الوسطى**»: وقد سأل عبيدة السلماني علياً كرم الله وجهه فقال يا أمير المؤمنين: ما الصلاة الوسطى؟ فقال كنا نراها صلاة الصبح فبينما نحن نقاتل أهل خيبر فقاتلوا حتى أرهقونا عن الصلاة وكان قبل غروب الشمس فقال ﷺ: «**اللهم املأ قلوب هؤلاء القوم الذين شغلونا عن الصلاة الوسطى وأجوافهم ناراً أو املأ قلوبهم ناراً**» قال: فعرفنا يومئذٍ أنها الصلاة الوسطى، وسئل أبو هريرة رضي الله عنه عن الصلاة الوسطى فقال: اختلفنا فيها كما اختلفتم فيها ونحن بفناء بيت رسول الله ﷺ وفينا الرجل الصالح أبو هاشم بن ربيعة بن عبد شمس فقال: أنا أعلم لكم ذلك فقام واستأذن على رسول الله ﷺ فدخل عليه ثم خرج إلينا فقال: أخبرنا أنها صلاة العصر: وروي عن إبراهيم بن زيد الدمشقي قال: كنت جالساً عند عبد العزَيز بن مروان فقال: يا فلان اذهب إلى فلان فقل له أي شيء سمعت من رسول الله ﷺ في الصلاة الوسطى فقال رجل جالس: أرسلني أبو بكر وعمر وأنا غلام صغير أسأله عن الصلاة الوسطى فأخذ أصبعي الصغيرة فقال: هذه الفجر وقبض التي تليها وقال: هذه الظهر. ثم قبض الإبهام فقال: هذه المغرب ثم قبض التي تليها فقال: هذه العشاء. ثم قال: أي أصابعك بقيت فقلت الوسطى. فقال: أي صلاة بقيت قلت: العصر قال: فهي العصر.

---

(١) (٢) البقرة: ٢٣٨.

حكمة صلاة الجنازة

هذه الصلاة لها حكم عظيمة. منها أن الميت إذا مات وأسلم روحه إلى الله وصارت تحت المحاسبة على ما فعله في حياته من خير وشر وكانت عليه ذنوب وليس له من شفيع إلا صالح الأعمال وقد فات الأوان وصار الأمر في غير الإمكان اللهم إلاّ إذا شمله الله برحمة من عنده.

يقف المسلمون ويدعون الله تعالى أن يرحمه ويمن عليه بالغفران ويعامله بالإحسان. ومنها أن عملهم هذا يدل على أنهم لا يرضون لأحد منهم أن يصيبه أي ألم. وأي ألم بعد عذاب جهنم وغضب الرحمن. فهم يسألون الله تعالى أن يسرهم بالعفو عن أخيهم المؤمن. ومن أجل ذلك لا تجوز الصلاة على غير المسلم.

وقد ورد أن ابن أبيّ مرض وأرسل يدعو رسول الله ﷺ ومن كرم أخلاقه عليه السلام توجه إليه فسأله ابن أبيّ أن يستغفر له ويكفنه في شعاره الذي يلي جسده الشريف ثم يصلي عليه إذا مات فلما شرع المصطفى في ذلك نزل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾(١) فامتنع رسول الله ﷺ من ذلك.

ومنها أن للإنسان حق إكرامه الذي أكرمه به الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾(٢) فإذا لم يؤدّ التكريم الواجب على إخوانه المؤمنين فقد ظلم وغبن.

ومن المأثور عن النبي ﷺ هذا الدعاء: «**اللهم اغفر لحينا وميتنا وشاهدنا وغائبنا وصغيرنا وكبيرنا وذكرنا وانثانا اللهم من أحييته منا فاحيه على الإسلام. ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان. اللهم إن فلان ابن فلان في ذمتك وحبل جوارك فقه من فتنة القبر وعذاب النار وأنت أهل الوفاء والحق. اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه واكرم منزله ووسع مدخله واغسله بالماء والثلج والبرد ونقه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس. وأبدله داراً خيراً من داره. وأهلاً خيراً من أهله وزوجاً خيراً من زوجه. وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر ومن عذاب النار**» ولا يقول زوجاً خيراً من زوجه إذا كانت أنثى. وإذا كان

---

(١) (٩) التوبة: ٨٤.

(٢) (١٧) الإسراء: ٧٠.

الميت طفلاً يقول: اللهم اجعله لنا فرطاً. اللهم اجعله لنا ذخراً وأجراً اللهم اجعله لنا شافعاً ومشفعاً.

هذه هي حكمة صلاة الجنازة فقم بها أيها المسلم لإخوانك المسلمين وكما تدين تدان.

حكمة العزاء في الموت

الحكمة في ذلك راجعة إلى مواساة ذوي قربى الميت في هذا الوقت العصيب الذي ينزل فيه القضاء وتذهب فيه حكمة الحكماء.

وأنت تعلم أن كل مصيبة تنزل بالتدريج إلا الموت فإنه مصيبة عظمى وينزل دفعة واحدة، ولكن الله سبحانه وتعالى ينزل الصبر قبل المصيبة. ولولا ذلك لطاشت العقول واضمحلت الأجسام من شدة وقع المصاب. وقد ورد أن من عزى مصاباً فله مثل أجره ويقول له: أعظم الله أجرك وأحسن عزاءك وغفر لميتك. ومن المجاملة في المصيبة مصيبة الموت أن يجود الإنسان بشيء من الطعام والمأكل والمشرب ويقدم ذلك لأهل الميت في الوقت العصيب الذي تذهل فيه العقول وتطيح الأفكار وترى القوم سكرى من شدة ما يرونه من هول المصاب. وأنت أعلم بذلك فلا تحتاج إلى شرح وبيان وإيضاح. وقد قال النبي ﷺ في هذا الموضوع عند وقوع مصيبة الموت في آل جعفر. «اصنعوا لآل جعفر طعاماً فقد أتاهم ما يشغلهم».

حكمة الأذان

هذه الحكمة مجموع ثلاثة أمور:

الأول: إن الإنسان إذا كان من دأبه مزاولة الاشتغال وتعاطي أسباب الكسب وهي تشغله في الغالب وتنسيه دخول وقت الصلاة فتفوته صلاة الجماعة التي قد عرفت فضلها في غير هذا الموضع. وأيضاً خشية خروج الوقت فتفوته صلاة الأداء. زد على ذلك أنه فيه تنبيه الغافلين، وتذكير الناسين لأداء الفرض.

الأمر الثاني: لما كانت الصلاة من أجل النعم إذ تقرب العبد من ربه. وهذا هو الفلاح بعينه كان الأذان بصفة دعوة خير حتى لا تفوت المسلم هذه النعمة الكبرى فهو يدعوه لاغتنام الفرصة واكتساب النعمة.

والأمر الثالث: هو إظهار عظمة الدين الحنيف لغير المسلمين. ويعلم ذلك أن المسلمين قبل إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه كانوا يصلون خفية. فلما أسلم أعلنت الصلاة على رؤوس الأشهاد ليكون ذلك باعثاً على ترغيب المشركين في الدين الحنيف. وقال بعضهم: إن من حكم الأذان إظهار شعائر الإسلام وكلمة التوحيد والإعلام بدخول وقت الصلاة ومكانها، والدعاء إلى الجماعة التي فيها خير كثير.

وأنت إذا تأملت في ألفاظ الأذان تجدها جمعت عقيدة الإيمان واشتملت على صفات التنزيه والتعظيم لله سبحانه وتعالى وإثبات الوحدانية. كما أنه اعتراف لنبينا ﷺ بالرسالة وفيها الدعوة إلى الصلاة. كأنه يقول المؤذن هلموا إلى الصلاة التي هي خير من كل شيء وفيها الفوز العظيم والخير الجسيم.

وقد اتفقت كلمة العلماء على أنه يستحب في الأذان الترسل والترتيل وأن يكون المؤذن له صوت مقبول ولا يتصنع في الأذان حتى لا يكون كالغناء المنهي عنه شرعاً. وقد روي أن رجلاً قال لعبد الله بن عمر: إني لأحبك في الله فقال ابن عمر: وإني أبغضك في الله إنك تبغي في أذانك: يعني أنك تشادق بألفاظ الأذان فتخرجها عن معناها فيفوت المقصود منها.

ولقد اختلف يومئذٍ في كيفية الأذان فمنهم من قال وأشار بإضرام النار. فلم يرض المصطفى ﷺ لأن ذلك تشبيه بالمجوس. فقالوا: الناقوس. فلم يرض لأنه تشبيه بالنصارى. فقيل القرن. فقال: تشبيه باليهود. فرجعوا من غير تعيين. ثم أن عبد الله بن زيد رآه في المنام بهذه الصورة وكذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وفي الوقت نفسه كان جبريل عليه السلام قد علمه للنبي ﷺ ولما ذهب عبد الله بن زيد إلى المصطفى ليخبره قال له المصطفى: «رؤيا حق» وهذه معجزة من المعجزات الباهرة. جعلنا الله وإياك ممن يجيبون داعي الله لنفوز بالفلاح ونحظى بالنجاح.

حكمة التيمم

إعلم أن الله سبحانه وتعالى لم يجعل علينا في الدين من حرج لنؤدّي ما كلفنا الله به من العبادة بدون مشقة ولا عناء، ليكون القلب خالياً من شوائب الأكدار. ويكون العمل خالصاً من الأغيار ألا ترى أن الصلاة يشترط في أدائها الطهارة بالماء فإذا فقد الماء أو تعسر

الحصول عليه وحل الوقت الذي يؤدّى فيه الفرض جعل لنا التراب عوضاً عنه. وفي ذلك حكمتان:

الأولى: إذلال النفس الأمارة بالسوء بوضع التراب الذي هو أخس شيء على الوجه الذي هو أشرف الأعضاء.

والثانية: بيان فضل أمة محمد ﷺ حيث إن التيمم لم يشرع في الأمم السابقة، وهو رخصة لنا من الشارع الحكيم، حتى لا نجهد النفس في الحصول على الماء عند أداء الفريضة.

وحيث إن التطهير بالماء يعم جميع الأعضاء في الحدث الأكبر وبعضها في الحدث الأصغر وكان إنابة التراب عنه بهذه الكيفية فيه مشقة وصعوبة. رخص لنا الشارع الحكيم المسح بالتراب وما في حكمه بهذه الصورة حتى لا يدفع حرج بحرج مثله. لأن مسح جميع الأعضاء بالتراب حرج؛ فالشارع خفف عنا بأن جعل المسح قاصراً على بعض الأعضاء دون البعض الآخر كما هو مبين في فروع الفقه.

وهناك حكمة أخرى في جعل التراب نائباً عن الماء دون سائر الجمادات الأخرى. لأن التراب لا يخلو منه مكان. وأيضاً هو العنصر الذي خلق منه الإنسان. ولما كان التيمم وأشياء أخرى من خصوصيات هذه الأمة قال ﷺ: **«أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الأرض»** وفي رواية **«لأمتي مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل. وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وبعثت إلى الناس عامة وكان النبي ﷺ يبعث إلى قومه خاصة وأعطيت الشفاعة»**.

ولا يعزب عليك أن التيمم عند فقد الماء يجوز بما هو في حكم التراب كالأحجار وكل ما هو مكوّن ومأخوذ من الأرض وهذه الرخصة رحمة بنا من اللطيف الخبير.

روي عن رسول الله ﷺ أنه بعث سرية وأمر عليها عمرو بن العاص رضي الله عنه وكان ذلك في غزوة ذات السلاسل. فلما رجعوا شكوا منه أشياء من جملتها أنهم قالوا: صلى بنا وهو جنب، فذكر النبي ﷺ ذلك له فقال يا رسول الله: أجنبت في ليلة باردة فخفت على نفسي الهلاك لو اغتسلت فذكرت ما قاله الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾[1] فتيممت وصليت بهم: فقال رسول الله ﷺ: **«ألا ترون**

---

(١) (٤) النساء: ٢٩.

صاحبكم كيف نظر لنفسه ولكم» ولم يأمره بالإعادة وأقره على ذلك. رضي الله عن الصحابة أجمعين.

حكمة شروط النية في التيمم

إعلم وفقك الله إلى صالح الأعمال أن التيمم لا يصير إليه الإنسان إلا في حالة الضرورة التي بينها الشارع وشرحها شرحاً وافياً. زد على ذلك أن التيمم طهارة حكيمة لا حقيقية. ومن أجل ذلك كانت النية شرطاً فيه. وقد ذكر في البدائع ما يأتي:

إن التيمم ليس بطهارة حقيقية وإنما جعل طهارة عند الحاجة والحاجة إنما تعرف بالنية بخلاف الوضوء لأنه طهارة حقيقية فلا يشترط له النية. ولأن مأخذ الاسم دليل كونها شرطاً لما ذكرنا أنه ينبىء عن القصد، والنية هي القصد فلا يتحقق بدونها. فأما الوضوء فإنه مأخوذ من الوضاءة وإنها تحصل بدون النية. اهـ فيرى مما تقدم أن الشارع قد أحكم كل شيء صنعا.

حكمة المسح على الخفين

إن من الرخص التي أباحها الشارع الحكيم لنا شفقة بنا في أداء الفريضة المسح على الخفين. وهو ثابت من طريق السنة. وقد جعل الشارع المسح للمقيم مدة يوم وليلة وللمسافر ثلاثة أيام بلياليها لأن المسافر يباشر من وعثاء السفر ما لا يباشره المقيم. وهناك حكمة أخرى في تحديد هذه المدة. وهي أن الرجلين إذا تركا بدون غسل مدة أكثر من ذلك حصل لهما تعفن وذلك التعفن مضر بالجسم والصحة معاً كما لا يخفى. وقد اختلف العلماء هل هو رخصة إسقاط أو رخصة ترفيه. فجرى على الأول جماعة وجرى على الثاني أكثر الأصوليين وهو الأصح.

والحكمة في أن الشارع جعل المسح على ظاهرهما دون باطنهما لأن الظاهر هو المرئي أمام العين والباطن مباشر للأرض فكان المسح على ظاهرهما معقولاً موافقاً. وأما قول علي كرم الله وجهه:

«لو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخف أولى من أعلاه». فإنه رضي الله عنه أراد بذلك صرف اعتقاد العامة من أن الرأي الغير المستوفي شروط الصحة له دخل في الدين ومعتبر في الأدلة الشرعية. وقلنا ذلك لأن علياً كرم الله وجهه أعلم الناس بمعاني أصول الدين وحكمة التشريع الإسلامي.

والأخبار التي وردت في ثبوت المسح على الخفين كثيرة مستفيضة حتى أن من لم يره ويعتقده كان مبتدعاً ومن اعتقده ولم يمسح أخذ بالعزيمة أثيب على ذلك ويؤجر.

حكمة تسوية الرجل والمرأة في بعض الأحكام دون البعض

إعلم أن الحكمة في ذلك. هي أن للرجل خصائص وأموراً في المجتمع الإنساني لا توجد في المرأة كما أن للمرأة خصائص وأموراً لا توجد في الرجل. كما أنهما يجتمعان في بعض مسائل أخرى. ومن أجل ذلك لما أنزل الشارع الحكيم الأحكام لم يجعل الرجل والمرأة متساويين في المجتمع الإنساني. فالرجل من خصائصه الجهاد وعمارة الأرض والاشتغال بالصنائع والحرف وما أشبه ذلك من الوظائف والمصالح الأخرى التي لم تكن المرأة تقدر على أدائها. ولأجل كونها لا تخرج من بيتها بل تحتجب والاحتجاب يمنعها من مباشرة هذه الأعمال المتوقف عليها عمار هذا الكون.

ومن هذا تعرف وتعلم أن للمرأة خصائص وأموراً ليست للرجل كالتدبير المنزلي وما شاكل ذلك. وهذا على سبيل التنظير بين وظيفتيهما في الحياة. وهي تطبيق الأحكام الشرعية عليهما.

سوّى الشارع الحكيم بين الرجل والمرأة في العبادات البدنية والحدود لأن مصلحة العبادات البدنية ومصلحة العقوبات يتساوى فيهما الرجال والنساء بخلاف الميراث والشهادة وغير ذلك فلم يسوّ بينهما لأن الرجل لما كان أكمل عقلاً من المرأة وهي أنقص منه عقلاً جعلت شهادتها نصف شهادة الرجل. ولما كان الرجل أكثر منها نفعاً في الهيئة الاجتماعية وهي لا تعاني ما يعانيه الرجل من تكبد المصاريف وغير ذلك جعل نصيبه في الميراث ضعف نصيب المرأة.

وقلنا إن تساويهما في العبادات البدنية لا ينافي أن يفرق بينهما في أليق المواضع بالتفريق وهو الجمعة والجماعة لأن المرأة ليست من أهل الخروج لمثل ذلك. وهذه حكمة بالغة من الشارع الحكيم.

حكمة استقبال القبلة

إن حكمة استقبال القبلة وتوجيه الوجه شطر المسجد الحرام تتضاءل دون فهم كنهها

الأفهام وتحفى في تسطير فضلها وفوائدها الأقلام. فكيف بنا ولم نؤت من العلم إلا قطرة من بحر زاخر أو ذرة من كثيب ولكن ليس هذا بمانع لنا من أن نقول كلمة على ما وصلنا إليه والله المستعان.

الحكمة في استقبال القبلة تشمل فوائد وحكم سبع وإليك البيان.

(أولاً) إحياء لسنة سيدنا إبراهيم الخليل وولده إسماعيل عليهما الصلاة والسلام. لأنهما السبب في بناء الكعبة الشريفة وحتى لا تغيب ذكراهما عن أفئدة المسلمين.

(ثانياً) إن المسلم بتوجيه وجهه إليها وصرفه جميع الجوارح إلى جهة واحدة غير مضطرب ذات اليمين وذات الشمال يغرس ذلك في قلبه بذور الطمأنينة والخشوع والتثبت من الإيمان فلا ينصرف عن باب رحمة الله ولا يهيم في بوادي الهواجس والوساوس والأهواء ويبصر بعين القلب النور الساطع من معنى قوله تعالى: ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾[1] ولقد ورد في هذا المعنى حديث شريف من ضمن ما ورد وهو: «**إذا قام العبد إلى صلاته فكان هواه ووجهه وقلبه إلى الله عز وجل انصرف كيوم ولدته أمه**».

(ثالثاً) إن الإنسان طبع على تعيين الزمان والمكان اللذين يؤدّي فيهما عمله المعتاد على أدائه بحيث لو فقد هذا التعيين لاختل نظام عمله وفسدت عليه معيشته بسبب إجرائه عادته المألوفة باضطرابه وعدم ثباته. وكذلك الإنسان إذا لم يكن له جهة في أداء وظيفة العبادة وصار ينتقل بقلبه من جهة إلى جهة أخرى فقدت مزية الإخلاص في أداء الوظيفة وكان غير مستحق للأجر لأنه لم يؤدّها على الوجه المطلوب. فالله سبحانه وتعالى جعل لنا القبلة لنعرف الجهة التي يكون العمل مقبولاً باتباعها وحتى لا نكون مخيرين في اختيارها خشية الاضطراب والحيرة شأن من يحار عند اختيار الأشياء.

(رابعاً) إن توجيه المسلمين كلهم في مشارق الأرض ومغاربها إلى القبلة فيه من سعادة الدارين لأنهم بهذا يعلنون أنهم إخوان قد تآلفت قلوبهم واتحدت نياتهم وتوجهوا جميعاً نحو أمر واحد ألا وهو الكعبة المشرفة. وإنهم وإن كانت أماكنهم بعيدة ومتفرقة في الشرق والغرب وسائر الجهات. إلّا أن الكعبة هي نقطة دائرة اتحادهم التي تجمع حولها قلوبهم من أطراف البلاد. وهذا التآلف والمحبة نعمة كبرى من نعم الله تعالى على عباده.

---

(١) (٦) الأنعام: ٧٩.

ومن أجل ذلك قال تعالى ممتنا على عباده المؤمنين ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾[1].

(خامساً) إن الإنسان إذا أراد أن يظهر الإخلاص في عبوديته بعلامة مخصوصة محسوسة يراه الناس عموماً عين مكاناً يؤدي فيه هذا الولاء وهذا الإخلاص. وكذلك إذا وجه وجهه نحو القبلة وكانت الجوارح كذلك ساكنة والقلب حاضراً يكون المرء قد أدى الوظيفة التي أمر بها وأظهر الإخلاص في مكان معين حتى لا يكون هناك ريب ولا شك في تأديته إياها باضطرابه وعدم تعيين المكان.

(سادساً) إن المرء باستقبال القبلة حين ينادي المنادي بقوله. حيّ على الصلاة حيّ على الفلاح. مسرعاً يكون قد برهن على طاعة رسول الله التي هي طاعة الله سبحانه وتعالى. وأيضاً إن الكعبة المشرفة هي في بلد منشأ رسول الله ﷺ فتعظيماً لها يوجه المسلمون وجوههم نحوها لأنها أشرف الأمكنة في الأرض.

(سابعاً) إن باستقبال القبلة تذكير المسلمين بمحبة الله تعالى لرسوله الكريم. لأنه ﷺ لما رأى أن استقبال القبلة والتوجه إلى الكعبة خير من استقبال بيت المقدس وأخذ يقلب طرفه صوب السماء منتظراً الإذن من مولاه فمنحه الله ما يتمنى محبة منه له ﷺ وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾[2].

والحكمة في التوجه إلى بيت المقدس، أن العرب كانت في بدء الإسلام يولون وجوههم شطر الكعبة وفيهم المنافقون الغير الصادقين في إيمانهم. فأراد الله أن يظهر المنافقين من الصادقين حيث يقول في كتابه العزيز ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ ﴾[3].

ولما أمر الله بتوجيه الوجوه إلى بيت المقدس قد شق ذلك على العرب لصرفهم عن بيتهم الذي يقدسونه من قديم الزمان. فرحمة بهم أُمروا بالرجوع إلى الكعبة. وعند

---

(١) (٣) آل عمران: ١٠٣.
(٢) (٢) البقرة: ١٤٤.
(٣) (٢) البقرة: ١٤٣.

رجوعهم قال جماعة من الذين أسلموا: مرة ها هنا ومرة ها هنا ولو كان محمد على يقين من أمره لما تغير رأيه. وقد ارتدوا إلى الكفر. وقال المشركون: ما بالهم كانوا على قبلة ثم تركوها. ولذا يقول الله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ ﴾[1].

أما المسلمون الصادقون في إيمانهم فقالوا: يا رسول الله توفى إخواننا على القبلة الأولى فكيف حالهم. فنزل قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾[2] هذه هي الحكم والفوائد في استقبال القبلة جعلنا الله وإياك من أهل جنته وقبلته.

حكمة تنوع العبادات

قال الله تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ ﴾[3] نعم إذا اتخذنا مياه البحر مداداً وأغصان الأشجار أقلاماً وأديم الأرض صحيفة لما أحصينا نعم الله تعالى التي أنعم بها على عباده. ولما كانت العبادة متضمنة شكر الله تعالى على هذه النعم المتنوعة فكذلك كانت متنوعة فإذا عرفت أن الله تعالى أنعم عليك بنعمة السمع والبصر والصحة وأنعم عليك بأعظم نعمة وهي معرفته جلّ شأنه. فاعلم أيضاً أن تنوع العبادات من صوم وصلاة وزكاة وحج وهلم جرا قد فرضها الله على هذه الكيفية ليكون الشكر متنوعاً كما أن النعم متنوعة.

ولا يقال إن الشكر قد قام بحق النعم لأن النعم لا تحصى. وأما العبادات فإنها محدودة محصورة. ومن هذا نعلم أننا إذا صمنا النهار وقمنا الليل وأدينا جميع العبادات على أكمل وجه وأتم نظام فلا تقوم بواجب الشكر لله تعالى مهما طال العمر واتصلت الأيام.

حكمة الزكاة

إعلم أن الزكاة من أركان الإسلام. وقد فرضها الله في السنة الثانية من الهجرة. وقد ضرب الله مثلاً للذين ينفقون أموالهم في سبيل الله وهو قوله: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ

---

(١)(٢) البقرة: ١٤٢. (٢) (٢) البقرة: ١٤٣. (٣) (١٤) إبراهيم: ٣٤.

﴿أَمْوَالَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾[1].

يقول الله تعالى إن المنفق في سبيل مرضاته كمن يغرس بستاناً بمكان مرتفع فأصابه مطر غزير فأثمره مرتين في العام الواحد. ولما كان المطر سبباً في الإثمار يقول الله تعالى إن هذه الجنة إذا لم يصبها مطر غزير أصابها الطل وهو الذي يكون عادة مصيباً الأماكن المرتفعة كالهضاب والربوات. وإذا أصابها الندى فقد قام مقام المطر. فالجنة لا تعدم سبب الإثمار سواء نزل المطر أو لم ينزل. وكذلك الأمر في الإنفاق. أي أن المنفق في سبيل الله يجني ثمار هذا الإنفاق جنياً مضاعفاً من الثواب. وهذه الثمار يتفاوت مقدارها ولا ينقطع ما دام السقي حاصلاً سواء بالمطر أو الطل، وأن هذا النمو المفهوم من الآية الشريفة يشمل الثواب المضاعف والمال النامي الذي ينمو بسبب الزكاة.

روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما من صاحب غنم لا يؤدي زكاتها ألا بطح لها يوم القيامة بقاع قرقر تطأه بأظلافها وتنطحه بقرونها**» وروي عن النبي ﷺ أنه قال في مانعي زكاة الغنم والإبل والبقر والخيل. «**لألفين أحدكم يأتي يوم القيامة وعلى عاتقه شاة تبعر ويقول يا محمد يا محمد فأقول لا أملك لك من الله شيئاً ألا قد بلغت. ولألفين أحدكم يأتي يوم القيامة وعلى عاتقه بعير له رغاء فيقول يا محمد يا محمد فأقول لا أملك لك من الله شيئاً ألا قد بلغت. ولألفين أحدكم يأتي يوم القيامة وعلى عاتقه فرس له حمحمة فيقول يا محمد يا محمد فأقول لا أملك لك من الله شيئاً ألا قد بلغت**» والأحاديث كثيرة في هذا الباب قال معاذ رضي الله عنه: ليس في الدنيا خير من اثنين. رغيف تشبع به كبداً جائعة وكلمة تفرج بها عن ملهوف: وقد ذكر في البدائع ما يأتي:

إن أداء الزكاة من باب إعانة الضعيف وإغاثة الملهوف وإقدار العاجز وتقويته على أداء ما افترضه الله عز وجل عليه من التوحيد والعبادات والوسيلة إلى أداء المفروض.

والثاني: إن الزكاة تطهر نفس المؤدي من أنجاس الذنوب وتزكي أخلاقه بتخلق الجود والكرم وترك الشح والضن. إذ الأنفس مجبولة على الضن بالمال فتتعود السماحة

(١) (٢) البقرة: ٢٦٥.

وترتاض لأداء الأمانات وإيصال الحقوق إلى مستحقيها. وقد تضمن ذلك كله قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[1].

والثالث: إن الله سبحانه وتعالى أنعم على الأغنياء وفضلهم بصنوف النعمة والأموال الفاضلة عن الحوائج الأصلية وخصهم بها فيتنعمون ويتلذذون بلذيذ العيش. وشكر النعمة فرض عقلاً وشرعاً. وأداء الزكاة إلى الفقير من باب شكر النعمة فكان فرضاً. اهـ.

حكمة إخفاء الصدقة في الزكاة

أنت تعلم أن الإنسان إذا كان محتاجاً يكون ذليل النفس أمام من يرفع عنه هذا الاحتياج لأن احتمال المنن يوجب ذل النفس التي تميل إلى حب العزة. وأن أصعب شيء على الإنسان إراقة ماء الوجه لدى الحاجة. فأنت إذا رأيت فقيراً وكنت في جمع من الناس وأعطيته الحسنة جهاراً فقد أعلنت للناس فقره واحتياجه. وهذا يؤثر في نفسه تأثيراً سيئاً. فتنقلب الحسنة إلى سيئة، ويكون المنفق قد أساء من حيث أراد الإحسان. فإذا أنت أخفيت الصدقة تكون قد أحسنت من وجهين.

الأول: رفع عبء الاحتياج عن الفقير المسكين.

والثاني: كونك صنت ماء وجهه من أن يراق علناً أمام جماعة الناس. الأمر الذي يؤلم نفس الفقير ويزيده بلاء عظيماً أعظم من بلاء الفقر والفاقة والاحتياج.

من أجل ذلك أدّبنا الله سبحانه وتعالى بترغيبنا في إخفاء الصدقة بقوله: **﴿إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير﴾** هذه الآية الشريفة تفيد أن الصدقة حسنة سواء أكانت ظاهرة أو مخفية. ولكن حيث كان الإخفاء فيه مصلحة كما بينا حبب الله تعالى إلينا الإخفاء. اللهم إلا إذا كان الإظهار فيه مصلحة كأن يكون الإنسان قدوة لغيره في الكرم والجود.

وهناك حكمة أخرى في إخفاء الصدقة. وهي أن المحسن إذا أعطى علناً يكون عرضة لوصمة الرياء الذي هو الشرك الأصغر. زد على ذلك أنه يحبط الأعمال. وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ

---

(١) (٩) التوبة: : ١٠٣.

ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾[1] وقد قال ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله. إمام عادل. وشاب نشأ في عبادة الله. ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وافترقا عليه. ورجل قلبه متعلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يرجع إليه. ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله رب العالمين. ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه». وهذا الحديث الشريف يشير إلى شدة الترغيب في الإخفاء والإمعان في إخفاء الصدقة حتى أن الشمال لا تدري ما فعلت اليمين مع أنها أختها وبجانبها. وهذا الحديث يعتبر من جوامع الكلم.

يروى أن رجلاً من كُبار البيوت وأشراف الناس الذين أخنى عليهم الدهر وعضهم بنابه، قصد الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في اليوم الذي أعد لتفريق الأموال المقررة من بيت مال المسلمين لآل البيت النبوي والشجرة الطاهرة. فقدم ذلك الرجل بطاقة للحسين فيها يقول:

لم يبق عندي ما يباع ويشترى	يكفيك ظاهر منظري عن مخبري
إلا بقيــة مــاء وجــه صنتــه	عن أن يباع فنعم أنت المشتري

فما كان من الحسين رضي الله عنه وأرضاه إلا أنه قدّم له جميع الأموال التي أخذها من بيت مال المسلمين والتي كانت معدة للإنفاق عليه سنة كاملة وردّ له بطاقته بعد أن كتب على ظهرها قوله:

عاجلتنا فأتاك عاجل برنا	نذراً ولو أمهلتنا لم نقتر
فخذ القليل وكن كأنك لم تكن	بعت المصان وإننا لم نشتر

وبعد ذلك انصرف الرجل وكله ألسنة تفيض بالشكر والحمد. فانظر يا رعاك الله إلى هذا الكرم والجود والآداب النفسية السامية. ولكن لا غرابة في ذلك. فالحسين بن علي من سلالة السيدة فاطمة الزهراء بنت المصطفى ﷺ الذي علم الناس كيف يكون الكرم والجود ومكارم الأخلاق الفاضلة. وفقنا الله وإياك إلى البر والإحسان.

---

(١) (٢) البقرة: ٢٦٤.

ومما يروى عن السيدة فاطمة النبوية بنت الحسين رضي الله عنه، أنه لما حصلت النكبة لآل البيت المطهر من اليزيد بن معاوية وقد قصدوا المدينة فتوجه معهم رجل أمين من الشام. ولما وصلوا قالت السيدة فاطمة لإختها السيدة سكينة: قد أحسن هذا الرجل إلينا فهل لك أن تصليه بشيء. فقالت السيدة سكينة: والله ما معنا ما نصله به إلا ما كان من هذا الحلي. فقالت لها السيدة فاطمة: افعلي. فأتت له بسوارين ودملجين وبعثتا بهما إليه فردهما وأبى أخذهما وقال: لو كان ما صنعته رغبة في الدنيا لكان في هذا مقنع. ولكن والله ما فعلته إلا لله ولقرابتكم من رسول الله ﷺ. فانظر كيف يكون هذا الكرم في وقت نكبة لم يحصل مثلها في التاريخ الإسلامي.

الحكمة في أن الزكاة تمنع البخل

إعلم أن النفس ميالة إلى الحرص حتى أن الطفل الرضيع إذا أرضعت ظئره رضيعاً غيره تألمت نفسه وحاول جهده إبعاد ذلك الرضيع الآخر حتى ولو بالبكاء الذي هو عنوان عن تألمه. وكذلك الحال في الحيوانات فإنك ترى ولد البقرة مثلاً إذا زاحمه غيره في ثدي أمه نطحه وأبعده.

ولما كانت النفس كذلك وكان الجود مطلوباً جعلت الزكاة بمثابة رياضة للنفس وتمريناً لها على الكرم شيئاً فشيئاً حتى يصير الكرم لها عادة. وهذا أعظم جهاد للإنسان. لأن المال أعز على النفس منها. أي أنها تحب المال أكثر من حبها لنفسها. وقد قدّم الله تعالى في كتابه العزيز المال على البنين بقوله: ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾(١) لأن الإنسان يميل بطبعه إلى زينة الحياة الدنيا. فبالطبع يكون ميله إلى المال أكثر من ميله إلى باقي الأشياء.

فأنت إذا أعطيت الزكاة وجاهدت نفسك ومرنتها على الكرم تكون قد غسلت بهذا الجود وهذا التمرين جاهك وعرضك وأزلت عنه أخبث وصمة وهي البخل. وهنا ملاحظة لا بأس من ذكرها على سبيل الاستطراد، وهي أن البخل نتيجة عدم الثقة بالخالق الرازق لأنك إذا كنت تعلم أن هناك خالقاً رازقاً مخلفاً عليك ما أنفقته لم تمتنع عن إعطاء الفقراء والمساكين. وعلى هذا يكون الكرم نتيجة الإيمان الكامل. وهاك بعض ما ورد في ذم

---

(١) (١٨) الكهف: ٤٦.

البخلاء بالويل والشقاء، وهم الذين يمنعون الزكاة. قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾[1] وقال جل شأنه: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾[2] وقال: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾[3]، وقال عز وجل: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾[4]

وقال ﷺ: «لا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبداً» أعاذنا الله وإياكم من هذا الداء القاتل للعواطف والمروءة والإنسانية.

حكمة العدل في إخراج الزكاة

معلوم أن الزكاة فرض من فرائض الإسلام. وبما أن الإنسان إذا لم يؤدّ فرضاً من فرائض الصلاة على الوجه المطلوب تكون غير مقبولة ويكون آثماً. فكذلك الأمر في الزكاة. فإنك إذا لم تؤدّها من طيبات ما رزقك الله لم تكن مقبولة. وتكون قد أثمت. وفي هذا حكمة أخرى وهي أن الكريم بالمعنى الصحيح يجود بأحسن ما لديه لأنك إذا أعطيت الفقير ثوباً بالياً لا تكون قد أحسنت صنعاً لأنك تكون قد ضننت عليه بما هو خير منه. وإذا كان الإنسان لا يقبل منك إلا الحسن مما في يدك فكذلك الرب لا يقبل منك الصدقة إلا إذا حسنتها وهو الغني عنك.

---

(١) (٩) التوبة: ٣٤ ـ ٣٥.

(٢) (٧٤) المدثر: ٤٢.

(٣) (١٠٧) الماعون: ١.

(٤) (٦٩) الحاقة: ٢٥ ـ ٣٤.

ومعنى القبول ها هنا، هو إثباتك عليها حتى تعطيها وأنت محسن وحيث إن النفس ببخلها بما هو طيب تكون قد ظلمت نفسها إذ ساقتها إلى العقاب وحيث إن إنصافها هو إخراج الزكاة من الطيبات فإذن تكون عادلاً إذا جاهدتها وحملتها على إعطاء الحسن الطيب من كل ما فرضت فيه الزكاة.

وهاك بعض ما ورد في القرآن الشريف في هذا الصدد. قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾[1].

وهناك حكمة أخرى. وهي أن المرء إذا أدّى الزكاة من الطيبات وهو فرح مرتاح لفعله هذا عدّ كريماً حقيقة بالمعنى الصحيح ويوصف بكريم النفس. جعلنا الله وإياك ممن يجيب داعي الله في كل شيء.

حكمة أن أداء الزكاة فيها شكر الله

قالوا: إن النعمة متى شكرت قرت ومتى كفرت فرّت. واعلم أن شكر الله تعالى على نعمه يكون بلسانك والنطق. كأن تقول: الحمد لله. الشكر لله. ويكون أيضاً بالجوارح كفعل الصلاة من ركوع وسجود وقيام وقعود ورفع اليدين للتكبير. وكفعل الحاج من طواف ورمي الجمرات وسفر في البر والبحر لأجل الحج وقس على ذلك كل العبادات البدنية. لأن العبادات كلها على الإطلاق إنما هي شكر الله تعالى على نعمه التي لا تحصى كما قلنا في غير هذا الموضع. وإذا كان الأمر كذلك كان أداء الزكاة شكراً لله على نعمه العديدة التي أنعم بها عليك والتي منها إنقاذك من مخالب الفقر والفاقة. ولم يجعلك محتاجاً فقيراً ترسف في قيود من ذلّ السؤال وبخل اللؤماء سواء كان ذلك في الأعياد أو المواسم الأخرى التي تنظر فيها عينك الناس في زينتهم الوافرة. ولم يجعلك رث الثياب ممزق الجلباب خالي الوطاب. وهذه نعمة مضافة إلى النعم العظمى التي أنعم الله بها عليك.

ولا تنس أيضاً أن مدّ يدك بإعطاء الزكاة يزيد في مالك وينميه فكأن المال شجرة والسقيا له هو الزكاة. والله تعالى يقول: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[2] صدق الله العظيم.

---

(١) (٢) البقرة: ٢٦٧.

(٢) (١٤) إبراهيم: ٧.

حكمة أن أداء الزكاة دليل على رحمة القلب

إن كانت قسوة القلب من لؤم العواطف وخبث النفس فكذلك رحمة القلب من كرم النفس وشرف العواطف. وإذا كنت تعلم أن رحمة القلب من أعظم العواطف الإنسانية تعلم مقدار عطفك على الفقير وكيف تكون منزلتك في نفسه. وكيف يكون حاله إذا ذكر اسمك في أحد الأندية والجماعات. لا شك أنه يكون حسان مدحك. وسحبان شكرك. فعليك بإسداء البر رحمة بالفقراء فالراحمون يرحمهم الرحمن.

حكمة أن أداء الزكاة يديم النعمة

إعلم أن الدهر بالناس قلّب ولا يبقى غني على غناه، ولا فقير على فقره في الغالب كما هو مشاهد لذي عينين. فكم من ملك أصبح صعلوكاً. وصعلوك جلس على الأرائك ولبس الرياش الفاخرة، ومشت بين يديه الخدم والحشم. وإذا أردنا أن نضرب لك الأمثال على ذلك لملأنا المجلدات الضخمة.

وإذا كنت تعلم أن زينة الحياة الدنيا هي أحب شيء لديك فأنت بالطبع لا تحب زوالها. وإذا زالت عنك فقد نزل الموت الأحمر والعيش الأنجد. وإذا دامت لك فأنت السيد الرافل في حلل السعادة والهناء. وإذا كانت الزكاة تزيد المال كما قلنا في موضع آخر. فكذلك تنمّيه وتحفظه من الذهاب. إذ المال معرض للضياع، والتلف. فالذهب مشتق من الذهاب. والفضة من الانفضاض. وسمي المال مالاً لميل الناس إليه، ورغبتهم في أخذه منك وبعده عنك. ومثل ذلك كمثل من تعلم علماً وداوم على مذاكرته وتدريسه فإن الذاكرة تبقى مشحونة بهذا العلم. وإن تركه واشتغل باللهو واللعب ولغو القول وفحش الكلام؛ تسرّب هذه العلم من ذاكرته شيئاً فشيئاً حتى ينساه وتزول عنه هذه النعمة العظمى والحلية الجليلة نسأل الله دوام النعم، وزوال النقم.

ولا يعزب عليك أن من أسباب دوام النعم الكبرى دعاء الذين يحفظون الجميل والمعروف من الفقراء لك بالخير وزيادة النعمة ودوامها. ولا شك في أن الله يستجيب دعاءهم ويحفظ لك مالك من الضياع.

وهنا ملاحظة أخرى لا نرى بأساً من ذكرها. وهي أن أسباب زوال النعم كثيرة، وأن

من ضمن أسباب زوالها السرقة والسلب والنهب. وما يدريك أن هذا السارق السالب الغاصب الناهب هو رجل فقير ذو عائلة تحمله من العيش ما يرتكب لأجله هذه الجناية التي هو أعلم الناس بشناعتها منك. ولكنه اندفع إليها بعامل الفقر الذي يكاد يكون كفراً. فأنت إذا أخرجت الزكاة وبسطت يدك بالبر والإحسان تكون قد قبضت يده وحبست قدمه عن ارتكاب الجريمة أولاً. وتكون قد وطّدت دعائم الأمن العام. ثانياً: وتكون قد حفظت مالك من الضياع ثالثاً: لانقطاع دابر اللصوص الذين يسرقون بعامل الفقر والفاقة غالباً. وربما تعودوا اللصوصية إذا بخلت بالزكاة عليهم ودبت في نفوسهم عوامل الحقد والحسد. فأفقدوك المال والولد، ومدوا يدهم إلى الروح والجسد.

هذا وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾[1] ويقول رسول الله ﷺ: «**حصنوا أموالكم بالزكاة**» أدام الله علينا نعمته وكفانا شر نقمته بمنه وكرمه.

حكمة أن أداء الزكاة توجب الأمن في البلاد

إن اختلال الأمن في البلاد لهو الطامة الكبرى الذي لا تصاب بلد بمثله. لأنه يذهب بالأموال والأرواح معاً. ومهما أصيبت البلاد بالمصائب الأخرى من وباء وجدب وأزمة مالية، فإن فقدان الأمن هو مجموع تلك المصائب.

أنظر إلى اهتمام الدول بأمر السلام العام تجدها كلها مهتمة به. ولكن اهتمامها به مهما كان عظيماً ومهماً بذلت فيه من المساعي فإن عملها هذا يذهب بأدراج الرياح ما دام أهل الغنى والثروة يضنون بالمال على الفقراء والمساكين. وهم يرونهم في لباس الفقر المدقع. ويسمعون بآذانهم أنين الذين أذاقهم الفقر وألصقهم بالأرض ولا يرحمونهم ولا يعطفون على الطفل الذي لم يجد في ثدي أمه قطرة من اللبن يسد بها رمقه. ولا أمه التي يكاد حزنها على ابنها يفتت الأكباد. ولا على أبيه الذي لا تطفىء لهيب قلبه دموع عينيه ولو فاقت المطر في الانحدار.

إننا نسمع كل آن أن فلاناً الفوضوي قتل الملك الفلاني أو الوزير أو الغني أو المثري فلاناً. وليس حادث الفوضوي الذي قتل رئيس جمهورية فرنسا عنا ببعيد. إذ قال هذا

(١) (١٣) الرعد: ١٧.

الفوضوي قبل أن يقبض عليه للرئيس الآخر الذي انتخب بدل المقتول. أعطني ألف فرنك لأني السبب في حلولك منصب رئيس الجمهورية. ومن هنا تعلم أن الباعث الوحيد لهذا الفوضوي على قتل رئيس جمهوريته إنما هو الفقر.

يخرج الملوك وكبار الحكام في أوروبا وغيرها من القارات في جيش من الجند خوفاً على حياتهم من الفوضويين. حتى أن بعضهم يلبس الدرع من تحت الملابس حتى لا تؤثر فيه مدى ورصاص هؤلاء الفوضويين. ولو كانوا يعطون الفقراء من فضل ما أعطاهم الله لمشوا على أقدامهم من غير حرس وجند، ولخالطوا الفقراء في ذهابهم وإيابهم وهم آمنون. ترمقهم العيون بالإجلال. وتلقاهم القلوب بكل محبة وإخلاص. ولكان لهم من جودهم وعطفهم على الفقراء جند يمنعون عنهم كل مكروه. ولكن الطمع والجشع وحب هذه الدنيا الفانية جعل حياتهم دائماً في خطر ونفوسهم وأفكارهم في سجن ضيق من الخوف والرعب.

هذا من جهة الملوك والحكام وذوي الثروة الطائلة. وأما من جهة الأمة نفسها ومجموع الرعية فإنه فضلاً عن الفتك بأغنيائها بدافع الحسد والبغض فإن التلصص يكثر في البلاد فتنهدم دعائم الأمن بسبب السرقة والسطو فتقوم لذلك الحكومات وتقعد وتدبر وتفكر في استئصال شأفة اللصوصية وهي لا تزال تنمو وتزيد والحكومات في ارتباك وحيرة.

ولو أن هذه الحكومات فقهت وعرفت أن الباعث لهؤلاء اللصوص على اللصوصية التي يتسبب عنها في أغلب الأحيان القتل وإزهاق الروح لعممت المراسيم والمنشورات والنصائح في كل البلاد تنصح الأغنياء بأن يجودوا على الفقراء والمساكين بما لا يؤثر على ثروتهم وتفهمهم أنهم هم الذين في يدهم زمام الأمن واتحاد الرعية وسعادة وهناء الهيئتين الحاكمة والمحكومة.

إننا إذا دخلنا السجون وذهبنا إلى النفي الإداري وسألنا هؤلاء الذين قضى عليهم الزمن بالشقاء والسجن وحبس الحرية والبعد عن الأهل والوطن وصدقوا في الجواب لرأيناهم مساقين إلى ارتكاب هذه الجرائم الفظيعة بدافع الفقر والفاقة. وهنا سر خفي يغيب عن ذهن أغلب الناس في سبب انتشار اللصوصية. وهو أن الفقير إذا تلصص وتأصلت فيه عادة اللصوصية للفقر المستديم وسرت هذه العادة في أولادهم فينشأون على ما نشأ عليه آباؤهم. وهكذا تكون هذه العادة فيهم بالوارثة. حتى لقد يفتخرون بالسلب والنهب والقتل

وتأليف العصابات وإقلاق الراحة العمومية وهذا أمر مشاهد ومحسوس في القرى وبلاد الأرياف حتى في العواصم الكبيرة.

ونحن إذا ضربنا صفحاً عن قولنا للأمة اتحدي ونحن فوق المنابر وعن قولنا لها على لسان الصحف. وقلنا لها ذلك في كل جمع وحفل ثم عطفنا عنان القلم واللسان إلى الأغنياء وقلنا لهم جودوا بالمال على الفقراء والمساكين فجادوا لحصل الاتحاد وعمرت البلاد ونالت كل إسعاد.

هذا وإننا إذا قرأنا التاريخ خصوصاً تاريخ الأمة العربية في جاهليتها الأولى لوجدنا حروبها الداخلية التي كانت تذهب بالأرواح والأموال كان أغلبها مسبباً عن الفقر والفاقة. حتى لقد بلغت بهم الدرجة أن يقتلوا أولادهم خشية الإملاق. ومن أجل ذلك نهاهم الله في كتابه العزيز بقوله: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾[1] وفي آية أخرى يقول. ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ ﴾[2] إذا عرفت هذا عرفت الحكمة في فرض الزكاة حتى أن الشارع الحكيم قرر أن الأغنياء إذا امتنعوا عن أدائها أخذت منهم قهراً وإجباراً لأجل المصلحة التي تعود على الأمة في إخراج الزكاة. فما أعدل حكمة الشارع وما أحكمه وأعلمه بمصلحة العباد.

حكمة الفائدة العائدة على آخذ الزكاة وبيان مستحقيها

إعلم وفقك الله إلى فعل البر والإحسان وألهمك الشفقة على بني الإنسان، أن الفائدة العائدة على آخذ الزكاة ليست هي فقط سد عوزه من حيث القوت والمأكل والملبس. وإنما هناك حكمة أخرى في مشروعية الزكاة. وما أجلها من حكمة وما أعظمها من فائدة وإليك البيان.

يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾[3].

---

(١) (١٧) الإسراء: ٣١.
(٢) (٦) الأنعام: ١٥١.
(٣)(٩) التوبة: ٦٠.

إن الفقير هو الذي يملك قوت يوم واحد فقط. وأما المسكين فهو الذي لا يملك شيئاً أبداً. أو بعبارة أخرى هو الذي أخنى عليه الدهر وأوقعته مخالب الفقر والبؤس والفاقة. فالغني إذا عطف على الفقير والمسكين لا يفيدهما سد عوز الجوع فقط. بل يفيدهما فائدة أخرى لا تقل عن الأولى في الأهمية والفضل. وهي رفع ذل السؤال عنهما وإراقة ماء الوجه للأغنياء الذين يمدون إليهم أيديهم بالعطاء.

وإذا كان الأمر كذلك فما بالك بمن يمد يده بالسؤال للبخلاء واللؤماء الذين انتزعت الرحمة من قلوبهم فهي كالحجارة أو أشد قسوة. لا شك أن الفقير يفضل الموت على هذه الحالة. لأن الذل أشد ما تصاب به النفس في هذه الحياة. أعاذنا الله وإياك منه فهو أشد صعوبة من وقوع الصواعق. وأشد ما يكون من البلايا والرزايا. فإذا شئت أن ترى المروءة مجسمة فانظر إلى غني يسدي إلى فقير أو مسكين هذا المعروف الذي يستحق فاعله من الله والناس كل ثناء وأجر عظيم. وإذا شئت أن ترى اللؤم محسوساً فانظر إلى غني بخيل يقف أمامه الفقير أو المسكين ويبذل كلاهما له ماء الوجه ويمثل له الذل والمسكنة بأظهر تمثيل ثم يصرفه كاسف البال خجلاً محروماً مطروداً مكسور الخاطر.

والغني البخيل الذي يكون بهذه الأوصاف الشائنة المزرية كان في الغالب فقيراً في بادىء أمره ثم صار غنياً في وفرة من المال وصلاح الحال. فهو يتذكر أنه إذا أعطى شيئاً من ماله يفقد ذلك المال في قليل من الزمن. وما أحكم وأجل قول النبي ﷺ: **«لئن تضع يدك في فم التنين إلى المرفق فيقضمها خير لك من أن تسأل من لم يكن له شيء فكان له شيء»** صدق رسول الله. ومن كل ما تقدم تعلم الفائدة العظيمة على الصنف الأول.

روي أن الحسن والحسين رضي الله عنهما مرضا فعادهما رسول الله ﷺ مع أناس معه وقالوا: يا أبا الحسن لو نذرت على ولدك. فنذر علي كرم الله وجهه والسيدة فاطمة رضي الله عنها وجارية لهما إن شفاهما الله تعالى أن يصوموا ثلاثة أيام فشفيا. وما معهما شيء فاستقرض علي كرم الله وجهه ثلاثة أصوع من شعير فطحنت السيدة فاطمة رضي الله عنها صاعاً واختبزت خمسة أقراص على عددهم ووضعوها بين أيديهم ليفطروا. فوقف عليهم سائل فقال: السلام عليكم أهل بيت محمد مسكين من مساكين المسلمين أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة. فآثروه وأعطوه جميع الأقراص وباتوا ولم يتذوقوا إلا الماء وأصبحوا صائمين. فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقف على بابهم يتيم فآثروه ولم يتذوق علي ولا فاطمة بنت النبي ﷺ ولا الحسن ولا الحسين ولا الجارية في صيام ثلاثة

أيام غير الماء فلما أصبحوا أخذ علي بيد الحسن والحسين ودخلوا على رسول الله ﷺ فلما أبصرهم وهم يرتعشون من شدة الجوع قام وانطلق معهم فرأى فاطمة رضي الله عنها في محرابها تصلي وقد أضعفها الجوع وغارت عيناها فنزل قوله تعالى: ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ ﴾[1] فانظر بعين التأمل لأحوال بيت النبوة الأطهار.

أما العاملون عليها وهم الجباة الذين يجبونها ممن فرضت عليهم فإنهم إذا كانوا لم يأخذوا من الزكاة شيئاً يترتب على ذلك أمران.

الأول: الإهمال في الجباية وذلك يوجب عقابهم في الدنيا من يد ولي الأمر لعدم أداء الوظيفة كما يجب الأداء.

الثاني: تمهيد الطريق لهم في الخيانة. فإذا صرف لهم بعض من الزكاة استعانوا به على الجباية ولم يقصروا. وفي ذلك فائدة عظمى وهي رفع وصمة الإهمال عنهم وعدم فتح طريق الخيانة لهم فيؤدّون الوظيفة بأمانة. وأنت تعلم مقدار الأمين في الدنيا والآخرة. وهناك حكمة أخرى وهي أنهم إذا أعطيت لهم الزكاة وأدّوا الواجب في الجباية لم تتعطل المصلحة بقلة المال المسبب عن الإهمال الناشىء عن منع جزء من الخارج من الزكاة عنهم.

والخلاصة أن الفائدة العائدة على العاملين على الزكاة فيها مصلحة كبرى لهم ولباقي من فرضت الزكاة لأجلهم كما بينا.

أما المؤلفة قلوبهم وهم الفقراء الذين اعتنقوا الإسلام وهم لا يملكون من حطام الدنيا شيئاً فإنهم بإعطائهم نصيبهم من الزكاة يكون بقاؤهم على الإسلام مضموناً ورجوعهم عنه مأموناً. لأنهم إذا لم يجدوا ما يسدون به عوزهم ووجدوا في رجوعهم إلى الكفر والعياذ بالله سداً للفاقة عادوا إلى الكفر بدافع الجوع وحاجيات الحياة الضرورية. فإذا أخذوا نصيبهم من الزكاة كما قلنا تألفت قلوبهم على الإسلام وبقوا عليه.

وهناك حكمة أخرى. وهي: أن غيرهم من فقراء الكفار والمشركين إذا رأوا هؤلاء الذين كانوا قبل الإسلام في حالة سيئة من البؤس والفاقة وشظف العيش وبعد دخولهم في

(١) (٧٦) الإنسان: ٧ ـ ٩.

دين الإسلام رفع عنهم عبء الفقر والفاقة، رغبوا في الإسلام فاعتنقوه، إما لدفع الفقر والفاقة، وإما لجلال الإسلام في أعينهم. إذ الكفر والشرك لم يكن فيهما هذه العاطفة الشريفة والمروءة الكاملة. وبذلك يدخلون في دين الله أفواجاً وتكون حينئذٍ الفائدة العظمى.

وهنا ملاحظة لا نرى بأساً من ذكرها. وهي أن عيينة بن حصين الفزاري والأقرع بن حابس كانا من المؤلفة قلوبهم. وقد طلبا من سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه أرضاً فكتب بذلك كتاباً إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأخذته النعرة الدينية ومزق الكتاب وقال لهما: هذا شيء كان يعطيكموه رسول الله ﷺ تأليفاً لكما، فأما اليوم فقد أعز الله الإسلام وأغنى عنكما فإن شئتما على الإسلام وإلاَّ فبيننا وبينكم السيف: فرجعا إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه وقالوا له: أنت الخليفة أم عمر. بذلت لنا الخط فمزقه عمر. فقال رضي الله عنه: هو إن شاء: ووافقه ولم ينكر عليه أحد من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

قال بعضهم هذا من قبيل انتهاء الحكم بانتهاء سبب علته لا من قبيل النسخ، لأنه لا نسخ للأحكام بعد رسول الله ﷺ ولأن الإسلام كان في ذلك الوقت عزيزاً ذا سطوة لا يؤثر عليه ارتداد المؤلفة قلوبهم. إذ كثرة العدد والعزة والمنعة كل ذلك لم يكن باعثاً على إعطائهما شيئاً من الصدقات. وقال البعض الآخر ما معناه. إن هذا كان إجتهاداً من عمر رضي الله عنه. والآية باق حكمها بشأن المؤلفة قلوبهم، ولعل عمر رضي الله عنه رآهما في وفرة من المال وصلاح الحال ففعل ما فعل معهما.

وقد روى ابن سيرين عن عبيدة في القصة السابقة نفسها قال: جاء عيينة بن حصين والأقرع بن حابس إلى أبي بكر رضي الله عنه فقالا: يا خليفة رسول الله إن عندنا أرضاً سبخة ليس فيها كلأ ولا منفعة فإن رأيت أن تقطعناها لعلنا نزرعها ولعل الله أن ينفع بها بعد اليوم. فقال أبو بكر لمن حوله: ما ترونه فيما قالا، قالوا: إن كانت أرضاً سبخة لا ينتفع بها فنرى أن تقطعها لعل الله أن ينفع بها بعد اليوم: فأقطعهما إياها وكتب لهما بذلك كتاباً وأشهد عليه وعمر ليس في القوم. فانطلقا إلى عمر يشهدانه فوجداه قائماً بجوار بعير له يدهنه فقالا: إن أبا بكر يشهدك على ما في هذا الكتاب. فنقرأه عليك أو تقرأ. فقال: أنا على الحال التي تريانى. فإن شئتما فاقرآه وإن شئتما فانتظرا حتى أفرغ فأقرأه عليكما. قالا: لا بل نقرأه. فقرآه. فلما سمع ما في الكتاب تناوله من أيديهما ومحا ما فيه. فتذمر عيينة

والأقرع. فقال لهما عمر: إن رسول الله ﷺ كان يتألفكما والإسلام يومئذٍ ذليل وإن الله عز وجل أعز الإسلام اذهبا فاجهدا جهدكما لا رعى الله عليكما إن رعيتما. فأقبلا إلى أبي بكر وهما يتذمران. فقالا: والله ما ندري من الخليفة أنت أم عمر؟ قال أبو بكر: بل هو لو كان قد شاء. ثم أقبل عمر مغضباً ووقف على أبي بكر وقال: أخبرني عن هذه الأرض التي أقطعتها هذين أهي أرض لك خاصة أم أرض بين المسلمين عامة؟ ثم قال: فما حملك أن تخص بها هذين دون جماعة المسلمين؟ قال أبو بكر: استشرت هؤلاء الذين حولي فأشاروا علي بذلك. قال: أفكل المسلمين أوسعتهم مشورة؟ قال أبو بكر: قد كنت قلت لك أنك أقوى على هذا مني لكنك غلبتني. وقد ورد في البدائع ما يأتي:

وأما المؤلفة قلوبهم فقد قيل إنهم كانوا قوماً من رؤساء قريش وصناديد العرب مثل أبي سفيان بن حرب وصفوان بن أمية والأقرع بن حابس وعيينة بن حصين الفزاري والعباس بن مرداس السلمي ومالك بن عوف النضري وحكيم بن حزام وغيرهم ولهم شوكة وقوة وأتباع كثيرة بعضهم أسلم حقيقة وبعضهم أسلم ظاهراً لا حقيقة وكان من المنافقين. وبعضهم كان من المسلمين فكان رسول الله ﷺ يعطيهم من الصدقات تطييباً لقلوب المسلمين وتقريراً لهم على الإسلام وتحريضاً لأتباعهم على اتباعهم وتأليفاً لمن لم يحسن إسلامه وقد حسن إسلام عامتهم إلا من شاء الله تعالى لحسن معاملة النبي ﷺ معهم وجميل سيرته. حتى روي عن صفوان بن أمية أنه قال: أعطاني رسول الله ﷺ وأنه لأبغض الناس إليّ فما زال يعطيني حتى أنه لأحب الخلق إليّ.

واختلف في سهامهم بعد وفاة رسول الله ﷺ قال عامة العلماء أنه انتسخ سهمهم وذهب ولم يعطوا شيئاً بعد النبي ﷺ ولا يعطى الآن لمثل حالهم وهو أحد قولي الشافعي رضي الله عنه. وقال بعضهم وهو أحد قولي الشافعي أيضاً: إن حقهم بقي وقد أعطى من بقي من أولئك الذين أخذوا في عهد النبي ﷺ والآن يعطى لمن حدث إسلامه من الكفرة تطييباً لقلبه وتقريراً له على الإسلام، وتعطى الرؤساء من أهل الحرب إذا كانت لهم غلبة يخاف على المسلمين من شرهم. لأن المعنى الذي كان له يعطي النبي ﷺ أولئك موجود في هؤلاء. والصحيح أن قول العلماء لإجماع الصحابة على ذلك. فإن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ما أعطيا المؤلفة قلوبهم شيئاً من الصدقات ولم ينكر عليهما أحد من الصحابة رضي الله عنهم. فإنه روي أنه لما قبض رسول الله ﷺ جاؤوا إلى أبي بكر واستبدلوا الخط منه لسهامهم فبدل لهم الخط ثم جاؤا إلى عمر رضي الله عنه وأخبروه بذلك فأخذ الخط من

بين أيديهم ومزقه وقال: إن رسول الله ﷺ كان يعطيكم ليؤلفكم على الإسلام فأما اليوم فقد أعزّ الله دينه فإن ثبتم على الإسلام وإلا فليس بيننا وبينكم إلا السيف: فانصرفوا إلى أبي بكر وأخبروه بما صنع عمر رضي الله عنه وقالوا: أنت الخليفة أم هو. فقال: إن شاء الله هو: ولم ينكر أبو بكر قوله وفعله. وبلغ ذلك الصحابة فلم ينكروا فيكون إجماعاً على ذلك. ولأنه ثبت باتفاق الأمة أن النبي ﷺ إنما كان يعطيهم ليؤلفهم على الإسلام. ولهذا سماهم المؤلفة قلوبهم والإسلام يومئذٍ في ضعف وأهله في قلة. وأولئك كثير ذو قوة وعدد واليوم بحمد الله عزّ الإسلام وكثر أهله واشتدت دعائمه ورسخ بنيانه وصار أهل الشرك أذلاء والحكم متى ثبت معقر لا بمعنى صحيح خاص ينتهي بذهاب ذلك المعنى: اهـ.

أما الفائدة العائدة على المكاتب وهو العبد المملوك لك فإنها أعظم أجراً وفضل مسديها أكبر. لأنك تعلم أن ذلّ العبودية لا يفوقه ذلّ كما أن عز الحرية لا يعادله عز. وانظر إلى الأمم المستعبدة التي تبذل في سبيل خلاصها كل مرتخص وغال وتريق لأجل ذلك الدماء وتحدث الثورات لأجل أن تخلص من ربقة الاستعباد.

وإن من القواعد الأساسية لدى أهل النظر أن الصفات التي يتصف بها مجموع الأمة توزع على الأفراد. فالأمة الذليلة في مجموعها يكون كل فرد ذليلاً بالاستعباد. وإذا كان الأمر كذلك فإن العبد المملوك لا أمنية له في الحياة إلا الخلاص من هذا القيد والنهوض من تحت هذا العبء الثقيل. فإخراج الزكاة له يمكنه منها دفع القيمة التي قررها أو يقررها عليه مولاه لعتقه إذا أدّاها. وبذلك ينال نعمة الحرية وهي من أجلّ النعم ومسديها لا يساويه أحد في الكرم.

وأما الغارمون وهم المدينون الذين أثقلتهم الديون ولم يجدوا ما يسدون به ما عليهم للدائنين. فإن أحدهم مهما كان كريم العنصر عالي الهمة شريف النفس شجاعاً مقداماً فإنه يرى نفسه أمام دائنه حقيراً ويراه أعز منه مهما كان صغيراً وضيعاً خصوصاً إذا كان لئيم النفس يطالبه بالدين بفظاعة وغلظة ووقاحة فإن مصيبته تكون أعظم وأدهى وأشأم. فإذا أخرجت له القيمة التي استدانها ودفعها للدائن فقد فرجت عنه الكربة وزال عنه الهم والغم وكان ذلك بمثابة عتق له من رق استعباد الدائن. وهذه منفعة كبرى وصلت إليه وحصلت لديه.

أما إخراج الزكاة في سبيل الله فقل في فضلها ما شئت وحدث عن الذين يخرجون زكاة أموالهم ولا حرج ولو لم يكن هناك سبب لإخراج الزكاة إلا هذا السبب في وجوب

إخراجها لكفى. لأن إخراجها للفقير والمسكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم والمكاتبين والغارمين وابن السبيل قد يقال إنها في مصلحة أفراد مخصوصين فإذا كان إخراج الزكاة إعانة للمجاهدين والمرابطين في الثغور لأجل العدو المهاجم الذي يريد سلب الملك واغتصاب الوطن ولم يبذل لهم من الأموال ما يعينهم فقد ضاع الوطن وتمكن العدو من قهرهم: وسيأتي بيان كل ذلك في محله في الجزء الثاني من هذا الكتاب في باب حكمة الجهاد.

وأما ابن السبيل وهو المسافر الغريب المنقطع عن وطنه وأهله ولم يجد ما يستعين به على الوصول إلى أهله. فإنه يكون في همين: همٌ احتياجه للقوت، وهم احتياجه للوصول إلى أهله وولده ووطنه. وإذا أردت أن تعرف مقدارهمّ ابن السبيل فصور في مخيلتك رجلاً ذا أولاد وأهل وبلاد تهواها نفسه وتصبو إليها روحه وهو بعيد عنهم ولا يقدر على الوصول إليهم. فإذا كان قلبك قد قدّمن الصخر الصلد دبت فيه عوامل الشفقة والرحمة والحنان. والراحمون يرحمهم الرحمن.

هذا يا أهل الحجا واللب الشريف والعقل الراجح بعض ما يعود على آخذ الزكاة ومعطيها من الفوائد العظيمة والنعم الجسيمة والله أعلم وإليه المرجع والمآب.

حكمة فرض الزكاة في أنواع مخصوصة

إن الشارع الحكيم قد فرض الزكاة في أنواع مخصوصة دون أنواع أخرى مما يملكه الإنسان لحكمة بالغة. وهي الرأفة والرحمة والشفقة على مخرجها وهاك البيان.

أنت تعلم أن المال اسم جامع لكل ما تحويه يدك وتمتلكه من نقود وأطيان ومنازل وأنعام ورياش وثياب ومنقولات وهلم جرا من جميع الممتلكات. ولكن الشارع الحكيم فرض الزكاة في أربعة أصناف فقط: وهي: الذهب والفضة. ثم الزرع. ثم الأنعام. وهي البقر والغنم والإبل. ثم التجارة. لأن هذه الأصناف هي التي يكثر نموها ونفعها للإنسان أكثر من غيرها من سائر الأموال وهي أكثر الأموال المتبادلة بين الناس. وهي أيضاً أنفع للإنسان في المواساة ودفع الفاقة. والشارع قسم الزكاة بأقدار مختلفة في كل صنف منها. حتى يكون العدل أتم والمصلحة مضمون نفعها لدى مخرج الزكاة. فتراه فرض الزكاة في الأنعام السائمة التي ترعى في الأرض بدون كلفة ولا مشقة. بحيث تمكث أغلب أيام العام وهي ترعى في المروج والحقول. ولا شك أن رفع الكلفة في أكلها وعلفها نعمة كبرى من

الله جلّ شأنه. وجعل الزكاة فيها ولم يفرضها في التي تكلفك مصاريف العلف والأكل رحمة وشفقة بالعباد.

أما الزرع الذي يسقى بماء السماء ولا يكلفك مشقة السقيا فقد فرض فيه العشر. ولما كان الزرع الذي يسقى بغير ذلك يكلف الإنسان مشقة ونصباً وتعباً كبيراً جعل فيه الشارع نصف العشر رحمة بالناس.

ثم لم تفرض الزكاة في الفواكه التي لا تمكث قليلاً من الزمن حتى تعفن وتفسد. وهي رحمة وشفقة من الشارع الحكيم. أما الذهب والفضة فإن الذي يحصل فيه النمو ولو تقديراً كالنقود والحلي التي يتجر فيها فقد فرض فيها الزكاة دون حلية السيف والسرج مما هو مباح شرعاً.

وأما الركاز وهو الكنز المدفون ففيه الزكاة وهو الخمس. لأنه حصل عليه الإنسان بغير مشقة ونصب. وأما البضائع التي يتجر فيها فقد فرض فيها الزكاة لما فيها من النمو والمنفعة. وحكم زكاة كل مما تقدم مذكور في فروع الفقه. فانظر بعين الحكمة تجد أن الشارع لم يفرض الزكاة في سائر الأنواع الأخرى مما يمتلكه الإنسان. وهي حكمة بالغة في تخصيص أنواع الزكاة.

حكمة إسقاط الزكاة في الخيل

إن الشارع الحكيم لم يفرض الزكاة في الخيل مهما كان عددها. وتجده قد فرضها على خمس من الإبل. لأن الإبل إنما وظيفتها أن يؤكل لحمها ويشرب لبنها وتحمل عليها الأثقال في السفر والحضر إلى غير ذلك من المنافع الأخرى. وأما الخيل فلما كانت الحاجة إليها ماسة لعموم الأمة الإسلامية وهي أقوى عدة للمسلمين في الجهاد وحفظ الثغور وإعلاء كلمة الله تعالى لم يفرض فيها الزكاة. وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[1] فجعل الله رباط الخيل مثل السلاح وفي منزلته في الحرب. هذه هي الحكمة البالغة في رفع الزكاة عن الخيل مهما كثرت.

---

(١) (٨) الأنفال: ٦٠.

حكمة إسقاط الزكاة في البغال والحمير

إعلم أن الإنسان في حاجة كثيرة إلى هذين الصنفين في كثير من حوائجه الأصلية كحمل الأثقال والخدمة والانتقال عليهما من بلد إلى آخر وهلم جرا من المنافع العظيمة التي تعود على بني الإنسان بواسطتهما.

من أجل ذلك لم يجوز الشارع الحكيم ولم يأمر بأخذ الزكاة في هذين الصنفين رحمة بنا وشفقة علينا. سواء أكانت سائمة أو غير سائمة. لأن المقصود منها الحمل والركوب لا الدر والنسل. إلا إذا كانت للتجارة فإن الزكاة تؤخذ فيها وتكون مثل عروض التجارة سواء بسواء. وقد ذكر في البدائع ما يأتي.

وأما البغال والحمير فلا شيء فيها وإن كانت سائمة لأن المقصود منها الحمل والركوب لا الدر والنسل. لكنها قد تسام في وقت الحاجة لدفع مؤنة العلف. وإن كانت للتجارة تجب الزكاة فيها: اهـ وهذه حكمة عظيمة تعود على بني الإنسان بالنفع العظيم والخير الجسيم.

حكمة زكاة الفطر

لما كان الصائم الذي قضى شهر رمضان المعظم صائماً موفقاً إلى الخيرات وأداء هذه الفريضة قد طهر نفسه بإبعادها عن المحرمات فلأجل أن تكون الطهارة على أكمل الوجوه التي شرعت. فرضت زكاة الفطر حتى يكون الأجر أعظم والثواب أنفع. وهناك حكمة أخرى وهي أن الصائم بامتناعه عن الطعام في بياض نهاره في رمضان عرف مقدار حرارة الجوع. فهو يطعم الفقير والبائس المسكين في هذا اليوم المبارك شكراً لله تعالى على نعمة الغنى إذ لم يحوجه إلى أحد في هذا اليوم العظيم الذي يكون فيه المسلمون في سرور وحبور. فإعطاء زكاة الفطر للفقير والمسكين فيه رفع لمشقة الجوع وتخفيف التأثير الذي يكون في نفس الفقير. إذ يرى غيره في هذا اليوم في زينة من الملبس وشبع من المطعم. وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**أغنوهم عن المسألة في مثل هذا اليوم**».

والحكمة في أن الزكاة نصف صاع من بر ويكون مضاعفاً في الشعير والتمر لأن البر أغلى ثمناً في سائر الحبوب غالباً. ولا يخفى أيضاً أن نصف الصاع من البر يكفي أكل الرجل في عامة نهاره وأيضاً يمكنه أكل هذا المقدار إذا خبز بغير إدام وطعام. وأما غير البر كالشعير مثلاً فإنه جعل صاعاً لأن ثمنه أقل بكثير من ثمن البر ولأن الفقير لا يقدر على

تناوله وأكله بغير إدام وطعام. فهو يبيع نصفه ليشتري طعاماً مثلاً يستعين به على أكل النصف الآخر. وكذلك الأمر في التمر يبيع نصفه ويشتري به خبزاً يأكل به.

فانظر حكمة العليم الخبير بأمور عباده الرحيم على الفقراء تجد أن هذا القدر المفروض في زكاة الفطر لا يرهق الغني من أمره عسراً.

حكمة جواز صرف الصدقة إلى الذمي

إن الذمي هو الذي يكون بينه وبين المسلمين عهد به يحفظ نفسه وعرضه وماله. وله ما للمسلمين وعليه ما عليهم. وفي هذه الحالة يجوز للمسلم أن يصرف صدقة إلى هذا الذمي. لأن الصدقة تعتبر في الحقيقة من إيصال البر والإحسان. فإذا ما رأى الذمي هذا العطف والبر والإحسان نحوه من المسلم عظم في قلبه الإسلام ومال إليه بجميع جوارحه. وربما اعتنقه. وبذلك يخرج من الظلمات إلى النور، وهذه نعمة كبرى تعود عليه. وسببها هو الإسلام نفسه وأحكامه الشريفة المنزلة من عند الله الحكيم الخبير. وذكر في البدائع ما يأتي.

إن صرف الصدقة إلى أهل الذمة من باب إيصال البر إليهم وما نهينا عن ذلك قال الله تعالى: ﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾[1] وظاهر من هذا النص أنه يقتضي جواز صرف الزكاة إليهم إلا أنه غير مراد. عرفنا كل ذلك بحديث معاذ رضي الله عنه. وهو قوله ﷺ: «خذها من أغنيائهم وردها في فقرائهم» أمر ﷺ بوضع الزكاة في فقراء من يؤخذ من أغنيائهم وهم المسلمون. فلا يجوز وضعها في غيرهم. والحكمة في عدم جواز صرف الصدقة إلى الحربي لأن في ذلك الصرف يكون إعانة له على قتالنا وعدة لهم علينا وهذا لا يجوز. بل هو من الكبائر التي نهانا الشارع الحكيم عنها وهذا المعنى لم يوجد في الذمي.

فانظر حكمة العليم الخبير بأحوال عباده.

حكمة تحريم الزكاة على المصطفى

وآل بيته

إعلم أن الزكاة هي بمنزلة الماء الذي تغسل به عنك الأوساخ والأدران حتى تكون

(١) (٦٠) الممتحنة: ٨.

طاهر البدن والثياب. لأن الذنوب هي أوساخ معنوية. ولا شك في أن الماء بعد أن تغسل به النجاسات يكون نجساً فلا يجوز لك أن تعطي هذه الأموال لمن عرضت عليه الجبال أن تكون ذهباً فأبى. ولا لمن هم أقاربه وأهل بيته المشرف للشرف الذي اكتسبوه منه. لأن هذا دليل على سوء الأدب. وأيضاً أن الحقيقة اللغوية في الزكاة هي الطهارة. وهذا يؤيد أن الزكاة كالماء الكدر النجس ولا يليق لسيد الكائنات وآل بيته المطهر أن يأخذوا من هذه الأموال. وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[1] يعني خذها من أغنيائهم وردها على فقرائهم.

ولرب قائل يقول هذا فيما يختص بذاته الشريفة فكيف يكون حال أهل بيته. فنقول له إن عدم إعطائهم الزكاة للسبب المتقدم من أنها أوساخ الناس. ولأن لهم نصيبهم في الغنيمة والفيء. وحتى لا يتقول المتقولون أعداء الله ويقولون إن همّ الرسول إطعام نفسه وأهل بيته لا الرسالة. ومن أجل ذلك قال الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[2] يعني أن التبليغ والإرشاد وكل ما بعث من أجله المصطفى ﷺ ليس له أجر عليه يقتضيه منا. وأجره هو المحبة لآل بيته الطاهر وذوي قرباه فقط. وهذا لا يمنع من أن يأخذ أهل البيت النبوي نصيبهم في الغنيمة والفيء كما سنبين لك مفصلاً في الغنيمة والفيء في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

وهناك حكمة أخرى في أن رسول الله ﷺ لا تحل له الزكاة وهي أن المشركين ظنت الظنون وتقولت الأقاويل لأنه كان يأخذ نصيبه من الغنائم والفيء. فكيف إذا أضاف إلى ذلك الزكاة؟ لا شك أن الظنون تقوى ويقال إنما هو طالب مال لا نبي مرسل لإرشاد الخلق. وهناك حكمة أخرى، وهي أن النبي ﷺ هو القدوة الأولى للناس في أمور دينهم ودنياهم. فإذا أخذ الزكاة مع كونه أغنى الناس نفساً كما بينا لاقتدى به كثير من الناس. وبذلك يكسل الناس عن مباشرة الأعمال والأخذ في أسباب المعاش فتتعطل مصالح الأمة ويكثر العاطلون ويختل نظام العمران.

ولرب قائل يقول: كيف الحال إذا رأينا أحداً من أهل البيت النبوي الشريف عاري الجسد طاوي الحشى من الجوع وكان في القدرة كسوته وإشباعه. فنقول له نعطيه شيئاً على

---

(١) (٩) التوبة: ١٠٣.

(٢) (٤٢) الشورى: ٢٣.

سبيل الهدية. ولا مانع منها ليحيي بذلك نفسه حتى يتمتع بنعمة الحياة. ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً. وفي إعطائه الهدية إظهار للمحبة والمودة التي كلتاهما مطلوبة منا لأهل بيت النبوة رضي الله عنهم أجمعين. وروي عن رسول الله ﷺ إنه قال: «**يا بني هاشم إن الله كره لكم غسالة الناس وعوضكم عنها بخمس الخمس من الغنيمة**» وروي عنه ﷺ أنه قال: «**إن الصدقة محرمة على بني هاشم**» ويروى أنه رأى في الطريق تمرة فقال: «**لولا أني أخاف أن تكون من الصدقة لأكلتها**» ثم قال: «**إن الله حرّم عليكم يا بني هاشم غسالة أيدي الناس**» وذكر في البدائع ما يأتي:

والمعنى ما أشار إليه أنها من غسالة الناس فيتمكن فيها الخبث فصان الله تعالى بني هاشم عن ذلك تشريفاً لهم وإكراماً وتعظيماً لرسول الله ﷺ. وبنو هاشم الذين تحرم عليهم الصدقة هم آل العباس. وآل علي. وآل جعفر. وآل عقيل. وولد الحارث بن عبد المطلب رضي الله عنهم أجمعين.

الحكمة في أن الملوك لو أخذوا
الصدقات والعشور والخراج تسقط عن أربابها

إعلم وفقك الله لفهم شريعته أن للإمام حق المطالبة بأداء الزكاة من الذين وجبت عليهم بدليل قوله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[1]، والآية الشريفة نزلت في الزكاة. وعلى ذلك عامة أهل التأويل. ولا خلاف في أن الزكاة تسقط عن صاحبها إذا دفعت للإمام أو عماله إنما الخلاف وقع في دفعها لغير الإمام والحق أنها تسقط. وذكر في البدائع ما يأتي.

وأما سلاطين زماننا الذين إذا أخذوا الصدقات والعشور والخراج ولا يضعونها مواضعها فهل تسقط هذه الحقوق عن أربابها؟ اختلف المشايخ فيه. ذكر الفقيه أبو جعفر الهندواني: إلى أنه يسقط ذلك كله. وإن كانوا لا يضعونها في أهلها. لأن حق الأخذ لهم فيسقط عنا بأخذهم ثم إنهم إن لم يضعوها مواضعها فالوبال عليهم. وقال الشيخ أبو بكر بن سعيد: إن الخراج يسقط ولا تسقط الصدقات. لأن الخراج يصرف إلى المقاتلة وهم

---

(١) (٩) التوبة: ١٠٣.

يصرفون إلى المقاتلة ويقاتلون العدو. ألا ترى أنه لو ظهر العدو فإنهم يقاتلون ويذبون عن حريم المسلمين. فأما الزكوات والصدقات فإنهم لا يضعونها في أهلها. وقال أبو بكر الإسكافي: إن جميع ذلك يسقط ويعطى ثانياً لأنهم لا يضعونها مواضعها. ولو نوى صاحب المال وقت الدفع أن يدفع إليهم ذلك عن زكاة ماله قيل يجوز لأنهم فقراء في الحقيقة، ألا ترى إنهم لو أدّوا ما عليهم من التبعات والمظالم صاروا فقراء. وروي عن أبي مطيع البلخي أنه قال: تجوز الصدقة لعلي بن عيسى بن هامان، وكان والي خراسان. وإنما قال ذلك لما ذكرنا. وحكي عن أمير بلخ سأل واحداً من الفقهاء عن كفارة يمين لزمته فأمره بالصيام فبكى الأمير وعرف أنه يقول: لو أدّيت ما عليك من التبعات والمظالم لم يبق لك شيء: وقيل إن السلطان لو أخذ مالاً من رجل بغير حق مصادرة فنوى صاحب المال وقت الدفع أن يكون ذلك عن زكاة ماله وعشر أرضه يجوز ذلك والله أعلم.

حكم
مأثورة عن بعض ملوك الفرس

قال: سرت في نور الشمس والقمر والمصباح فلم أستضىء بشي أذكى من قلبي.

وقد وقعت من أبعاد مختلفة فلم يرهقني شيء مثل سقطات لساني.

ومشيت على الجمر ووطأت الرمضاء فلم أر ناراً أحر عليّ من غضبي.

وشربت المر ولعقت الصبر فلم أذق أمر من الفقر.

ونقلت الصخور وحملت الأثقال فلم أحمل أثقل من الدين.

وتحملت ذل السجن وذل العشق فلم أر أشد إيلاماً للنفس من ذل السؤال.

وشددت في القيود وجلدت بالسياط فلم يهدمني سوى الحزن ولم يقهرني سوى الغم.

وتصدقت بالذخائر وبذلت في العطايا فلم أر صدقة أنفع من رد ذي ضلالة إلى هدى.

حكمة الصوم

الصوم هو أحد أركان الإسلام الخمسة التي بني عليها الإسلام وينقسم إلى لغوي وشرعي. أما اللغوي: فهو الإمساك المطلق عن أي شيء كان. فسمي الممسك عن الكلام

وهو الصامت صائماً كما قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾[1] أي صمتاً. ويسمي الفرس الممسك عن العلف صائماً قال الشاعر:

خيل صيام وخيل غير صائمة   تحت العجاج وأخرى تعلك اللجما

والصوم الشرعي: هو الإمساك عن الأكل والشرب والجماع نهاراً مع النية. وحكمة مشروعيته لا تقل في العظم والفضل عن حكمة مشروعية باقي الأركان.

وإننا وإن كنا نشرح الحكمة في مشروعية هذه الأركان فإن ذلك بقدر ما وقفنا عليه في مظانه. وما وصل إليه الفكر واهتدى إليه العقل. وإلا فإن الحكمة بمعناها الحقيقي وأقصى ما يكتب في وصفها تتضاءل دونها أقلام البلغاء وأفكار العلماء والحكماء والفلاسفة في كل زمان ومكان. وعلى هذا نقول والله سبحانه وتعالى هو المستعان.

فرض الصوم في شهر شعبان المعظم من السنة الثانية من الهجرة والحكمة في مشروعيته من جملة وجوه. فهي.

أولاً: شكر الله تعالى من حيث كونه عبادة. وقد بينا في غير هذا الموضع أن العبادة مطلقاً شكراً من العبد لمولاه على النعم التي لا تحصى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[2].

وثانياً: لأجل أن يعلمنا الشارع الحكيم كيف نحافظ على أداء الأمانة ولا نضيعها أبداً ولا نفرط فيها. وذلك الأمر بالإمساك عن الطعام والشراب وما في حكمهما بياض النهار هو بمنزلة أمانة أودعها الله تعالى ذمتك. وهذه الأمانة تقتضي في المحافظة عليها أتعاباً ومشاق كثيرة تجهد النفس وتتعب الأعضاء. فإذا ما خلا الإنسان بنفسه في مكان منفرد وقد بلغ به الجوع والظمأ جهد الطاقة ففي هذه الحالة يمكنه أن يأكل ويشرب ولا رقيب عليه فإذا ما أمرته نفسه الأمارة بالسوء أن يأكل ويشرب وحسنت له ذلك قائلة: كل واشرب فليس عليك رقيب. وأطاعها فقد خان الأمانة وحقت عليه كلمة العذاب. وأنت تعلم مقدار عقوبة الخائن في الدنيا والآخرة.

والحكمة الثالثة: أن البهيمة وهي التي لا همّ لها إلا الأكل والشرب وما في حكمهما من تناول الملاذ وما تصبو إليه البهائم من مأكل ومشرب ونكاح وغير ذلك. فإذا ما حبس

(١) (١٩) مريم: ٢٦.
(٢) (١٤) إبراهيم: ٣٤.

الإنسان نفسه البهيمية عن كل هذه الملاذ التي هي من شأن البهائم ثم صفت نفسه وخلصت روحه من صفة البهيمية صار إلى الملكية أقرب. وفي هذه الحالة يكون ما يؤدّيه من العبادات الأخرى يؤدّيه بإخلاص نفس خلصت من شوائب الريب والغير. وإنك أيضاً تجد الحكماء والفلاسفة وأهل الزهد والعبادة في جميع الملل والنحل إذا أرادوا تأليفاً في علم أو أداء عبادة حبسوا البطن عن الإكثار من الطعام حتى تكون لهم قدرة في تأدية ما يريدون.

الحكمة الرابعة: إن الأطباء أشاروا وقالوا إن الإنسان لا يأكل بجشع ولا يكثر من الطعام لأن ذلك يحدث للمعدة الداء العضال كما ورد: (**المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء واعط كل بدن ما عودته**) وقال بعض الحكماء: من أكل كثيراً شرب كثيراً ومن كان كذلك نام كثيراً ومن كان كذلك ضاع عمره: هذا وقد وقفنا على رسالة لبعض أفاضل العلماء يقول إن ما ورد من قوله: (**المعدة بيت الداء. الخ**) من الأحاديث الموضوعة وهو من كلام بعض أطباء العرب. ولكن من الأسف أن قوله هذا وكذا من نقل عنه يخالف المنصوص. فقد جاء في تفسير القرآن الشريف للإمام حافظ الدين عبد الله بن أحمد النسفي المتوفى سنة ٧٠١ هـ عند قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾[1] قوله: كان للرشيد طبيب نصراني حاذق فقال لعلي بن الحسين بن واقد. ليس في كتابكم من علم الطب شيء والعلم علمان. علم الأبدان، وعلم الأديان. فقال له علي: قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابه وهو قوله: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ فقال النصراني. أو لم يرو عن رسولكم شيء في الطب. فقال: قد جمع رسولنا الطب في ألفاظ يسيرة. وهي قوله عليه السلام: «**المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء واعط كل بدن ما عودته**» فقال النصراني ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجلينوس طباً. اهـ من الجزء الأول ص ٤٠١ وإنا نسوق ذلك لبيان الحقيقة ولنرجع إلى موضوعنا.

وإنك ترى الطبيب إذا أراد أن يعطي مريضاً الدواء أخلى جوفه من كل شيء ثم باشر التطبيب أو أعطاه طعاماً خفيفاً على المعدة كاللبن مثلاً. فالصوم من حيث هو إمساك عن الطعام والشراب فيه صحة للبدن.

الحكمة الخامسة: هي أضعاف شهوة الجماع تلك الشهوة التي يستوي فيها الإنسان

---

(١) (٧) الأعراف: ٣١.

والحيوان والتي تجد النفس من مقاومتها مشقة. فإذا كان الإنسان فقيراً مثلاً ولا قدرة له على الزواج وخاف على نفسه الوقوع في جريمة الزنا فإنه يصوم حتى تضعف الشهوة وترفع عنه مؤنة مصاريف الزواج. ومن أجل ذلك قال رسول الله ﷺ: «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء**».

الحكمة السادسة: إن الإنسان إذا صام وذاق مرارة الجوع حصل عنده عطف ورحمة على الفقراء والمساكين الذين لا يجدون من القوت ما يسدون به الرمق. ولقد ورد أن سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام كان لا يأكل ولا يتناول طعاماً إلا إذا اشتدّ عليه الجوع لأجل أن يتذكر البائس الفقير، والمحتاج المضطر.

ولقد ورد في فصل الصوم وفوائده من الأحاديث وأقوال الحكماء ما لا يعد ولا يحصى. وحيث إن ما لا يدرك كله لا يترك كله فهاك بعض ما جاء منها قال رسول الله ﷺ: «**من جاع بطنه عظمت فكرته وفطن قلبه**» وقال لقمان لابنه وهو يعظه: يا بني إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة. وقال سليمان الداراني: أحلى ما تكون لي العبادة إذا التصق ظهري ببطني. وقال بعض الأطباء: الدواء الذي لا داء معه لا تأكل الطعام حتى تشتهيه. وهذا مأخوذ من معنى الحديث الذي قاله النبي ﷺ للطبيب الذي أرسله المقوقس ضمن الهدية إذ قال له: «**نحن قوم لا نأكل إلا عن جوع وإذا أكلنا لا نملك نفسنا من الطعام**» ومن أجل ذلك رجع الطبيب إلى المقوقس وقال له: لقد أرسلتني إلى رجل جمع الطب في كلمتين. وقال بعض السلف الصالح: إذا شبع الإنسان خرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة ولا ينال الإنسان صفاء القلب ولا يدرك لذة العبادة وحلاوة المناجاة والتأثر بالذكر والفكر إلا بالجوع. ولقد أجمع الأطباء في هذا العصر على أن الصوم من أنجع الأدوية لمن يصاب بمرض السكر. فانظر حكمة الشارع الحكيم التي تخفى على كثير من الناس.

وقال الأستاذ الإمام شيخنا المرحوم الشيخ محمد عبده عند ذكر قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾[1] ما يأتي. ذكر الله تعالى حكمة إيجاب الصيام علينا فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾[2] وبيانه أن الوثنين كانوا يصومون لتسكين غضب آلهتهم إذا عملوا ما يغضبهم أو لإرضائهم واستمالتهم إلى مساعدتهم في بعض الشؤون والأغراض

(١ و٢) (٢) البقرة: ٢١.

وكانوا يعتقدون أن إرضاء الآلهة والتزلف إليها يكون بتعذيب النفس وإماتة حظوظ الجسد. وانتشر هذا الاعتقاد في أهل الكتاب حتى جاء الإسلام يعلمنا أن الصوم ونحوه إنما فرض لأنه يعدنا للسعادة بالتقوى وأن الله غني عنا وعن عملنا. وما كتب علينا الصيام إلا لمنفعتنا.

قلنا إن معنى (لعل) الإعداد أو التهيئة وإعداد الصيام نفوس الصائمين لتقوى الله تعالى يظهر من وجوه كثيرة أعظمها شأناً وأنصعها برهاناً وأظهرها أثراً وأعلاها شرفاً أنه أمر موكول إلى نفس الصائم لا رقيب عليه فيه إلا الله تعالى، وسرّ بين العبد وربه لا يشرف عليه أحد غيره سبحانه فإذا ترك الإنسان شهواته ولذاته التي تعرض له في عامة الأوقات لمجرد الامتثال لأمر ربه والخضوع لإرشاد دينه مدة شهر كامل في السنة ملاحظاً عند عروض كل رغيبة له من أكل نفيس وشراب عذب بارد وفاكهة يانعة وغير ذلك أنه لولا اطلاع الله تعالى عليه ومراقبته له لما صبر عن تناولها وهو في أشد الشوق لها لا جرم أنه يحصل له من تكرار هذه الملاحظة المصاحبة للعمل تعظيمه وتقديسه أكبر معد للنفوس ومؤهل لملكة المراقبة لله تعالى والحياء منه سبحانه وتعالى أن يراه حيث نهاه وفي هذه المراقبة من كمال الإيمان بالله تعالى والاستغراق في تعظيمه وتقديسه أكبر معد للنفوس ومؤهل لسعادة الروح في الآخرة وكما تؤهل هذه المراقبة النفوس المتحلية بها لسعادة الآخرة تؤهلها لسعادة الدنيا أيضاً. اهـ.

وقال بعض أفاضل العلماء.

أولاً: إن في الصوم تقوية الإرادة وتغليب حكم العقل على الشهوة فإذا ارتاض الإنسان بذلك ارتياضاً تاماً وأصبح السلطان للعقل لا للهوى كان ذلك من قوة العزيمة ما تصير به من خير الناس.

ثانياً: مراقبة الله تعالى والحياء منه فإنك كلما اشتهيت شيئاً وأنت صائم تركته لله تعالى فتتربّى فيك ملكة المراقبة لله عز وجل ويقوى فيك الإحساس بعظيم ألوهيته وملاحظة اطلاعه عليك. ولو تملكت هذه المراقبة نفوس الناس جميعاً لما وجد شيء من الجرائم ولما استعبد القوي الضعيف ولأصبحت الدنيا تماثل الفردوس في هنائها وصفائها وطهارة القلوب فيها.

ثالثاً: التذكير بحال الفقراء حتى تواسيهم وتشفق عليهم. وليس يعرف حال المضطر إلا من أصابه الاضطرار. ولا يحس بما عند الجائع إلا من كان جائعاً. ولا يدرك الألم ذوقاً

ووجداناً إلا من كان في شدة. وقد قيل لبعض الملوك الذين يهمهم أمر الرعية: لماذا تجوع؟ فقال: لأذكر الجائعين.

رابعاً: معرفتك نعم الله تعالى معرفة صحيحة فإن الشيء لا يعرف حقاً إلا عند فقده. ولذلك كان المريض يعرف من فضل الصحة ما لا يعرفه الصحيح.

فالأشياء لا تزال مغفولاً عنها حتى إذا فقدت عرفت قيمتها. فالنفس لا تعرف مقدار ما كانت فيها من الملاذ إلا إذا حبست عنها حبساً طبيعياً أو صناعياً.

خامساً: معرفة ضعفك وحاجاتك ومن عرف ضعفه واحتياجه زالت عنه الكبرياء الكاذبة التي لا تليق بمن إذا أخرت عنه شربة ماء ذلّ وضعف وزالت منه الأنانية التي يريد بها أن يكون إلهاً لا عبداً وما أضعف عبد ينفعل من أجل أكلة أو شربة فيعرف الإنسان قدره بهذا. ورحم الله أمرءاً عرف قدره فيتأدب مع الله ومع خلق الله.

سادساً: إن النفوس متى قويت بشهواتها طغت: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ ﴾[1] فإذا منعت عنها شهواتها خمدت ومتى خمدت رجعت إلى الله تعالى وأحست به إحساساً صحيحاً. وكذلك تجد نفس المريض راجعة إلى الله تعالى متعلقة به بخلاف نفس الصحيح. وتجد فرقاً كبيراً بين نفس الفقير الهامدة الخامدة التي ترجع إلى الله دائماً وبين نفس الملك والوزير وذي الجاه والثروة.

ودواء النفوس وسعادتها إنما هو في التعلق بالله لأنه لا غنى عنه. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥ ﴾[2].

سابعاً: إن في الصوم تشبيهاً بالروحانيين من ملائكة الله المقربين فلا تكون مشغولاً بنفسك طول يومك إذا كنت صائماً بل بالله تعالى فتكون ذاكراً ومسبحاً ومقدساً أو مصلياً أو قارئاً أو مفكراً في خلق السموات والأرض أو مصالح العباد.

وعلى كل حال فالصيام ليس لنفسه وإنما هو لربه. والصوم شبح وروح فاجتهد أن تفوز من الصوم بسره وروحه لا بشبحه وظاهره. وعلى قدر ما تبتعد عن شهواتك والاشتغال بنفسك كالأطفال والجهال على قدر ما تلتحق بالملأ الأعلى. وعلى قدر ما تكون مستعبداً للشهوات منغمساً في حمأة الماديات تكون المناسبة بينك وبين الشياطين. وبقدر المناسبة يكون الانجذاب بين المتنافسين.

(١) (٩٦) العلق: ٦ ـ ٧.
(٢) (٣٥) فاطر: ١٥.

ثامناً: ما في الصوم من الفوائد الطبية الجليلة. فإن المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء وكل من الأعضاء يجب أن يستريح وقتاً من الأوقات فلماذا لا تستريح المعدة كما يستريح غيرها. وقد قال بعض الأطباء: إن الصوم أمان من كثير من الأمراض المزمنة والمتنقلة ولا سيما السل والسرطان الجلدي والدملي الذي فشا في أوروبا جداً وذهب ضحيته ألوف كثيرة في سنة واحدة أخذاً من الإحصائيات الأخيرة في باريس؛ اهـ وقال بعض كبار العلماء:

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾[1].

شاءت حكمة الله عز وجل حين استخلف بني آدم في الأرض أن يتعبدهم بأنواع من التكاليف ليرفعهم بها إلى المستوى الذي يستطيعون معه أن يحققوا حكمة الله في الاستخلاف. وما كان الله بحاجة إلى عبادتهم ولا إلى عملهم فهو غني عما يقدمون ويؤخرون ﴿ إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ ﴾[2] ولكنها سعادتهم وتربية نفوسهم وترقية نظراتهم إلى الحياة وتنشئتهم رجالاً لأنفسهم وللمجتمع وللبشرية بوجه عام هي الغاية مما شرعه الله لعباده وما افترضه عليهم من تكاليف إن كان فيها مشقة في بادىء الرأي فلن تذهب مشقتها بما انطوت عليه من متاع روحي ومن رضاء للنفس بما تستجيب به لدعوة الله عز وجل ومن حسنى العواقب بما يصير إليه أمر المؤمن.

وقد جمع الله في القرآن الكريم سر النجاح والفلاح في كلمتين إذ يقول عز من قائل: ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةً يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[3] فالصبر سلاح في حياة كلها جهاد وعدة في دنيا لا نجاح فيها لمتبرم متضجر.

لا يبلغ العقل والدنيا تقاس به ما يبلغ الصبر في الأحداث والنوب. وللصوم من بين التكاليف التي شرعها الله فضل يرتقيه الإنسان على الصبر وإمداده بالسلاح الفعال الذي يستعين به على كفاحه وتعويده خلالاً شتى من البر والمرحمة والرضا بمشاركة البائسين في بؤسهم والفقراء في فقرهم راضية بذلك نفسه قريرة به عينه وبه يصل المؤمن إلى الغاية التي شاءها الله في الخلق وبه يصل العامل إلى نتيجة ما يسره الله من شقاء وكله اضطراب في

(١) (٢) البقرة: ١٨٣.
(٢) (٣٩) الزمر: ٧.
(٣) (٣٢) السجدة: ٢٤.

عصر لم نعد نسمع فيه إلا بالمادة والتغني بفضائل (المادة) حتى أصبحت الحياة كلها في نظر العاقل عبثاً لا يطاق وحملاً لا يحتمل ونبذ الناس وراءهم أمر الروحيات ولم يعودوا يستجيبون لداعي الضمير ولا لصوت الإنسانية وأصبحت أرحامهم مقطعة وقلوبهم شتى. ولم يعد المجتمع مجتمعاً ولم تعد الدنيا كعهد الناس بها ولم يعد العالم فيما نظن على الوجه الذي أراده الله من خير ولم يعد الناس بمطيقين القيام بما شاءه الله منهم ولهم. حتى تساءل الناس عن مصيرهم ومصير البشرية جمعاء.

في الصوم تقوية وتربية لعاطفة من أنبل العواطف القومية الوطنية. فإن الصائم ينزل عن كثير مما اعتاده من مسار الحياة ومباهجها. وما ألف أن يترفه فيه مما يقدر عليه في غير عناء ولا تعب وفي ذلك مواساة للسائل والمحروم في ظروف قاسية عليهم مؤلمة لهم وفي ذلك توفير من كماليات الحياة ليجد الناس ما تطلع إليه نفوسهم من ضرورياتها في أيام تحاملت على الناس حادثاتها ولم يعد ثمت ملجأ إلا روح الجماعة والشعور بتضامن الجماعة.

ولن يصل الناس إلى السعادة إلا في ظل القانون الإلهي. ولن يبلغ الناس غايتهم من الهناءة إلا في ظل الرضا بما شاء الله والتسليم بما قدر ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾[1] ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾[2].

ولن تستقيم للحياة شؤون إلا تحت راية الدين والخلق والفضيلة ولن يصلح أمر آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها من اتباع الدين والعمل بهديه وبما فيه من تكاليف بها يسعدون وفي ظلها ينعمون ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾[3] اهـ.

---

(١) (٧) الأعراف: ٩٦. (٢) (٥) المائدة: ٦٥ ـ ٦٦. (٣) (٩) التوبة: ١٠٥.

وقال بعض العلماء في الآية المتقدمة:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾[1].

الله سبحانه وتعالى أعلم بمصالح عباده فلا يشرع لهم في الدين إلا ما فيه تزكية نفوسهم وتهذيب أخلاقهم.

وللصوم فضائل لا يجحدها حتى الذين لا يؤمنون بدين الإسلام وأقل تلك الفضائل أن الجرائم تنقص نقصاً محسوساً في شهر رمضان. وهذه ظاهرة يؤيدها الواقع المشاهد. والصوم ضرب من الزهد وقمع النفس ومن استطاع قمع نفسه ومنعها من الأكل استطاع منعها أيضاً من الإجرام. فالصوم يكسر من شرِه النفس ويخفف من غلوائها. ولكن الانهماك في الطعام والشراب والملاذ يطفىء النفوس ويجعلها لا ترحم الضعفاء ولا تعطف على البؤساء لأنها لا تحس بما هم فيه من ألم المسغبة والفاقة. فكان من عدل الله تعالى أن كتب علينا الصوم لتذوق النفس صورة من تلك الآلام فتعمل على تحقيقها بقدر المستطاع.

والصوم عامل من أهم عوامل الصحة والتقوية فهو يعالج كل علة ولو خابت في علاجها كل الوسائل. وهو أكبر مساعد على تقوية الجسم عامة وعلاج ما به من علل وأمراض. لأن الجسم عندها لا يفقد ما يأكله ينصرف إلى إفراز السموم المتجمعة فيه. كما أن الصوم يريح الجهاز الهضمي من عناء الأكل. وما يتبع الأكل من وظائف فسيولوجية.

والصوم من أهم الشعائر وأعظم القربات. كيف لا وهو سربين العبد وربه لا يدخله الرياء. يمسك الإنسان نفسه عن شهواته وملذاته شهراً كاملاً لا يبتغي من وراء ذلك إلا وجه الله تعالى. لا رقيب عليه سواه. فيعلم العبد أن الله مطلع عليه في سره وعلانيته فيستحي من ذلك الإله العظيم أن ينتهك حرماته باقتراف إثم أو ظلم أو ارتكاب معصية يستحي من الله أن يراه مرتدياً ثوب الغش والخداع والكذب فلا يتملق ولا يداهن ولا ينافق ولا يكتم شهادة الحق خوفاً من شوكة رئيس أو كبير.

يستحي من العلي القدير أن يكون كالعضو الأشل في أمته. بل يكون عضداً لها عاملاً على رفعة شأنها.

---

(١) (٢) البقرة: ١٨٣.

هذه هي حقيقة الصوم. فجدير بالعاقل الذي له مسكة من عقل وبقية من فهم وهو يسمع نداء ربه ويعلم ما وراءه مما أعده الله للمتقين أن يغتنم طاعته في أداء هذه الشريعة المقدسة ﴿ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[1].

وقال بعض كبار الأطباء المسلمين:

إنها لفرصة طيبة في هذه الفترة من التاريخ التي اضطرب فيها العالم واضطربت أعصاب أفراده أن أذكر طرفاً يلمسه الطبيب من فوائد الصوم والتعبد على وجه العموم في التأثير النفساني أو الروحاني.

فالصائم المتعبد يذكره الصيام دائماً بكل ما فرضه الدين من فعل الخير وطهارة التفكير بقلب مخلص مفعم بالإيمان للعبرة فرجع إلى ربه مستعيناً به ليحميه من الذنوب والخطايا ويسمو بتفكيره إلى التقرب من الله بفعل الخير والابتعاد عن الشرور والآثام.

فتتخلص روحه من مشاغل الدنيا فترة ما. يلهمه الله فيها العزم على السير في طريق الهداية ويستجيب بذلك دعوته في فاتحة الكتاب: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾[2].

لذلك سمى البعض الصيام رياضة الروح أو بتعبير الأطباء علاج النفس.

في شهر رمضان يوجد جو مشبع بالإيمان والعظة والقول الطيب فيؤثر في النفس ويكبح جماح النفوس الشاردة ويردها إلى حظيرة الخير والإيمان. فيهجر الخاطئون طريق الضلالة ويقلع المدمنون عن عاداتهم وينسى ذوو الأمراض العصبية أوهامهم. وفي كثير من الأحيان تكون توبة نصوحاً لا رجعة فيها كما شاهدت ذلك مراراً عديدة. وهنا تتجلى فضيلة انتصار المرء بمحض إرادته على الشهوات والآلام الوهمية المتسلطة عليه. فقد دربه الصوم على الحرمان أو بعضه كما دربه على مقاومة النزعات الخاطئة والمضرة به فتزيد قوة إرادته وتساعده على ترك ما كان فيه.

أما من أجاع الجسم ولم ينه النفس عن الهوى فليس من الصائمين. وإذا اتبع في الصوم ما ذكرنا تصبح النفس مطمئنة تفكر في مآلها بالرضاء لإرضاء المستكن الخامل

---

(١)(٢) البقرة: ١٨٤.

(٢)(١) الفاتحة: ٦ ـ ٧.

البائس ميت الإحساس ضعيف الإرادة بل رضاء النفس المطمئنة التي قال فيها سبحانه وتعالى ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى (٢٩) وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾[1].

إنني مع هذا أحب المتدين وأكره الغالي في الدين. ومثل الغالي في الدين مثل المحموم الذي يحتاج للشرب على فترات لتزداد إفرازاته ويخالف تعاليم الطبيب ويصوم فيلحق بصحته ضرراً بالغاً والله تعالى يقول: ﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾[2] وهذا أمر لا يرضى عنه الرحمن الرحيم الذي كتب على نفسه الرحمة.

إن الصوم غير مضر بالصحة ولكن الطريقة التي يصوم بها أغلب الناس غير صحية. فامتلاء المعدة دفعة واحدة بكمية كبيرة من الغذاء المختلف الألوان وكثرة شرب الماء مع أكل المواد الجريفة والدسمة مضر بالصحة بلا مراء. فمن ساء هضمه أو فسدت معدته أو اضطربت أمعاؤه أو كبده في رمضان فلا يلقي الذنب جزافاً على الصيام وإنما الذنب على طريقة الإفطار.

يجب أن يشعر الصائم أنه هبط إلى الفقير في حالته الغذائية فيعرفها ليشفق عليه. فإذا ما اكتظت المائدة بألوان الطعام بعدنا عن الغرض الرئيسي للصيام وفسدت صحتنا.

أنا أشير بأن يكون الإفطار على كمية قليلة من السوائل والثمار. وبعد نحو ساعتين أي إلى ما بعد صلاة العشاء يكون الغذاء الرئيسي مع اعتدال في كميته ونوعه والامتناع عن تناول المواد الجريفة والحراقة.

وأنوه بصفة خاصة إلى أن شرب الماء بكثرة على الطعام مضر بالصائم ولغير الصائم. وكثرة الشرب ما هي إلا مجرد عادة لا ضرورة. ومع ضررها الزائد فهي للأسف منتشرة جداً بين كل الطبقات. ويجب أن يقتصر السحور على أشياء بسيطة.

إننا في مصر نشكو من سوء التغذية وسببها عند الأغنياء يرجع إلى زيادتها. وعند الفقراء إلى نقصها المعيب. فليفرض الأغنياء أن هذا هو شهر حمية وزهد ويعتدلوا في مأكلهم ليصلحوا ما أفسدته زيادة التغذية في صحتهم.

فليكن رمضان شهر زهد وتعبد وبر بالفقراء والبائسين وصون للمعدة واللسان

(١) (٨٩) الفجر: ٢٧ ـ ٢٩.
(٢) (٢) البقرة: ١٩٥.

والقلب وتطهير للجسد والروح وهكذا يدور الفلك دورته وتعود الأيام للعبرة والاتعاظ وتجديد العهود. وذكر إن نفعت الذكرى: اهـ.

وقال بعض العلماء: إني صائم، هدى رباني وإرشاد قدسي وتوجيه كريم إلى سرّ من أسرار الصوم الذي شرع تقويماً للخلق وتزكية للنفس ووجاء من ثورة الشهوة ورداً لفورة الغضب وسمواً بالروح إلى أرقى ما يتصوره عقل بشري من كمال. وإنها لغايات فيها سعادة الفرد والمجتمع.

وإن أخص ما يلزم لتحقيق هذه السعادة ضبط النفس وكبح جماحها إذ لا سعادة لمجتمع يعيش في ثورة صاخبة ونفرة دائبة.

يروي لنا التاريخ أن العرب قبل الإسلام كانوا أمة اتحدت لغتها وعاداتها ولكن روابطهم كانت منحلة بتنافر قلوبهم واختلاف أهوائهم. يثورون لأصغر الأمور ويقتتلون لأتفه الأسباب. فتحكمت فيهم دولتا الفرس والرومان. واستعصى على عقلائهم وحكمائهم وأطباء النفوس منهم معالجة هذه الحال حتى جاء الإسلام فجمعهم تحت راية التوحيد وألف بين قلوبهم بإخوة الإسلام، ووثق تعارفهم بالجمعة والجماعة، وانتزع من قلوبهم حمية الجاهلية بالصوم. فجعله العلاج الناجع لتسكين الغضب والحد من ثورته. ففي الحديث القدسي يقول الله عز وجل: (**كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزىء به والصيام جنة فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إني صائم**).

فتذكير المرء نفسه بالصوم عند المخاصمة جنة له من متابعة هوى النفس ووقاية من مسايرة قوة الغضب وحصانة من الانصياع لشهوة الانتقام. فالصائم استطاع بقوة إرادته وعزيمته أن يخضع شهواته الضرورية ويحكمها طول النهار بعد أن كانت تحكمه. فالتحق بالملأ الأعلى من الملائكة الذين لا يأكلون ولا يشربون. بل التزم صفة قدسية من صفات الله الذي يطعم ولا يطعم.

وما أجدره وهذه مكانته أن يرتفع عن مجاراة السفهاء في الشتم والسباب والصخب والعقاب. فإذا ما استغضب أو استثبي فليقل: (**إني صائم**) ففي هذا تذكير بسمو النفس إلى المكانة التي وصفنا. إذ لا يليق أن ينزل من سموه الملائكي وخلقه الرباني إلى حضيض السوقة، نعم إن بعض الناس في مثل هذه الحال يقول: (**إني صائم**) ولا يحجزه هذا القول

عن مطاوعة قوة الغضب لأنه يقول بلسانه ولا يفقه بقلبه معنى ما يقول. فهو كالمريض يعطى الدواء ليشربه ولكنه يدّهن به ثم يشكو عدم البرء فليس العيب عيب الطبيب أو الدواء وإنما العيب عيب المريض.

وإن الناس لفي حاجة إلى العلم بحكمة العبادات قبل التعبد بها أكثر من حاجتهم إلى معرفة أحكامها. والله يقول: ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(1).

وقال بعضهم: إذا كان الربيع في الفصول يكسو الأرض شباب النبات، ويورق السليب من الشجيرات، ويبسم الوادي بعد إن كان عابساً وينزع الجدول بعد أن ظل يابساً. فكذلك رمضان في الشهور نال من إكرام الله ما لم ينله شهر سواه. فهو وحي السماء إلى النفوس يهتف بها إلى داعي الله ويحفزها إلى طريق الحياة ويهديها إلى سبل البر والنجاة. ويذكرها بما في دين الله من رحم وتواصل وإخلاص وتفاضل. ويعظها إن الإنسان للإنسان كالبنيان يشد بعضه بعضاً.

فهذا رجل وهبه الله مالاً وجاهاً كما وهبه تديناً وصلاحاً. حبس نفسه عن الطعام والشراب وعن كل مفطرات الصوم من لذائذ وشهوات. وقبل ضيافة الله فيرى الأكل أمامه ولا يمد له يداً، وأقام على بطنه من نفسه شاهداً. يدركه ألم الجوع والعطش فيقاوم كل هذا بما أفرغه في نفسه الوازع الديني والتعليم الإلهي. أليس هذا الشعور وتلك الإرادة هما أهم طريق للمثل الأعلى الذي ضلّ السالكون الوصول إليه؟

وهذا فقير جفت معاه (أمعاؤه) من المسغبة وعانٍ تربت يداه من المسكنة، ومحتاج تعبت يداه من المسألة، وسائل كثر بنوه فثقل كاهله ويتيم فقد أباه فلا يجد من يعوله ويعطف عليه، وأيّم عدمت البعل وتريد صوناً يقوم بأمرها ويرحم ضعفها، وبائس تقطعت به السبل فأصبح ذليلاً شريداً. فلما جاء رمضان أثار في نفوس كل هؤلاء ما جهمته الأيام، وسلكهم مع إخوانهم من بني الإنسان، وأصبح الكل أخواناً على سرر متقابلين.

ذلك لأن لهذا الشهر روحانية ساحرة تشعر النفس الإنسانية أن هؤلاء الآدميين على تفاوت درجاتهم واختلاف أمزجتهم متساوون في الاحتياج إلى الطعام. وأن الطعام إذا صفرت منه يد الفقير ترك منه مخلوقاً بائساً لا يبالي إن أشعلها ضراماً أو أكل منها حراماً أو حلالاً. وإذا صفرت منه بطن الغني أدرك بطريقة عملية ألم الجوع. فيعرف أن له إخواناً في

(١) (٢) البقرة: ١٨٤.

الدين والإنسانية يلاقون من هذا الألم أضعاف ما يلاقيه. لأنه يكابد جوع شهر واحد في كل عام. أما هم فيتألمون من الجوع والقلة طوال أيام العام. فأية معجزة أعجب من هذا الغرض الذي يكبح كبرياء النفس ويلجمها بقوة من الدين ويشعرها أن لا سلطان لها.

فهذا الصوم الذي فرضه الله على المسلمين جميعاً الغني منهم والفقير والأمير والحقير. يعظ بوجوب تغليب سلطان العقل على سلطان البطن. ويجعل الناس فيه سواء ليس لجميعهم إلا شعور واحد، وحسّ واحد وطبيعة واحدة. ويطلق صوت الإنسانية يعلم الرحمة ويدعو إليها، ويهذب النفوس ويدربها على الجوع الذي يعصر الأمعاء، وتتراخى منه الأعضاء. ويغلب تلك الفكرة التي تكون عليها مساواة الغني للفقير. وبهذا تهدأ الحياة وتتحقق من الوجهة العملية معنى الحرية والإخاء والمساواة فيعطف الأغنياء على الفقراء. ويحب الفقراء الأغنياء ويصبح الجميع بنعمة الله إخواناً. اهـ.

هذه هي الحكم البالغة فاعرفها وفقنا الله وإياك عن أداء طاعته على أكمل الوجوه وأتمها.

حكمة شروط الصوم الباطنية

إعلم أن الصوم ثلاث درجات: صوم العموم. وصوم الخصوص. وصوم خصوص الخصوص. أما صوم العموم: فهو كف البطن والفرج عن تناول الطعام وما في حكمه من اللذات والشهوات، وصوم الخصوص: فهو كف البطن والفرج مع كف السمع عن سماع لغو القول وما يحرم سمعه وكف البصر عن النظر إلى ما يحرم النظر إليه، وكف اليد: عن كل شيء منهي عنه بحكم الشرع وما يدخل في هذا المعنى. وعلى الجملة كف جميع الجوارح عن مباشرة كل ما يحرم فعله وهو صوم الصالحين. وتمامه ستة أمور:

أولاً: غض البصر عن الاسترسال في النظر إلى ما يشغل القلب عن ذكر الله تعالى وما ينسي الإنسان ذكر الآخرة. قال النبي ﷺ: **«النظرة سهم مسموم من سهام إبليس لعنه الله فمن تركها خوفاً من الله تعالى آتاه الله عز وجل إيماناً يجد حلاوته في قلبه»**.

ثانياً: حفظ اللسان عن النطق بالفحش والهذيان والكذب والغيبة وإلزامه السكوت وعدم النطق إلاّ في الخير وذكر الله تعالى وتلاوة القرآن.

ثالثاً: كف السمع عن الإصغاء إلى كل مكروه. وقد قرن الله سبحانه وتعالى من

يستمع المكروه بمن يأكل السحت بقوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾(١)
وبقوله أيضاً. ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾(٢)
وقد قال ﷺ: «المغتاب والمستمع شريكان في الإثم».

رابعاً: كف بقية الجوارح عن المحرمات والمكاره وحفظ البطن وقت الإفطار عن الشبهات فلا يفطر على لحوم الناس بالغيبة أو على طعام مكتسب بغير وجه حلال.

خامساً: أن لا يكثر من الطعام وقت الإفطار بحيث يمتلىء جوفه لأن امتلاءه يهيج النفس البهيمية فتبعث فيها الشهوة التي كانت راكدة خامدة طول النهار. وأيضاً إن روح الصوم وسره إضعاف القوى التي هي وسائل للشيطان ولا يكون هذا إلا بتقليل الأكل ومتى ضعفت تلك الوسائل قوي القلب وزالت عنه الحجب فينظر بعين البصيرة إلى جلال الملكوت وبديع ما صنعته يد الخالق لهذه العوالم.

سادساً: أن يكون قلبه بعد الإفطار بمنزلة بين الرجاء والخوف لأنه لا يدري هل قبل صيامه أم لم يقبل.

وقد قال أبو طالب المكي رضي الله عنه في كتاب قوت القلوب. في هذا القسم وهو صوم الخصوص ما يأتي: صوم الخصوص حفظ الجوارح الست: غض البصر عن الاتساع في النظر. وصون السمع عن الإصغاء إلى محرم أو الوزر أو القعود مع أهل الباطل وحفظ اللسان عن الخوض في مالاً يعني جملة مما أن كتب عنه كان عليه وإن حفظ له لم يكن له ومراعاة القلب بعكوف الهم عليه وقطع الخواطر والأفكار التي كف عن فعلها وترك التمني الذي لا يجدي وكف اليد عن البطش إلى محرم من مكسب أو فاحشة وحبس الرجل عن السعي فيما لم يؤمر به ولم يندب إليه من غير أعمال البر.

فمن صام تطوعاً بهذه الجوارح الست وأفطر بجارحتي الأكل والشراب والجماع فهو عند الله تعالى من الصائمين في الفضل لأنه من الموقنين الحافظين للحدود. ومن أفطر بهذه الست أو ببعضها وصام بجارحتي البطن والفرج. فما ضيع أكثر مما حفظ. فهذا مفطر عند العلماء صائم عند نفسه: اهـ.

أما صوم خصوص الخصوص. فهو الإمساك عن شهوتي البطن والفرج وحبس القلب

---

(١) (٥) المائدة: ٤٢.

(٢) (٥) المائدة: ٦٣.

والفكر عما سوى الله تعالى فلا يفكر في شيء من أمور الدنيا مطلقاً بحيث إذا فكر في أمر من أمورها وحاد قيد أنملة عن ذكر خالقه فقد أفطر. اللهم إلاّ إذا فكر في أمر فيه مصلحة وواجب قضاؤها. ولقد بلغت الدرجة بحبس القلب إلى أنه إذا فكر في الشيء الذي يفطر عليه وقت الغروب فقد أفطر بهذا الفكر. لأن تفكره هذا يدل على عدم الثقة بالخالق الرازق الذي يرزق عبده بغير حساب وهذا الصوم خاص بالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.

هذا وقد ورد في الحديث القدسي قوله: (**كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به**) قال أبو عبيدة رضي الله عنه في تفسير هذا الحديث: خص الله تبارك وتعالى الصوم بأنه له وهو يجزي به وإن كانت أعمال البر كلها له وهو يجزي بها لأن الصوم لا يظهر من ابن آدم بلسان ولا فعل فتكتبه الملائكة الحفظة إنما هو نية في القلب وإمساك عن حركة المطعم والمشرب. اهـ.

فانظر يا رعاك الله كيف يؤدب الله عباده بالآداب الكاملة والفضائل الباهرة والحكم البالغة.

حكمة صوم التطوع

إعلم أن الإنسان إذا أدى ما عليه من الفرائض يجوز أن يقع منه بعض هنات وهفوات لا تبطل الفرض ولكن تجعله غير مستوف للشروط التي يريدها الشارع الحكيم. فتكميلاً للفرض وقياماً بما يريده الشارع وسداً لما عساه أن يقع من الخلل سنّ الشارع صوم أيام التطوع حتى يكون صومه ممحصاً خالصاً من كل شائبة. هذا على وجه العموم. وهناك أمر آخر. يستحب فيه الصوم لحكمة أرادها الشارع الحكيم. فمنها صوم يوم عرفة حتى يكون الصائم مفكراً في هؤلاء القوم الذين يقفون في صعيد واحد يلبون ويطلبون من الله المغفرة والرحمة فيتشوق إلى تلك الأماكن الطاهرة المقدسة. وبذلك يكون مشاركاً للحجاج في ثوابهم والرحمات التي تنزل عليهم. وينال من هذا الثواب العظيم والأجر الجزيل.

ومنها صوم يوم عاشوراء. وهو اليوم الذي نصر الله فيه موسى الكليم عليه السلام فشكر مولاه على هذا النصر. فمن صامه فقد شاركه في الشكر واغتنام الأجر. ومنها صوم ستة أيام من شوال (الأيام البيض) لفضلهم كما ورد في الحديث الشريف الذي يقول: «**من صام رمضان وأتبعه بست من شوال فكأنما صام الدهر كله**»وهذه الأيام بمنزلة الرواتب من الفرائض لتمحص رمضان من كل خلل يحدثه الصائم. وإنما كان صومها كصيام الدهر كله

لأنها هي ورمضان ستة وثلاثون يوماً. والله سبحانه وتعالى جعل الحسنة بعشرة أمثالها. فإذا ضربنا عشرة في ستة وثلاثين كان حاصل الضرب ثلاثمائة وستين يوماً وهو مجموع أيام السنة.

ولقد كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يكثرون من صيام التطوع. فقد كان سيدنا نوح عليه السلام يصوم الدهر كله. وسيدنا داود يصوم يوماً ويفطر يوماً. وسيدنا عيسى يصوم يوماً ويفطر يومين. ونبينا ﷺ يصوم حتى يقال لا يفطر ويفطر حتى يقال لا يصوم.

وحكمة اختلافهم عليهم الصلاة والسلام في الصوم لاختلاف حالهم. ولأن الصوم ترياق النفوس والترياق لا يؤخذ منه إلا بقدر الحاجة. ومن أجل ذلك أخذ كل منهم عليهم الصلاة والسلام ما يناسب حاله. وأيضاً كان قوم نوح شديدي القوة. وكذلك قوم سيدنا داود عليه السلام. وسيدنا عيسى كان نحيف البدن. ونبينا ﷺ أعلم الناس بما يناسب حاله وحال أمته. فالإنسان بصيام أيام التطوع يكون متبعاً لسنة الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام.

حكمة جواز الفطر في السفر

إن الشارع الحكيم ما جعل علينا في الدين من حرج شفقة بنا ورحمة بعباده. وشرع لنا الدين على أكمل الوجوه التي بها قوام حياته وانتظام شمله. ولما كان المسافر يعاني من وعثاء السفر ما يعاني ويكابد من المشاق ما يكابد. خفف الله عليه أداء الفريضة في الصلاة ولم يكلفه ويأمره بالصوم في السفر. إذ حالتا الحضر والسفر متفاوتتان مختلفتان. والإنسان يؤدّي الفرض في الحضر وهو في راحة تامة وبعد عن المتاعب بخلاف السفر كما لا يخفى.

ولقد بالغ الشارع الحكيم في التخفيف فعمم ولم يخصص بعض الناس دون بعض. حتى أن الإنسان يفطر ولو كان من الأغنياء الذين يسافرون في خدم وحشم وسهولة تناول الطعام لهم متوفر كأنهم في منازلهم وأماكن راحتهم ورفاهيتهم.

ومن تمام تأديب الله لعباده أنه حبب إليهم الصوم عند المقدرة عليه ولم يؤاخذهم إذا هم أفطروا. فقال وقوله الحق. ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[1] ورب قائل يقول لماذا لم

(١) (٢) البقرة: ١٨٤.

يرفع الشارع الحكيم الصلاة كلها رحمة بالمسافرين كما رفع الصوم في السفر؟ فنقول له إن الصوم فيه مشقة، والصلاة ليست كذلك كما هو معلوم بداهة. إذ القيام والركوع والسجود حركات ممكن أداؤها بلا مشقة حتى أنه إذا فقد الماء يتيمم بالتراب ولا يترك هذه الفريضة. ونزيد على هذا أن الشارع إذا رفع عن الإنسان الصلاة والصوم معاً يكون بعيداً عن ذكر الله ويكون غير مقرب إلى ربه. والقرب من الله هو الغاية الوحيدة من كل ما يقوم به من الفرائض وجميع الطاعات وعمل الصالحات.

وحيث إن الصوم فريضة وتعذر أدائها في وقت السفر فالمرء يقضيها عند رجوعه من السفر ووصوله إلى مكانه. هذه هي الحكمة في جواز إفطار الصائم في السفر فانظر إلى رحمة الله بعباده.

حكمة تحريم الصوم في أيام مخصوصة

إعلم أن الشارع الحكيم حرم علينا الصوم في يومي العيدين لأن المسلم فيهما يكون في مظهر من السرور والانشراح وإعطاء النفس قسطها من الراحة ومباشرة بعض الملاذ التي لم ينه عنها الشارع الحكيم. وأيضاً يكون الإنسان ظاهراً بمظهر الجود والكرم على الفقراء والمساكين. فإذا صام الإنسان يومي العيدين لم يحصل على هذه المزية التي أقل ما فيها من الفائدة أنها تمرن على الجود والكرم. وحرّم الصوم في أيام التشريق لأن الحاج يكون في شغل في هذه الأماكن الطاهرة ولأجل أنه مسافر. وترى أن الشارع قد عمم تحريم الصوم ولم يخصص به الحاج حتى يكون أداء العبادة على وتيرة واحدة. وأيضاً إن الإنسان بإفطاره هذه الأيام يتذكر هؤلاء الحجاج ويتشوق إليهم ويتمنى أن يكون معهم في تلك الأماكن الطاهرة فيفوز بما فازوا به من رؤية البيت الحرام وزيارة قبر المصطفى ﷺ وكذلك اليوم الأخير من شهر شعبان المكرم حرم صومه ليستقبل المسلم شهر رمضان المعظم وهو في قواه بغير ضجر ولا ملل إلا إذا كان الإنسان صائماً الأشهر الثلاثة رجب وشعبان ورمضان.

وهناك حكمة أخرى. وهي أن يكون الفرض خالصاً من الزوائد والزيادات التي وضعتها الأمم الأخرى. وزيادتها على ما فرضه الله وسنه نبيه. تلك الزيادات التي تجعل الدين مشوهاً ناقصاً. والنقص يكون بإدخال ما ليس من الدين في الدين، وأن يخرج منه ما هو من قواعده وأصوله، والخلل يحصل من الزيادة والنقصان.

حكمة تعيين صوم رمضان وجعله في هذا الشهر المخصوص

إعلم أن العرب لم تكن تعرف ضبط الأيام إلا بظهور الهلال. أي كانت تعرف حسابها بالشهور القمرية لسهولة ضبط تواريخ الأيام والسنين. ولما فرض الشارع الحكيم الصوم وهو شهر كامل لزم أن يكون أداؤه على حسب الشهور القمرية. وحيث إن تعيين الشهر إذا فوض إلى الأمة يكون داعياً للاختلاف في الصوم. إذ كل بلد تختار الشهر الذي يسهل عليها صومه.

من أجل ذلك اختار الشارع الحكيم أن يؤدى الفرض في شهر واحد معلوم حتى يكون المسلمون متحدين متآلفين. وإذا كان الأمر كذلك فلا أفضل من أن يكون هذا الشهر هو شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن والذي فيه تحقق ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر. ولا تلتفت لمن قال إن ليلة القدر حصلت مرة واحدة في العمر ولن تعود: فافهم حكمة الشارع الحكيم يا ذا الذوق السليم.

حكمة جعل الصوم في النهار

إعلم وفقك الله أن أفضل الأعمال عند الله أحمزها أي أشقها على الإنسان. سواء أكانت هذه الأعمال تؤدى بالجوارح أو غير ذلك. ومن أجل ذلك قال ﷺ: «**أفضل العبادة أحمزها**» وفي رواية أخرى «**خير الأعمال أحمزها**» أي أشقها. ولما كان الليل يسكن فيه الإنسان ويلبس في بيته ويأخذ قسطه من الراحة وترتاح جوارحه لم يجعل الله سبحانه وتعالى الصوم في الليل لأنه إذا حصل الصوم ووقع فيه لم تحصل المشقة المقصودة للشارع. تلك المشقة التي ينال من أجلها الثواب العظيم والغفران الدائم من المولى الكريم العليم بأحوال عباده.

من أجل ذلك فرض الشارع الحكيم الصوم في النهار الذي يكون الصوم فيه أشق على البدن والنفس ليكون الثواب عظيماً. وناهيك إذا وقع الصوم في فصل الصيف الذي يكون الحرّ فيه قد بلغ أشده. لا شك أن الأجر يكون أكبر والثواب أعظم. والفائدة على كل حال عائدة على الصائمين، كما قال ﷺ هذا الحديث القدسي «**كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به**» وقد ذكر في البدائع ما يأتي.

الحكمة التي شرع لها الصوم وهو ما ذكرنا من التقوى وتعريف قدر النعم الحامل على شكرها لا يحصل بالصوم في الليل لأن ذلك لا يحصل إلا بفعل شاق على البدن مخالف للعادة وهوى النفس. ولا يتحقق ذلك بالإمساك في حالة النوم فلا يكون الليل محلاً للصوم. اهـ فانظر حكمة الشارع الحكيم تجده قد أحسن كل شيء صنعاً.

الصوم علاج لكثير من الأمراض

إن الشارع الحكيم قد فرض علينا الصوم وقد عرفت فضله والحكمة فيه مما تقدم لك. مع أن الله سبحانه وتعالى جعل في الصوم فوائد كثيرة لأجل ذهاب كثير من الأمراض التي تذهب بحياة الإنسان في قليل من الزمن.

وإننا نذكر لك الآن في هذا الفصل ما قاله بعض الأطباء المسلمين لتعلم فائدة الصوم طبياً. وهاك ما قاله.

الصوم من وجهة نظر الطب الرياضي هو وسيلة لتطهير الجسم بإزالة ما يمكن أن يكون به من زيادات في السموم الضارة أو غذاء لا لزوم له. ونحن نجده في الطب الرياضي تحت باب العلاج بالغذاء. وقد يجد القارىء في ذلك شيئاً من التناقض على اعتبار أن الصوم ضد التغذية. ولكن يجب أن تفهم أن الجسم البشري ليس مجرد مستودع للغذاء وإنما هو مجموعة متزنة متوافقة من المواد والعمليات (الكيمائية) وهذه المجموعة تتعرض للاختلال ليس بنقص المواد الغذائية فقط بل بزيادتها أيضاً.

ومن مزايا الصوم إلى جانب هذا التنظيف والتطهير. إراحة أعضاء الهضم والامتصاص وإراحة أعضاء الإفراز حيث يعطيها فرصة لا تعوض أي تقصير سابق في عملها. وفي الصوم عامل من عوامل تجديد الشباب. وذلك بإعطاء الخلايا حياة ونشاطاً مجددين. وتلك حقيقة معروفة من حقائق علم الحياة.

وليس الصوم شيئاً حديثاً. فقد كان الأقدمون يعدونه من فضائل الحياة. وقد أفردوا له مكاناً كبيراً في عباداتهم وعقائدهم الدينية فكان له مكان ظاهر في ديانة قدماء المصريين وسائر الديانات القديمة كما نصت عليه جميع الكتب السماوية. ولا شك أنه كان لعامل الصحة والقوة الجسدية والعقلية أثر كبير في فرض الصوم.

على أن الصوم القديم لم يكن كله لأغراض دينية. فقد ورد في الكتب أن سقراط وأفلاطون، كانا يصومان عشرة أيام في كل بضعة أشهر. ويقال إن بعض رهبان المسيحية

في العصور الوسطى كانوا يعدون الصوم علاجاً نافعاً للأمراض العصبية. وكان ابن سينا الطبيب العربي المشهور يفرض الصوم ثلاثة أسابيع في كثير من الحالات المرضية التي كانت تعرض له. ويقال إنه كان يعد الصوم عاملاً مهماً في علاج الجدري والزهري.

وفي وقت الحملة الفرنسية على مصر كانت المستشفيات العربية تحصل على نتائج طبية في علاج هذا المرض الأخير بالصوم وقد كتب في ذلك الدكتور (روبرت بارتولو) وهو طبيب أمريكي من أنصار العلاج الدوائي للزهري قال: لا شك أن الصوم من الوسائل الفعالة في التخلص من الميكروبات ومن بينها ميكروب الزهري لما يتضمنه من إتلاف للخلايا ثم إعادة بنائها من جديد. وتلك هي نظرية (التجويع) في علاج الزهري. وهي طريقة شرقية قديمة. وهناك حالات كثيرة استفادت من هذا العلاج.

وقد استخدم الصوم في العصر الحديث كثير من أساطين الطب والتربية البدنية. ومن الأسماء المشهورة المعروفة في ذلك الدكتور(الآن) وقد استخدمه بنجاح في علاج السكر. والدكتور (كارلسون) وكان وسيلته في تجديد الشباب. والدكتور (جنجز) الذي كان يصفه في كل الحالات المرضية التي كانت تعرض له. (وبرنار مكفادن) زعيم الثقافة البدنية في أمريكا. ويؤثر عنه عبارته المشهورة: إني أميل إلى الاعتقاد بأن الصوم يستطيع أن يبرىء كل علة خابت في علاجها الوسائل الأخرى.

الصوم في قديم الزمان

اعتادت بعض الأمم الأخرى أن تتعبد بالصوم. فتارة يصومون إكراماً لمعبوداتهم المعتقدة عندهم، وطوراً لشيء آخر. وعلى كل حال فإن الصوم ليس جديداً بل هو من قديم الزمان وإن كان يختلف عن ذلك على حسب المعتقدات والمذاهب.

ويقال إن الفينيقيين والمصريين قبل الإسلام كانوا يصومون إكراماً (لإيزيس) وكانوا أيضاً يصومون قبل تقديم الذبائح ليتطهر الذين يشهدون تلك الحفلات.

وكان الإغريق يصومون قبل الاحتفال بأسرار (ألوزيس الدينية) وكانت النساء تشتركن في هذا الصوم وكن يمكثن يوماً كاملاً لا يذقن فيه طعاماً ولا شراباً. وكان الذين يبتغون معرفة أسرار الآلهة يجب عليهم صوم عشرة أيام متوالية. وكانوا أيضاً يصومون قبل الانحدار إلى غار (تروفونيوس).

وكانوا في روما يصومون عاماً في كل خمس سنوات إكراماً (لسيريس) وقد فرض صومهم هذا في اعتقادهم في سنة ١٩٣ قبل المسيح.

أما الصوم العلني فقد فرض عند اليهود قبل أن يفرض في غيره من الأديان. فكانوا يعلنون حلوله بالنفخ بالأبواق على مثال إعلان وقوع الأعياد عندهم. وكان عندهم أيضاً بعض الصوم في أيام غير عادية. فبعضها كان يعلن عند نزول البلايا بهم والبعض الآخر عند وقوع حوادث خاصة مؤلمة. وكانوا يصومون إتماماً للنذور وقياماً بأعمال التعبد.

تشريع الصوم في الأديان

وقال الأستاذ الدكتور علي عبد الواحد: يدلنا البحث في تاريخ الأديان على أن الصوم من أقدم العبادات الإنسانية وأكثرها انتشاراً. فلم يكد يخلو منه دين من الأديان التي أخذت بها المجتمعات. ولم تتجرد منه شريعة شعب من شعوب العالم قديمه ومتوسطه وحديثه. وقد أختلفت أشكاله باختلاف الأمم والشرائع وتعددت أنواعه بتعدد الظروف المحيطة به والأسباب الداعية له.

فمنه ما يكون بالإمساك عن الأكل والشرب والاتصال الجنسي والعمل والكلام. ومنه ما يكون بالإمساك عن واحد من هذه الأمور أو عن بعضها. ولعل الإمساك عن الكلام هو أغرب أنواع الصيام. ومع ذلك فهو منتشر لدى كثير من الشعوب (البدائية) وغيرها. فعند السكان الأصليين بأستراليا يجب على المرأة المتوفى عنها زوجها أن تظل مدة طويلة تبلغ أحياناً عاماً كاملاً ممسكة عن الكلام. ويظهر أن شيئاً من هذا كان متبعاً عند اليهود قبل المسيح بدليل قوله تعالى للسيدة مريم ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ ﴾[1]

وقوام الصيام كما يظهر من الاشياء التي يقتضي الإمساك عنها يتمثل في حرمان الجسم والنفس حرماناً اختيارياً من بعض حاجاتهما الضرورية المحببة إليهما. والإمساك عن الأكل والشرب في الصيام يقع على وجوه كثيرة. فمنه المطلق الذي يقتضي الإمساك عن جميع أنواع المأكولات والمشروبات كصيام رمضان عند المسلمين. ومنه المقيد الذي يتحقق بالإمساك عن بعض أنواعها كبعض أنواع الصيام عند الصائمين والمانوية

(١) (١٩) مريم: ٢٦.

والمسيحيين. ومن أنواع الصيام ما يقتضي الإمساك عن هذه الأمور اليوم كله نهاره وليله. ومنها ما لا يقتضي الإمساك إلا نهاراً أو جزءاً من النهار. ومنها ما يبدأ بغروب الشمس ويستغرق الليل كله أو شطراً منه.

وذهب بعض مفسري القرآن الكريم إلى أن صيام رمضان لذاته كان مفروضاً على أهل الكتاب وأن اليهود والنصارى قد تركوه إلى غيره تحريضاً منهم لترك فرائض الله. وذهب بعض مؤرخي السيرة إلى أن صيام رمضان بالذات كان منتشراً عند بعض قبائل العرب في الجاهلية وبخاصة قريش. ولكن لم يثبت شيء من هذا كله بالدليل القاطع. ومهما يكن من شيء فإنه لا يضير الإسلام أن يكون صيام رمضان قد شرع لليهود والنصارى من قبل أو أنه كان شائعاً عند بعض قبائل العرب في الجاهلية. فقد ثبت أن كثيراً مما شرع للمسلمين قد شرع مثله في الأديان السابقة للإسلام. قال الله تعالى ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ﴾[1] كما ثبت أن الإسلام قد أقر بعض شعائر الصوم في الحج وغيره بعد أن جرّدها مما كان عالقاً بها من أدران الشرك.

شهر الصيام في الهند

نذكر هنا شيئاً من عادات المسلمين في الهند وبتقاليدهم الخاصة في شهر رمضان.

قال الأستاذ رياض في مقاطعة (جوا) الهندية التي بها أكثر من مليون مسلم قال: إن لهم نظاماً خاصاً لاستقبال رمضان والاحتفاء به. يذهب الجميع عند الغروب إلى المساجد لصلاة المغرب ثم يعودون لتناول طعام الإفطار. وبعد ذلك يؤدون صلاة العشاء وصلاة التراويح ويقرأون في كل يوم جزءاً من القرآن بحيث يختمون المصحف في آخر ليلة من ليالي رمضان. وفي الفطور يشترك الجميع في غذاء وطني يشبه الطعمية عندنا ولكنه يصنع من الحمص بدلاً من الفول.

وهناك أغنية يرددها الجميع قبل الفطور بحوالي نصف ساعة وهذه الأغنية تحكي قصة طفل صغير أراد أن يصوم وحاولت أمه أن تمنعه من الصيام فلم توقظه للسحور لكنه رغم ذلك أصبح صائماً، واشتد به العطش عند الظهر ولكنه لم يستمع إلى نصح أمه

---

(١) (٤٢) الشورى: ١٣.

ويشرب، وظل على صومه حتى مات في العصر. وحزن أهله كثيراً جداً. وعند المغرب وفد عليهم عابر سبيل يطلب شيئاً يفطر عليه فأعطوه كل الطعام الذي كانوا قد أعدوه لإفطارهم. وسألهم لماذا هم محزنون. فقالوا له إن طفلهم مات وهو صائم. عندئذٍ طلب الوافد أن يرى الطفل. ولكنهم رفضوا فألح عليهم حتى قادوه إلى حيث يرقد فلما رآه قال له: (قم بإذن الله) ولشدة ما كانت دهشتهم عندما قام الطفل وعاد إلى الحياة ثانية. وكان الزائر في الحقيقة جبريل عليه السلام.

ومن هذه الأسطورة الشعبية نرى إلى أي مدى يقدس مسلمو الهند الصيام ويعتقدون في منزلته عند الله.

شهر الصيام أيام الفاطميين

إن العادات والتقاليد التي نتبعها في شهر رمضان المعظم كالاحتفال بموكب الرؤيا وزيارة المقابر وشراء الفطرة والياميش إن كل ذلك وما نتبعه ليس إلا صورة مصغرة لما كان يجرى أيام الفاطميين في شهر رمضان. ويتحدث عن ذلك الدكتور كامل حسين أستاذ الأدب في جامعة القاهرة يقول:

كان شهر رمضان عند الفاطميين له أهيمة خاصة تتعلق بعقيدتهم الشيعية الإسماعيلية فشهر رمضان عندهم هو: (شهر الإمام) وقبل حلوله بأسبوع كان قضاة الفاطمية يخرجون في مواكب يطوفون بها أنحاء القاهرة والفسطاط في جولة على كل المساجد للكشف عن ما تحتاج إليه هذه المساجد من المفروشات وأدوات الإنارة استعداداً لاستقبال شهر رمضان.

وفي آخر يوم من شعبان (يوم الرؤيا) كان يخرج موكب الخليفة الرسمي وله هيبة بالغة في نفوس الشعب لأن العقيدة الإسماعيلية الفاطمية كانت تقول لا يصح الصوم إلا إذا رأى الناس الخليفة: ويتجه الموكب من باب الذهب في القصر إلى باب النصر. ثم يتجه إلى المقابر لزيارة الآباء والأجداد في مقابر (الزعفران) ومكانها الآن خان الخليلي وينتهي الموكب عندما يتجه مرة أخرى إلى قصر الخليفة حيث يدخل إلى القصر ويبقى أفراد الشعب خارج القصر حتى تخرج لهم الموائد وتوزع عليهم الهبات. ويظلون في فرح ومرح حتى يأتي السحور.

وعلى الموائد التي كانت تستمر في القصر طول الشهر. كان الخدم يطوفون وهم

يحملون كيزاناً كبيرة من الخزف المزخرف وبها ماء عليه بخور. وكان على كل واحد ممن يدعون إلى هذه الموائد أن يشرب من هذا الماء.

أثر الصوم في تقوية الشخصية

قال الدكتور حامد الخولي: في الصائم قوتان متنازعتان: قوة روحية وقوة جسدية. والقوة الجسدية: هي الأساس في التكوين الإنساني مفحمة ودانية والقوة الروحية: قارئة على القوة الجسدية بدليل أننا لا نكلف الصبي تكاليف إلا إذا بلغ الرشد وهي وليدة الشرائع السماوية والوضعية. ورغباتنا تقوم على التضحية بالرغبات الجسدية ومن أجل هذا إذا خلّي بين المرء ونفسه استجاب إلى الرغبات الجسدية وتحلل من القيود الشرعية الوضعية.

وبهذا كان الصائم رقيباً على نفسه مستجيباً إلى القوة الروحية واقفاً في طريق الرغبة الجسدية. وبهذا تنعم فيه وتقوى صفة الأمانة تلك الصفة التي كانت الدعامة الأولى في شخصية الرسول عليه السلام. إذ كان يلقب بين قومه بالأمين. والصائم يقاوم الرغبة الجسدية عن طواعية واختيار وبلا دافع ولا رقيب وبهذا تبدو دعامة أخرى من دعائم الشخصية القوية وهي التضحية حيث يضحي المرء برغباته وهي بين يديه. وهو أيضاً مستجيب لنداء الحق فهو مطيع لربه عن اختيار واستماع فاجتمع للصائم من الصفات الأمانة والتضحية. هذا هو الصوم ملاذ البشر في المهمات فالمهتم يترك دواعي الجسد ورغباته ولا يلجأ إليها إلا بقدر المحافظة على الحياة. وهو الرياضة الأولى للمتعبدين والزاهدين والواصلين وإذا كانت مطالب الجسد هي اللذائذ الدنيوية، كان الصوم شعلة الروح وغذاءها فاستجاب لدواعيها وكان الطريق الذي يرقى به المرء في حياته الدنيوية والأخروية. ولمكانة الصوم كان شعيرة في كل الشرائع والأديان، ولمكانته أيضاً أسنده المولى عز وجل إلى نفسه في الحديث القدسي الشريف: «**كل عمل ابن آدم فهو له إلا الصوم فهو لي وأنا أجزي به**» بهذا كان الصوم الدعامة الكبرى في تكوين الشخصية الإنسانية القوية فمرحى مرحى للصائمين دنيا وآخرة.

نصائح طبيه للصائمين

قال الأستاذ مدير معهد التغذية: يجب أن تنبه المعدة عند الإفطار بشيء ساخن قبل أي طعام أو شراب لأنه إذا أفطر الصائم على شرب الماء أو السوائل الحلوة ازداد إفراز بوله

لدرجة كبيرة تجعله لا يرتوي مهما يشرب من الماء. ويستحسن تناوله قطعة من الخبز الناشف مع الشيء الساخن. وبعد ذلك بنصف ساعة يتناول طعام الإفطار.

يجب الامتناع عن تناول السوائل مهما يكن نوعها لمدة ساعتين على الأقل بعد الإفطار. وجبة السحور ضرورية للصائم لأن ناتج هضمها وتمثيلها بالجسم يولد الطاقة الحرارية خلال فترة الصيام. ولذا يجب أن تشتمل هذه الوجبة جميع العناصر الغذائية التي يتطلبها الجسم.

لا يجوز مطلقاً تناول السحور إلا إذا أحس المرء بالجوع تماماً حتى يأمن حدوث اضطرابات الهضم التي تحدث نتيجة لتراكم الأغذية.

اللبن الزبادي مفيد جداً في السحور لأنه يضم المواد (البروتينية) ذات القيمة الحيوية العالية والسكريات والمواد المعدنية والمواد السكرية فيه سهلة الهضم. وهو إلى ذلك غني (بفيتامينات) أ ـ د ـ ب كما يعتبر منعشاً ومرطباً ويعين الجسم على احتمال وطأة الظمأ عند أرتفاع حرارة الجو.

أثر الصوم في الجسم والروح

الدكتور سليمان عزمي له شهرة عظيمة في الشرق كله وقد أحرز شهرة في الغرب أيضاً. وقد أتحف المسلمين جميعاً بهذه الكلمة القيمة.

قال: لقد بحث الأطباء مسائل الصيام الطبية بحثاً مستفيضاً بحيث لم يعد هنالك جديد يمكن أن يقال. وقد خرجنا من كل ما نشر أو أذيع بنقط أساسية. تتلخص في أن الصيام لا ضرر منه على السليم مطلقاً بل فيه فائدة لبعض الأشخاص صحياً. وإذا لحق الصائم ضرراً يكون من صيام من لا ينبغي لهم الصيام شرعاً أو طبياً والآيات في ذلك بينات. والحديث الشريف يقول: «**إن الله يحب أن تؤتي رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه**» وقد يكون الضرر من عدم مراعاة النظم الصحية في تناول الطعام وإفراط الصائم في تناوله بكميات كبيرة يعسر هضمها. أو إفراطه في تناول المواد العسرة الهضم والمهيجة للمعدة. وقد جاء في الحديث الشريف: «**ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه**».

والصيام ينبغي أن يكون صياماً عن النهم والجشع اللذين يلحقان بالجسم ضرراً محققاً. ولكي يتلافي الصائم الضرر يجب أن يفطر على قليل جداً من الطعام ليكسر حدة الجوع ثم بعد أن يؤدي فريضة الصلاة يتناول طعام إفطاره باعتدال. وقد وجدت في سيرة

الرسول عليه السلام أنه كان يفطر على رطبات فإن لم يجد رطبات فعلى تمرات فإن لم يجد تمرات حسوات من ماء. على أن الطب لم يعد مقصوراً على الأجسام بل يتناول الأحوال الشخصية والاجتماعية. وكل منها يعتبر مكملاً ومتمماً للآخر. ويعتبر رمضان من الناحية النفسية شهر صبر واحتمال وبعد عن الغضب والانفعالات النفسية وسمو بالنفس إلى المثل العليا. فيكون شهر صفاء للنفس وهدى لها ويقظة للضمير وتدريباً على قوة الإرادة والبعد عن الرياء. إذ لا يوجد ما يمنع الصائم من أن يأكل سراً ويتظاهر بالصوم رياء. وقوة إرادته وحسن طاعته يمنعانه من ذلك. أما أثر الصوم من الناحية الأخلاقية فإنه يستلزم حسن معاملة الخلق بعضهم للبعض وعدم الشحناء والغضب. فإن ساب الصائم شخص فليجبه بأنه صائم.

ويستدعي الصيام البعد عن الزور والبهتان والتحلي بالفضائل والحديث الشريف يقول: «**من لم يدع قول الزور العمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**» وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش**» ولا شك عندي أن المقصود من هذا الحديث هم الذين لم يتحلوا بالأخلاق الفاضلة قولاً وعملاً.

وأثر الصوم من الناحية الاجتماعية جلي واضح. في التزاور والبر والتعاطف وصلة الأقارب والأصدقاء وانتشار روح الود والتعاون والتآلف بين الناس.

ولرمضان أيضاً ناحيته الاقتصادية. فرمضان والفترة التي تسبق رمضان والفترة التي تتبعه يكون فيها رواج اقتصادي ملموس. يصدق فيها قول الخلق. رمضان كريم، وشهر مفترج. من كل هذا يتضح أن لرمضان بيئة خاصة يعبر عنها العامة بروائح رمضان لأن بهاكل النواحي التي ذكرتها. وتعمر فيها المساجد ويحدث العلماء الخلق بما يصلح دينهم ودنياهم. وبها سمر بريء للكبار ومرح وفرح للصغار. فهي بيئة لها روعتها تلتقي فيها كل النواحي التي ذكرتها. وهي مليئة بالمشاهدات الساحرة ويسود المجتمع فيها البر والفضائل.

فضائل ليلة القدر

لو ذكرنا كل ما يسطر في هذه الكلمة لا نبلغ بعضاً من فضلها العظيم. ليلة القدر خاصة بالأمة المحمدية ولا تذهب إلى من قال إنها ليلة واحدة كانت وانتهى أمرها في زمن الوحي لأن الحق الذي ذهب إليه بعض كبار العلماء إنها باقية لغاية الآن حتى تقوم الساعة.

وسأل بعضهم هل هي في رمضان فقط أو في السنة كلها والجواب على ذلك نقول. ليلة القدر من خصائص الأمة المحمدية فقد روى عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه ذكر لرسول الله ﷺ رجل من بني إسرائيل حمل السلاح على عاتقه في سبيل الله ألف شهر فعجب رسول الله ﷺ وتمنى أن يكون لأمته من الفضائل فقال: «**يا رب جعلت أمتي أقصر الأمم أعماراً وأقلهم أعمالاً فأعطاه الله تعالى ليلة القدر خير من ألف شهر التي حمل فيها الإسرائيلي السلاح في سبيل الله لك ولأمتك إلى يوم القيامة**».

وقال بعض العلماء المؤرخين إن الرجل مِن مَن مضى كان لا يسمى عابداً إلا إذا عبد الله تعالى ألف شهر فأعطى الله سبحانه وتعالى ليلة للأمة المحمدية. إن هم أحيوها كانوا أحق بأن يسموا عابدين من أولئك العباد.

والقول الصحيح أنها لم ترفع وأنها باقية إلى يوم القيامة لأمة محمد ﷺ ما بقي منهم اثنان. لأن الأحاديث الصحيحة ناطقة بالتماسها في ليال مخصوصة ولا يمكن ذلك إلا إذا كانت باقية إلى يوم القيامة.

ثم اختلف العلماء في وقتها فذهب أكثرهم إلى أنها مختصة برمضان لقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾[2] فوجب أن تكون ليلة القدر في رمضان دفعاً للتناقض.

وذهب بعضهم إلى أنها دائرة في السنة كلها. ثم اختلف القائلون إنها في رمضان هل هي في كل شهر رمضان أو في العشر الأخير منه فقط. فذهب بعضهم إلى الأول وذهب الكثير منهم إلى الثاني وخصها بالأوتار.

والسبب في إخفائها على الناس وجوه.

(**أحدها**) إنه تعالى أخفاها ليعظموا جميع السنة على القول بأنها فيها أو في جميع رمضان على القول به أو في العشر الأخير على القول به. كما أخفى رضاه في الطاعات ليرغبوا فيها كلها وأخفى غضبه في المعاصي ليحذروها كلها وأخفى وليه في المسلمين ليعظموهم كلهم وأخفى ساعة الإجابة في يوم الجمعة ليجتهدوا في العبادة في جميع أوقاتها وأخفى الاسم الأعظم ليعظموا كل أسمائه.

---

(١) (٢) البقرة: ١٨٥.

(٢) (٩٧) القدر: ١.

(الوجه الثاني:) إن العبد إذا لم يتيقن ليلة القدر واجتهد في الطاعة رجاء أن يدركها يباهي الله تعالى به ملائكته ويقول تقولون إنهم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء وهذا جده واجتهاده في الليلة المظنونة. فكيف لو جعلتها معلومة فحينئذٍ يظهر أني أعلم ما لا تعلمون.

(الوجه الثالث) ليجتهدوا في طلبها والتماسها فينالوا بذلك أجر المجتهدين في العبادة بخلاف ما لو عينت في ليلة بعينها لحصل الاقتصار عليها ففاتت العبادة في غيرها وقد قيل: (أجرك على قدر نصيبك).

أما فضائلها فكثيرة. منها أن من قام ليلتها غفرت ذنوبه قال ﷺ: «**من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه**» ومنها أنه لا ينعقد فيها نطفة كافر. وهي عبارة عن الليلة التي ينكشف فيها شيء من الملكوت والناس في هذا الكشف متفاوتون. فمنهم من تنكشف له الحجب عن السموات وما فيها فيشاهد فيها الملائكة على صورها ما بين قائم وقاعد وراكع وساجد وذاكر وشاهد ومسبح ومهلل وغير ذلك. وتنكشف له الحجب عن تخوم الأراضين فيشاهد الجن والشياطين ويرى إبليس وأعوانه وعرشه فيدهش لما يرى. ويرى الطائعين والعاصين من أبناء جنسه. ومنهم من ينكشف له غير ذلك على حسب صلاحه ودرجته في الطاعات.

ويحسن لمن رآها أن يكتمها وأن يكثر من التعبد والدعاء في جميع الليالي وبالأخص في ليالي رمضان عسى أن يصادفها ويكون دعاؤه: (**اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عني**).

ومن علاماتها أنها بلجة سمحة لا حارة ولا باردة يعذب فيها ماء البحار ولا ينبح فيها كلب أصلاً وتكون الشمس صبيحتها بيضاء نقية لا شعاع لها كأنها طمست.

وينبغي لمن رأى هذه العلامات صبيحتها أن يجتهد في العبادة والدعاء يومها كما يجتهد في ليلتها فإنه يدرك فضلها إن شاء الله تعالى.

ويستحب الاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان عسى أن يدركها خصوصاً على القول بأنها في العشر الأواخر من رمضان. وكان أبو هريرة وأصحابه رضي الله عنه يعتكفون في رمضان في المسجد ويقولون: نحبس أنفسنا لنظهر صيامنا. وجاء رجل إلى (الشبلي) رضي الله عنهم وقال: يا سيدي أنا محب مهجور فقال له الشبلي: الزم باب الحبيب.

فمضى الرجل ولزم المسجد فكان يصلي الليل كله فإذا صلى الفجر عفر وجهه بالتراب وقال: إلهي المحروم يطلب الوصال. جعلنا الله والمحبين من أتباع الواصلين بجاه السيد الأمين ﷺ وقال بعض الأئمة:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥ ﴾.

ويقول جل جلاله: ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ ﴾[١].

وهذه الليلة التي نوه الله بأنه أنزل فيها الكتاب الكريم وفرق فيها كل أمر حكيم هي ليلة القدر.

فالقدر من ناحية هو المنزلة الرفيعة والجاه العظيم يقال فلان ذو قدر إذا كان رفيع المنزلة شريف المقام. والقدر من ناحية ثانية هو تقدير الأحكام وتوزيع الأقسام على الأنام.

ومعنى ليلة القدر على التقدير الأول الليلة الزهراء ذات الشرف والعزة والثناء. أو الليلة التي يمنح الله فيها عباده المخلصين ما هم أهل له من جاه مشهور ومقام محمود في الدنيا والآخرة.

ومعناها على التقدير الثاني الليلة الي يبرم الله فيها أقدار العباد وأحوالهم ومصاير أمورهم ويبعث بها من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا جملة لتدخل منها في طور التنفيذ على مدى العام.

إذن فهي على كلتا الحالتين ليلة العام كله حفها الله من كل جوانبها بالخير كله. فأينما راجهتها لمست الفضل العميم وقبست الخير العظيم. ولليلة القدر ثلاثة أسماء أخرى كل

(١) (٤٤) الدخان: ٣.

اسم منها يتصل بسبيل سبل الإله التي حفها الله بها ومدها الله إليها. فهي: ليلة البركة. وليلة الرحمة، وليلة السلام.

حكمة الحج

لقد علمت فيما تقدم مما بيناه في حكمة أفضلية صلاة الجماعة والجمعة والعيدين. أن الشارع الحكيم يشير إلى الاتحاد واجتماع الكلمة ووقوف المسلمين مصطفين كتفاً لكتف. وتبادلهم المودة والإخاء وتوثيق عرى التآلف. كل هذا هو السبيل إلى سعادتهم في الدنيا والآخرة.

ونقول هنا إن الله سبحانه وتعالى أرسل نبيه ﷺ والعرب في خصام وتنافر وتنابذ وتقاطع وتدابر. شواجر مقطوعة، وقلوب ملؤها الأضغان والأحقاد. والحروب بينهم متصلة ونيرانها مشتعلة فأمر الله أن يؤلف بين القلوب ويأمر بالاتحاد والوفاق. وشرع لهم طريق الوئام وأسباب الائتلاف في تلك المواطن التي ذكرناها.

ولما رأى الشارع الحكيم أن هذه الطريق غير كافية لانتظام شمل المسلمين وتوحيد كلمتهم وجعلهم كرجل واحد في الألفة وتبادل المنفعة إذ هم متفرقون في مشارق الأرض ومغاربها. كما أنهم مختلفون من جهة العناصر واللغات. فشرع لهم الحج ليجتمعوا في صعيد واحد على اختلاف أجناسهم ومذاهبهم وبعد بلادهم وأقطارهم كما قال الله تعالى في كتابه العزيز ﴿**وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق**﴾ فإذا اجتمعوا من أمكانهم الشاسعة حصل بينهم التعارف والتآلف. وعرف العربي الهندي، والتركي الصيني، والمصري الشامي، والمغربي الجاوي. وهلم جراً. حتى أنهم بهذا الاجتماع وهذا التعارف كالأخوة الذين هم من أب واحد وأم واحدة لرابطة الدين التي جعلتهم كذلك بلا فرق بين قبيلة وأخرى. أو عنصر وآخر.

هذا وأن تآلف القلوب واتحاد الكلمة بواسطة هذا الاجتماع وإن كان فيه فائدة عظيمة للمسلمين إلا أن هناك أموراً أخرى يحصلون عليها في انتظام أحوالهم الدنيوية. وهي أن يعرف كل قبيل ما في بلاد القبيل الآخر من أحوال التجارة والصناعة والزراعة والفوائد المستحسنة. فيقتبسون من بعضهم هذه المنافع التي لو أردنا تعدادها لخرجنا عن المراد من هذا الباب. وعلى الجملة فإنهم يتبادلون كل ما فيه مصلحتهم الدنيوية والأخروية. وهذا هو معنى الجامعة الإسلامية الي تتخوف منها أوروبا.

ونقول زيادة على ذلك أنهم إذا اجتمعوا وكان فيهم طائفة مغلوبة على أمرها من حاكم ظالم أو عدو شديد البطش أخذت الأمة القوية بناصرها وأنقذتها من كل خطر محدق بها مهما كان عدوها من قوة وسلطان.

وهذه المنافع العديدة والفوائد الجميلة الجليلة أشار إليها الكتاب العزيز بقوله: ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾(١) ورب قائل يقول: إن الحج لم يكن في الإسلام فقط بل كان من قبل الإسلام من عهد سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام. فنقول له إن الحج لم يكن قبل الإسلام على هذه الصورة التي قررها الشارع الحكيم. وأيضاً أن العرب في جاهليتهم أدخلوا في الحج ما لا ينطبق على شريعة سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام. فجاء الإسلام مغيراً مما هو ليس في الدين. ولو سلمنا جدلاً بأن جميع أفعال الحج الآن كانت في زمن الخليل عليه السلام فالشريعة الإسلامية هي ملة إبراهيم عليه السلام كما قال الله تعالى: ﴿ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ﴾(٢).

وقد حضت السنة النبوية بعد كتاب الله جميع الأمة على انتهاز هذه الفريضة التي تنقلهم من حال إلى حال. ومما ورد في السنة قوله ﷺ: «**من مات ولم يحج حجة الإسلام من غير أن يمنعه سلطان جائر أو مرض حابس أو عدو ظاهر فليمت إن شاء نصرانياً أو مجوسياً**» وروي عنه أيضاً أنه قال: «**من ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله الحرام فلم يحج فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً**».

ومما يؤسف عليه أن الغربيين فقهوا وعرفوا هذه الحكم الجليلة وحسبوا لها ألف حساب وعرفوا أن الحج هو تأييد للجامعة الإسلامية فتخوفوا من ذلك كثيراً.

أما المسلمون فإنهم جهلوا هذه المنافع الكثيرة. ومن يؤدّي فريضة الحج منهم إنما يؤدّيها على أنها فرض يجب أداؤه بلا نظر فيما هو فيه من تلك المنافع والفوائد والحكم التي بيناها وسنبينها بعد. وقد ذكر في البدائع ما يأتي.

إن العبادات وجبت لحق العبودية أو لحق شكر النعمة إذ كل ذلك لازم في العقول. وفي الحج إظهار العبودية وشكر النعمة. أما إظهار العبودية فلأن إظهار العبودية هو إظهار التذلل للمعبود وفي الحج ذلك. لأن الحاج في حال إحرامه يظهر الشعث ويرفض أسباب التزين والارتفاق ويتصور بصورة عبد سخط عليه مولاه فيتعرض بسوء حاله لعطف مولاه

---

(١) (٢٢) الحج: ٢٨.
(٢) (٦) الأنعام: ١٦١.

ومرحمته إياه. وفي حال وقوفه بعرفة بمزلة عبد عصى مولاه فوقف بين يديه متضرعاً حامداً له مثنياً عليه مستغفراً لزلاته مستقيلاً لعثراته. وبالطواف حول البيت يلازم المكان المنسوب إلى ربه بمنزلة عبد معتكف على باب مولاه لائذ بجنابه. وأما شكر النعمة فلأن العبادات بعضها بدنية وبعضها مالية. والحج عبادة لا تقوم إلا بالبدن والمال ولهذا لا يجب إلا عند وجود المال وصحة البدن. فكان فيه شكر النعمتين. وشكر النعمة واجب عقلاً وشرعاً والله أعلم.

حكمة أن الحج فيه منافع للتجارة

قلنا في غير هذا الموضع إن المسلمين يجتمعون في زمن الحج في صعيد واحد على اختلاف أجناسهم ومذاهبهم ولغاتهم وبعد بلادهم وأقطارهم الشاسعة كما قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾[1].

إذا علم الإنسان ذلك، إذن فلا طريقة أنجع للتجارة وتبادل المنافع بين المسلمين إلا هذا الموسم العظيم الشأن الذي يقول فيه الشاعر العربي.

ما أحسن الموسم من موعد وأحسن الكعبة من مشهد

نعم إنه موسم جليل يجتمع فيه الحجيج من كل بلاد المعمورة وكل بلد تعرض نموذج تجارتها وصناعتها بين أهل البلدان الأخرى التي لا يمكن التوصل إليها إما بسبب البعد أو لأمر سياسي آخر. زد على ذلك أن المواصلات كانت صعبة جداً في الزمن الغابر حتى بلغت الحال أنه كانت لقريش رحلتان لا غير في العام في شأن التجارة. رحلة في الصيف إلى الشام. ورحلة في الشتاء إلى اليمن. وكانوا يمتارون ويتجرون وهم آمنون في طريقهم. لأنهم أهل حرم الله فلا يتعرض لهم أحد بالأذى والسلب والنهب. وغير خاف على أحد أن هاتين الرحلتين لا تكفيان أهل هاتيك البلاد ومن جاورها فكان موسم الحج فيه فوائد جمة بالنسبة للتجارة وغيرها من كل أمر يعود عليهم بالنفع العظيم والخير الجسيم.

أنظر بعينك ترى الأمم الأخرى المتمدينة تقيم المعارض على اختلاف أنواعها في

(١) (٢٢) الحج: ٢٧ ـ ٢٨.

بلادها كل عام وتدعو لها الأمم الأخرى. ما ذاك إلا لأجل بث الدعوة في نشر سوق التجارة والصناعة والزراعة بين الوافدين إلى هذه المعارض، المشاهدين لما قد حواه كل معرض ومهما بالغنا وزدنا حد المقدار في عد النفر الذي يشاهد هذه المعارض فلا يبلغ عشر حجاج بيت الله الحرام. إذاً تكون الفائدة عظمى في نشر التجارة بين الحجيج إذ يعود كل نفر إلى بلده ويقص على معارفه وذوي قرباه ما شاهده بعيني رأسه وما سمعه بأذنيه، بين قومه وبني جنسه.

من أجل ذلك كله تعلم أن الحج كما هو موسم ديني فكذلك هو موسم اقتصادي وتجاري من أعظم مواسم الدنيا. ولا تلتفت لمن يقول غير ذلك لأنه جاهل بنفسه فضلاً عن معرفته هذه الحكم الباهرة.

حكمة أن الحج فيه تهذيب للأخلاق

إذا كانت تربية الوالدين للأولاد في بيوتهم والمعلمين في معاهدهم ومدارسهم تفيد البنين فهي أقل فائدة بكثير من الدرس الذي يأخذه الحاج في زمن الحج. وإذا كان الشاعر يقول:

إذا كان الطباع طباع سوء فلا أدب يفيد ولا أديب

فنقول له قد أخطأت المرمى في ذلك وطاش سهمك. ودليلنا على ذلك أن من يقصد الحج نراه قد انتقل من حالة إلى حالة، وصار من الذين أنعم الله عليهم بنعمة الأخلاق الفاضلة الطاهرة الخالصة من كل الشوائب والريب.

ترى الإنسان إذا قصد الحج فقبل خروجه من بلده وعقر داره يتوب إلى الله تعالى وينوب وينوي أن لا يعود إلى ارتكاب الذنوب وجريمة الفسوق. ولا يؤدّي جميع المناسك في الحج إلا وهو على اعتقاد جازم بأن الله سبحانه وتعالى يغفر له ذنوبه ويمحوها من صحيفة أعماله. وإذا سولت له نفسه بارتكاب ذنب يوماً ما جرّد من نفسه وازعاً يردع هذه النفس الأمارة بالسوء ويكبح جماحها. وإذا كان الأمر كذلك وكما ذكرت عرفت أنه لا يوجد مهذب حقيقي أكثر فائدة للإنسان مثل الدرس الذي يأخذه في زمن الحج. على أنه لو فرضنا وسولت نفس الحاج له ارتكاب ذنب أو وقوعاً في جريمة لا يعدم من الناس الذين حوله من يقوم بتأديبه وتأنيبه وتقبيح هذا الذنب له في نظر عينه. وحسبك هذا وحده فضيلة من فضائل الحج وهي لا تماثلها فضيلة.

إذن الواجب على الحكومات والممالك الإسلامية وغير الإسلامية أن تسهل لرعاياها طريق الحج وسبله ولا تجعل في وجوههم العراقيل. لأن في الحج تهذيباً للنفس وأمناً في البلاد. وهذه هي السعادة الحقيقية التي تعود على الهيئتين الحاكمة والمحكومة معاً.

الحج عند الأمم في الزمن الغابر

كانت الأمم الغابرة في قديم الزمان لها اجتماعات في موضع مخصوص يكون مقدساً ومحترماً عندهم على حسب مذاهبهم وعقائدهم وتباين مللهم ونحلهم ويسمى هذا (الحج).

وكان المصريون مثل الأمم الأخرى لهم معبودات كثيرة وكل معبود له هيكل مخصوص فكانوا يقصدون الحج إلى هيكل معبودهم مثل (ايزير) بمدينة (صا) (وفتاح) بمدينة (منفيس) (وأمون) في (طيبة) وهلم جراً. وكانت أيام الحج عندهم تعد من أسعد الأيام التي يتبركون فيها بالدعوات الصالحات على حسب ما كان مألوفاً ومتعارفاً فيما بينهم. وكان الذي يولد في هذه الأيام يعد من أسعد الناس حظاً ويزعمون أنه يكون من كبار رؤساء الدين بعد.

واليونان كانوا يحجون إلى هياكل محترمة ومقدسة عندهم. فكانوا قبل المسيح عليه السلام بنحو خمسين قرناً يحجون إلى هيكل (ديانا) في (أفسوس) واستمروا على ذلك إلى القرن الثاني قبل المسيح. وبعد هذا الزمن صاروا يحجون إلى معبد (مينارفا) في أثينا عاصمة اليونان (وجوبيتير) في (أولمبيا).

واليهود من أول القرن الرابع عشر قبل المسيح كانوا يحجون إلى الموضع الذي به تابوت العهد وهو محترم عندهم كثيراً. وكانوا لا يكتفون بحجة واحدة في العام بل يحجون إليه ثلاث مرات في العام. وكان سوق التجارة رائجاً في (أورشليم) نظراً لهذا الاجتماع العظيم. وكان السبب الوحيد في عمارة (أورشليم) وقد استمرت أورسليم زمناً ليس باليسير وهي زاهية عامرة إلى أن أحرقها الأمبراطور (طيطوس) الروماني وطرد اليهود منها وكان ذلك سنة ٧٠ ميلادية.

وما زالت اليهود بعيدة عن بيت المقدس إلى أن استولت العرب عليه سنة ١٦ هجرية الموافقة سنة ٦٣٦ ميلادية. وبالنظر لعدل الإسلام أقرهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع النصارى على ما كان لهم في بيت المقدس. واستمر اليهود والنصارى على ذلك إلى أن

قامت الحرب الصليبية المعروفة. وفي تلك الأيام صار الحج لهم غير ميسور بالنسبة لعدم أمن الطريق إلى أن جاء دور آل عثمان وأخذت هذه الأماكن سنة (١٥١٧) ميلادية فمهدت السبيل إلى (أورشليم) وأعادت إليها بهجتها الأولى وأمنت كل الطرق التي توصل إلى بيت المقدس ولغاية هذا التاريخ تحج اليهود إلى قطعة من السور القديم لهيكل سليمان في الجهة الغربية في المسجد الأقصى.

والنصارى يحجون إلى بيت المقدس من سنة (٣٠٦) بعد المسيح وهذه السنة هي التي سارت فيها (هيلانة) أم الأمبراطور (قسطنطين) قاصدة (أورشليم) وابتنت بها كنيسة القبر المقدس المشهورة بكنيسة (القيامة) والنصارى إذا اقتربوا من بيت المقدس يغتسلون في نهر الأردن ويزعمون أن هذا من باب التطهير لهم. ويلتحف كل واحد منهم برداء يجعله معه ليصير كفناً له عند موته.

وفي الزمن الذي استولى فيه (السلجوقيون) على بيت المقدس أتت الفرنج من كل فج وحولوا وجوههم إلى كنيسة بطرس وبولس في (روما) وفي (تريف) بجرمانيا. ويزعمون أن قميص المسيح عليه السلام الذي كان يلبسه موجوداً بكنيسة (تريف).

ويحجون أيضاً إلى كنيسة (لوردة) في جنوب فرنسا. أما الآن فصار أغلبهم يقصد بيت المقدس لسهولة الطريق الذي كان وعراً في الزمن الغابر.

والهنود لا يزال بعضهم يحج إلى هيكل (جوغرانات) ويسمى هيكل (الورى) وهو محفور في الصخر في مدينة (حيدر أباد) ويحجون أيضاً إلى هيكل (بوذا) الكائن بجزيرة (منا) القريبة من جزيرة سيلان منفى عرابي باشا. وهم يحترمون هذه الهياكل ومقدسة عندهم التقديس كله.

والصينيون يحجون إلى هيكل المعبود (نيان) من الزمن القديم ويتكبدون في سبيل ذلك سفراً شاسعاً وقطع مسافات بعيدة تعد بالفراسخ والأميال.

واليابانيون يحجون من زمن قديم جداً إلى هيكل مشهور ومحترم عندهم في ولاية (سجا) وكما أن الحج يفترض على المسلم مرة واحدة في عمره فكذلك تجب عندهم زيارة هذا الهيكل لكل فرد مرة واحدة في عمره وإن زاد على ذلك فيكون من باب زيادة الخير. والغريب من ذلك أنهم أخذوا عادة المسلمين في لباسهم وقت الإحرام. إذ تراهم يتوجهون إلى هذا الهيكل بملابس بيضاء على شكل مخصوص ولبس مخصوص. وهم على

طائفتين: طائفة منهم تستر العورة فما فوقها بهذا اللباس الأبيض المخصوص، وطائفة يقصدون عراة ليس على جسمهم إلا ما يستر العورة. ولما توجهنا إلى بلاد اليابان أوقفناهم وعرفناهم لبس الحاج المسلم في زمن الإحرام وبينا لهم الحكمة في ذلك فصاروا يتعجبون ويستغربون من ذلك لأن عادتهم تقرب من عادة المسلمين في لباسهم في المدة التي يكون فيها الحاج محرماً فسبحانه من حكيم خبير.

حكمة فضل البيت الحرام

الحكمة في فضله عظيمة لأنه أول بيت وضع للناس يؤمونه من جميع الأقطار لإظهار شعائر دينهم وتوحيد الخالق وتمجيده كما قال الله تعالى: ﴿**إن أول بيت وضع للناس بمكة مباركاً وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً**﴾.

فيعلم من هذه الآية الشريفة أن فضله إنما هو لكونه أول بيت وضع للناس كما قلنا. ولكونه فيه مقام إبراهيم الخليل عليه السلام. وللمزية التي اختصه الله بها. وأيضاً لكونه من دخله كان آمناً على نفسه حتى الطيور في أوكارها.

كان العربي يقتل ويدخل هذا البيت المشرف ويضع في عنقه خصلة من الصوف حتى إذا رآه من يطالبه بثاره تذكر أنه في البيت المكرم فلا يصيبه بأذى. وكثيراً ما قصده الجبابرة بالسوء فأهلكهم الله تعالى وحماه منهم بحماه كأصحاب الفيل الذين أرسل عليهم ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤﴾[1] (اي من طين) ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾. وقد زاده الله فضلاً بأن جعله المكان الذي يوجه المسلمون وجوههم شطره في صلاتهم.

احترام الكعبة قبل الإسلام

الكعبة قبل الإسلام كانت معظمة ومحترمة عند الكبير والصغير لا فرق بين الوثني وغيره. ولم يقف احترامها في جزيرة العرب فقط. بل اخترق البحار حتى وصل إلى الهند والصين. وكانت الهنود تعتقد أن روح (شبوة) أحد آلهتهم التي كانوا يعبدونها قد تقمصت الحجر الأسود حين زيارته مع زوجته لبلاد الحجاز وكانوا يقدسون الحجر الأسود تقديساً يفوق الوصف.

---

(١) (١٠٥) الفيل: ٤.

والصابئة كانت تقدس الكعبة تقديساً عظيماً لأنها كانت معتبرة عندهم من البيوت السبعة المحترمة. وأغلب بلاد الشرق كانت تدين بدين الصابئة مثل العجم والهند ولا يزال مذهب الصابئة في بعض البلاد إلى الآن.

ولقد ذكر الإمام المسعودي في تفسيره شيئاً تعلم منه أن العرب كانت تحترم مكان الكعبة المشرفة قبل بناء إبراهيم عليه الصلاة والسلام لها. وقال ما معناه: إن قوم عاد لما أصابهم القحط وهم من العرب البائدة وكانت مساكنهم من بلاد اليمن إلى حضرموت كانوا يعظمون موضع الكعبة المشرفة، وكانت ربوة حمراء. فوفدوا إلى مكة يستسقون وقد عكفوا على شرب الخمر ولما رأت بعض الجواري منهم هذا الفعل أنشدتهم قولها:

ألا يا قيل ويحك قم فهينم　　لعل الله يمطرنا غماما
فيسقي أرض عاد إن عاداً　　قد أمسوا لا يبينونا الكلاما

وبعض المؤرخين يعتقد أنه ربما كان معبداً قديماً كائناً للعماليق في ذلك الموضع وتلاشى أمره قبل دخول إبراهيم عليه السلام إلى هذه البقعة.

وكان الفرس يحترمون الكعبة احتراماً فوق الوصف ويعتقدون أن روح (هرمز) حلت فيها وكانوا يحجون إليها قبل الإسلام بزمن بعيد. ولذلك يقول شاعرهم:

وما زلنا نحج البيت قدما　　ونلقى بالأباطح آمنينا
وساسان بن بابك سار حتى　　أتى البيت العتيق يطوف دينا
فطاف بهم وزمزم عند بئر　　لإسماعيل تروي الشاربينا

واليهود كان احترامهم لها عظيماً، ويقال إنهم كانوا يتعبدون فيها قديماً على دين إبراهيم عليه السلام.

والنصارى من أهل جزيرة العرب وغيرها لم يكن احترامهم لها بأقل من سواهم من باقي الأمم. فإنهم كانوا يضعون الصور والتماثيل في الكعبة. من ذلك تمثال لإبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام، وصورة العذراء والمسيح وهلم جرا. ووضعت العرب أصناماً عليها على تغاير معبودات القبائل والعشائر. ولقد بلغ سمو مكان الكعبة قبل الإسلام إنهم جعلوا لها حرماً من كل الجهات إذا دخله الإنسان صار آمناً على نفسه. بل لم يقف الأمر على الإنسان وحده بل تناول الحيوانات وأصناف الطيور.

وكان أهل جزيرة العرب يحجون إليها من جميع أنحاء بلادهم. وكانت أشهر الحج عندهم: شوال وذا القعدة وذا الحجة وكانوا يحرمون القتال في أشهر الحج. ويقولون لا بد أن يكون الحاج آمناً على نفسه وماله في هذه الأشهر حتى يرجع إلى بلده سالماً.

وقد وجد بمكة في زمن الجاهلية جماعة (حزب) يقال له (حلف الفضول) انضم إليه بنو هاشم وبنو أسد وبنو زهرة وبنو تميم. وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً سواء أكان من أهلها أو غير أهلها من سائر الناس إلا أخذوا بيده. ومن وجد مظلوماً كانوا معه حتى ترد إليه مظلمته. وقد حضر الحلف رسول الله ﷺ وبذلك يقول: **«لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم ولو دعي به في الإسلام لأجبت»**.

وما زالت مكة كذلك حتى أتى الإسلام وصارت كعبة للمسلمين وقبلة يتوجهون إليها في صلاتهم وأصبحت مركز الدائرة لهم. يجمعهم بها حبل دينهم المتين ولها عندهم من الاحترام والتقديس والإجلال والإعظام ما لا يقوى على وصفه إنسان ولا يتخيله جنان: ولو رأيت القوم في زمن الحج لدهشت من ذلك المنظر الغريب العجيب. فبعضم تأخذه هزة كبيرة وبعضهم يقف ساكتاً ساكناً متأدباً صاغراً أمام عظمة الله الكبرى. وبعضهم يبكي ويصرخ من شدة الخوف الذي يعتريه ولسانه يلهث بجمل مقطعة وكلام غير مفهوم من عظمة ما يراه. وآخرون يأخذون في البكاء والنحيب: كل ذلك في هذا الموقف العظيم كأنه مؤقف الحشر الثاني.

هذا شأن الكعبة المشرفة في الجاهلية الأولى قبل الإسلام ترى الناس مع اختلاف دياناتهم ومذاهبم ومللهم ونحلهم ومشاربهم متفقون على إحترامها وتقديسها. واتخذها كل منهم معبداً يعبد فيه على حسب دينه ومذهبه.

وما زالت الكعبة على هذا الشأن من الاحترام والتعظيم حتى دخل مكة رسول الله ﷺ عام الفتح فأمر بإزالة ما عليها من الأصنام وأشار عليهم بعود في يده الشريفة وهو يقول: **(جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً)** وقال ﷺ: **«ألا إن مكة حراماً حرمها الله تعالى يوم خلق السموات والأرض لم تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد بعدي وإنما حلت لي ساعة من نهار ثم عادت حراماً إلى يوم القيامة لا يختلى خلاها ولا يعضد شجرها ولا ينفر صيدها»** وقال في حديث آخر: **«إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً ولا أن يعضد بها شجرة فإن أحد ترخص بقتال رسول الله**

فيها فقولوا إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم وإنما أذن لي ساعة من نهار وقد عادت اليوم كحرمتها بالأمس وليبلغ الشاهد الغائب».

ولما تغلب ابن الزبير على مكة (هدمت الكعبة) وشرع ابن الزبير في إعادة بنائها. وقد أرسل إليه ابن عباس رضي الله عنه كتاباً يقول فيه: لا تدع الناس بغير قبلة انصب لهم حول الكعبة الخشب واجعل عليها الستور حتى يطوف الناس من ورائها ويصلوا إليها: وقد نفذ ابن الزبير ما قاله ابن عباس في كتابه له. ولما وصل البناء الركن وقاموا بوضع الحجر الأسود في مكانه أمر ابن الزبير ابنه وجبير بن شبيبة بن عثمان أن يجعلا الحجر الأسود في ثوب وقال لهما: إذا دخلت في صلاة الظهر فاحملوه واجعلوه في موضعه فأنا أطول الصلاة. فإذا فرغتم فكبروا حتى أخفف الصلاة: فلما وضع الرجلان الحجر الأسود في موضعه كبرا وخفف ابن الزبير صلاته. وعند ذلك غضب جماعة من قريش لأنهم كانوا يريدون مسألة التحكيم الذي حصل في زمن آبائهم وأجدادهم الأول. حيث حكموا النبي ﷺ قبل بعثته. ثم بعد ذلك رضوا على ما فعل ابن الزبير لأن الأمر قد حصل وتم. وكان ذلك في السنة الخامسة والستين من الهجرة.

ومكثت الكعبة على البناء الذي أحدثه ابن الزبير رضي الله عنه عشر سنوات حتى جاء عصر عبد الملك بن مروان في دولة بني أمية وحاصر الحجاج الثقفي ابن الزبيرْ وقتله وتغلب الحجاج على شيعة ابن الزبير ومن كان يناصره وأراد الحجاج أن ينقض ما فعله ابن الزبير في الكعبة ولكن خشي عبد الملك بن مروان فكتب إليه يخبره أن ابن الزبير زاد في الكعبة ما ليس منها وأحدث فيها باباً آخر واستأذنه في ردها إلى ما كانت عليه في زمن الجاهلية. فأذن عبد الملك. وأزال الحجاج الجدار الذي من جهة الحجر الأسود وسدّ الباب الغربي ورفع باب الكعبة وصيرها على ما كانت عليه في زمن الجاهلية. وقد ندم عبد الملك بن مروان على إذنه للحجاج وما فعل حتى لعنه وقال: وددنا أنا نزلنا أبا خبيب وما تولي من ذلك، ولكن فات الوقت ونفذ ما أراده الحجاج وقد كان ما كان ولا يفيد الكلام.

مضى زمن ابن الزبير وعبد الملك بن مروان والحجاج. وبعد ذلك اختلف في شأن الكعبة. أفيتركون الكعبة كما بناها الحجاج أم يعيدوها إلى ما كانت عليه من بناء ابن الزبير. ولما آلت الخلافة إلى العباسيين وتولى الخلافة هارون الرشيد أراد هدم الكعبة وردها إلى بناء ابن الزبير. وسأل الإمام مالكاً رضي الله عنه في ذلك. فقال له الإمام مالك: يا أمير

المؤمنين لا تجعل كعبة الله ملعبة للملوك: فترك الرشيد الكعبة كما هي الآن. وما زاد المسلمون شيئاً في بناء الكعبة إلا ما اعتراه الوهن بسبب كثرة الأمطار التي أضرت بجدران الكعبة.

وقد حصل في سنة (١٠٤٠) الف وأربعين هجرية الموافقة سنة (١٦٣٠) ميلادية أنه نزل بمكة مطر عظيم استمر يومين كاملين بغير انقطاع حتى دخل المسجد الحرام وارتفع ودخل الكعبة المشرفة وقد وهن البناء الذي مضى عليه نحو ألف سنة وبدأت الجدران تتساقط وقد فزع الناس من هذا الهول وانزعجوا. وجاء أمير مكة في ذلك الوقت إلى المسجد الحرام وأخرج القناديل خشية الضياع لأنها كلها من الذهب الخالص وأحدها مرصع باللؤلؤ. وصارت أحجار الكعبة المشرفة تتساقط من الوهن الذي أصابها من كثرة الأمطار التي نزلت، وقد قام عظماء مكة وما جاورها بخدمات عظيمة حتى نظفوا المسجد الحرام من الرمال والتراب وتشاور الناس في أمر الكعبة وما يصنعونه بها. وقد انعقد رأي العلماء والعظماء على المبادرة بعمارة الكعبة من مالها الخاص بشرط أن يعرض الأمر على السلطان. ولا يمنع أحد من التبرع في عمارتها من ماله الخاص بشرط أن لا يكون المال فيه شبهة.

وقد وصل أمر بناء الكعبة وما أصابها إلى الأقطار الإسلامية على اختلاف مذاهبها ونحلها فاضطرب الناس وانزعجوا من ذلك.

وكان أمير مصر في ذلك الوقت محمد باشا الألباني من قبل الدولة العلية. فكتب إلى السلطان يخبره بذلك وانتظر ورود الرد من الأستانة. فأرسل السلطان كبيراً من المهندسين إلى مكة المشرفة ليرى الكعبة بنفسه وما حل بها من مصائب الزمن. ووصل المهندس مكة في منتصف شوال من تلك السنة.

وقد اتفق رأي الجميع على حصول عمارة للكعبة. وأول شيء عمل أنهم أحاطوا الكعبة بسياج من الخشب يطوف الناس به ويتخذونه قبلتهم كما فعل ابن الزبير في أيامه. وكانوا يجتهدون في إعادة الأحجار التي بنى ابن الزبير بها الكعبة إلا ما وهن منها أو ضعف فيستبدل بغيره. ووجدوا خطراً كبيراً في وضع الحجر الأسود مكانه أثناء العمارة لأنهم رأوا قطعاً تتناثر منه مع ما له من القدسية والاحترام كما هو معلوم عند جميع المسلمين. من أجل ذلك اجتهد جميع المهندسين الذين باشروا العمارة في معالجة هذا الخطر وسد ما بين أجزائه حتى عادت قوته وكفل بقاؤه لوقتنا هذا.

ولما تمّ البناء كتبوا محضراً وقعه جمع كبير من أشراف وعظماء مكة وأرسلوه إلى والي مصر وهذا أرسله إلى السلطان في الأستانة وكانت مصر أول الأمم الإسلامية التي قامت بهذه العمارة العظيمة في الكعبة المشرفة. وقد تكفلت وتعهدت بجميع نفقات المهندسين بخلاف ستة عشر ألفاً من الجنيهات صرفت في العمارة وحدها. ولم يزل البناء قائماً لغاية يومنا هذا ولم يحصل فيه أي خلل أو تصدع أو وهن وهو باق إلى أن يشاء الله رب العالمين الذي يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

انتقام الله من الجبابرة التي قصدت الكعبة

رأيت في الفصل السابق كيف كانت الكعبة المشرفة معظمة في الجاهلية والإسلام. ومن أجل ذلك أراد غير واحد من الجبابرة الطغاة الذين طمس الله على قلوبهم وجعل على أبصارهم غشاوة تحويل العرب عن الكعبة إلى شيء آخر.

وأول ما حدثنا عنه التاريخ أن تبّعاً بن حسان ملك حمير كان عائداً من حرب الأوس والخزرج فأراد هدم الكعبة. وكان ذلك الطاغية يهودياً فمنعه من كان معه من أحبار اليهود. ثم آل أمره بعد ذلك إلى أن كساها كسوة فاخرة وعاد إلى بلاده. وكفى الله المؤمنين القتال.

وحصل في القرن الأول قبل الهجرة أن غطفان بنت حرماً مثل حرم مكة وقصدت تحويل العرب إليه. وقد كان ملك العرب في ذلك العهد زهير بن حبان. فلما بلغه ذلك الخبر قال: لا والله لا يكون ذلك أبداً وأنا حيّ. ثم جمع قومه وعشيرته وقال لهم: إن أعظم مأثرة ندّخرها عند العرب أن نمنع غطفان من ذلك فقالوا سمعاً وطاعة: وصاروا يداً واحدة. وحصل بينهم قتال شديد. وكانت الدائرة على غطفان حيث بدّدهم زهير وأبطل حرمهم الدعيّ في الأرض.

وفي سنة (٦٠) ستين قبل الهجرة حصلت فتنة بين ملك حمير ونصارى نجران. وكاد الأول يستأصل شأفتهم فانتصرت لهم الحبشة وكانت الدائرة عليه وتوغلوا في البلاد ودانت لهم الرقاب وانفرد أبرهة بالحكم وبنى صنعا (الكنيسة) وأراد أن يجعلها بدل الكعبة المشرفة ويحول إليها حج العرب. وسار بجيوشه الجرارة قاصداً هدم الكعبة. ولما وصل الطائف بجيوشه الكثيرة بعث جانباً من جيشه إلى مكة وأخذ أموال أهلها بالقوة. وكان فيها مائتا بعير

لعبد المطلب وكان سيداً من سادات العرب وكبيراً في الحسب والنسب. فقصد إبرهة وطلب منه أن يرد إبله إليه. فقال له إبرهة:

أتكلمني في إبلك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك وأنت تعلم أني قد جئت لهدمه: فقال له عبد المطلب أنا رب الإبل وللبيت رب يحميه: فأعطاه إبرهة الأبل التي ساقها هدياً. ودخل عبد المطلب مكة وهو يقول وينشد قومه:

يا أهل مكة قد وافكموا ملك ... مع القيول على أثوابه الزرد
هذا النجاشي قد سارت كتائبه ... مع الليوث عليها البيض تتقد
يريد كعبتكم والله مانعه ... كمنع تبع لما جاءه حرد

وأخذ إبرهة في الزحف بجيوشه الجرارة قاصداً مكة ولما أقترب من المزدلفة عند جبال يطلق عليها جبال النار صادفه طير من الأبابيل وهو يشبه صغار العصافير السوداء. ونوعه لا يزال موجوداً هناك إلى الآن. وحلق ذلك الطير فوق الجيش وأخذ يرميه بحجارة صغيرة من طين والجيش لا يحسب له حساباً لأن الحجر لا يزيد عن قدر حبة العدس. ولما وصل الجيش مكة فشا فيه الجدري وما ترك صغيراً ولا كبيراً إلا أصابه. وكان مع الجيش ذلك الفيل الذي يطلق عليه عند العرب اسم (محمود) وأرادوا سوقه فلم يقدر على الحركة ومات هناك.

ويروي بعض المؤرخين أنه دفن بموضعه المشهور بباب (جرول) وهو الموضع الذي يخيم عنده المحمل المصري. وكانت له قبة أزالها الشريف عون شريف مكة سابقاً:

ولما نظر إبرهة ما هاله من كثرة الأمراض التي أهلكت جيشه وفتكت به قصد الهرب. ولكن الذي غضب على بيته المشرف لم يمهلهم بل أرسل عليهم سيلاً عرماً أغرق غالبهم. ولم ينج من الجيش إلا من أخبر بهذه الحادثة التي لا نظير لها في التاريخ.

وقد حصلت هذه الحادثة عام ولادة النبي ﷺ وقد أطلقت العرب على هذه الحادثة قولهم: (عام الفيل) وقد قص الله هذه الحادثة في محكم كتابه حيث يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥﴾[1].

(١) (١٠٥) الفيل: ١ ـ ٥.

وكان حق هذه الحادثة التاريخية أن تكون عبرة لمن يعتبر من الجبابرة الطغاة سفاكي الدماء ومنتهكي الحرمات. ولكن من يضلل الله فلا هادي له. إذ قد ظهرت في العراق طائفة القرامطة أيام المقتدر العباسي. وهم ينسبون إلى موالاة محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. ولهم اعتقاد مخصوص ويكفرون كل من خالفهم في مذهبهم. وأول من ظهر من هذه الطائفة أبو طاهر القرمطي. وفي إبان ظهوره بنى داراً في هجر أسماها دار الهجرة وأراد أن ينقل إليها حجاج بيت الله الحرام فلم يفلح وخاب سعيه. فأخذ ينتقم من الحجاج وقصد الطرق الموصلة إلى مكة وفتك بهم. حيث دخل هذا الطاغية العنيد بخيله ورجاله الحرم الشريف ووضع السيف في الطائفين والعاكفين والركع السجود!!! وقد قتل منهم ما يزيد عن ثلاثين ألف نفس!!! واقتلع باب الكعبة المشرفة وأخذ ما كان عليه من سبائك الذهب بل أخذ جميع ما في خزينة بيت الله الحرام من المجوهرات التي لا تقدر بثمن. واقتلع الحجر الأسود وأخذه إلى بلاده. ومن جراء هذه المصائب والكوارث التي كان السبب فيها هذا الجبار العنيد انقطع الحج في أيامه خوفاً منه ومن بطشه بالأبرياء حجيج بيت الله المقدس. وقد أخذه الله أخذ عزيز مقتدر وأراح منه البلاد والعباد. وبعد هلاكه رأى قومه أنه يستحيل عليهم تحويل الحج عن الكعبة أصلاً فردّوا الحجر الأسود ووضعوه في مكانه على الحالة التي تراه عليها الآن.

ويقال إن الحاكم بأمر الله لما بنى مسجده المعروف بجوار باب الفتوح بالقاهرة أراد أن يحول وجهة المسلمين إليه بدلاً عن الكعبة وكان القصد الوحيد من بنائه هذا المسجد هو هذا الأمر الذي جعله مودعاً في ضمائر الأيام.

ويقال إنه في سنة (٤١١) هجرية دخل رجل في الحرم على شكل الدراويش وضرب الحجر الأسود بعمود من حديد كان في يده. فقام عليه كان من كان موجوداً هناك وقتلوه شر قتله. ويقولون إن هذا الرجل أرسله الحاكم بأمر الله لأجل أن يفعل هذه الفعلة الشنعاء. ولا يبعد على الحاكم بأمر الله أن يفعل ذلك وأكثر منه. فقد أراد من قبل أن يحول أهل العلم في الأزهر الشريف إلى مسجده بالقاهرة فلم يفلح. وصار مسجده خراباً بلقعاً إلى يومنا هذا لا يصلي فيه أحد من الناس بل يذهب إليه بعض السائحين والسائحات ليروه باعتبار أنه أثر من الآثار التاريخية. وكل ذلك يرجع إلى الأعمال كما جاء في الحديث الشريف. «إنما الأعمال بالنيات. الخ»فظهر من كل ما تقدم أن البيت بيت الله. والله قد حفظه وحماه من كل جبار عنيد. ولا يزال محفوظاً بإذن الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

حكمة جعل الحج في هذا المكان

إن الحكمة في جعل الحج في هذا المكان المقدس ترجع إلى الأسباب الآتية.

(أولاً): إن المسلمين إذا حجوا تذكروا أباهم إبراهيم الخليل عليه السلام والذكرى تنفع المؤمنين: إذ هو الذي بنى البيت الحرام وأذّن في الناس بالحج.

(ثانياً): إن هذه الأمكنة هي موطن النبي ﷺ وقريبة من مكة المشرفة التي ولد فيها المصطفى ﷺ.

(ثالثاً): إنه المكان المطهر الذي ظهر فيه الدين الحنيف ومنه سطع نوره في أنحاء الأرض.

(رابعاً): إنه المكان الذي استجاب الله فيه دعاء سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام كما جاء في الآية الشريفة حكاية عنه: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ۝٣٧﴾[1] فاستجاب الله دعاءه وعمرت مكة وما جاورها من البلاد ورزقهم من الثمرات الطيبة.

(خامساً): إن تلك الأماكن الطاهرة المقدسة هي في شبه جزيرة العرب وهي خالية من كل إنسان من غير المسلمين عملاً بالحديث الشريف: «**لا يجتمع دينان في جزيرة العرب**» فالمسلمون في حجهم واجتماعهم وذهابهم وإيابهم لا يجدون من يضايقهم من أهل الأديان الأخرى. وبذلك يتمكنون من تدبير أمورهم سواء أكانت من أمور الدنيا أو من أمور الدين ولقد قال ﷺ الحديث المتقدم: «**لا يجتمع دينان في جزيرة العرب**» صدق رسول الله.

حكمة جعل الحج في هذا الزمان

إعلم أن للباري جل شأنه أن يخصص أي زمان كان لنزول الرحمات فيه على عباده المؤمنين كما خصص يوم الجمعة وليلة القدر وباقي الأوقات التي يستجاب فيها الدعاء.

(١) (١٤) إبراهيم: ٣٧.

ولما كان زمان الحج من الأشهر الحرم التي تنزل فيها الرحمات: فرضت فيه فريضة الحج ليكون الثواب أعم والنفع أتم. ولم يجعل الله على المسلمين في دينهم من حرج. وعلى هذا يكون الشارع قد أحكم كل شيء صنعاً.

حكمة الوقوف بعرفة

إعلم أن هذا المكان كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يؤمونه ويعبدون الله فيه وتوارث ذلك من بعدهم. والاقتداء بسنة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أصل أصيل في باب التوقيت وأيضاً وقوف المسلمين عليه يلبون ويلتمسون من خالقهم جلّ وعلا غفران الذنوب ومحو الخطايا أدعى إلى رحمة الله بهم وإجابة دعائهم في هذه الأوقات وهذه الأزمان التي فارقوا فيها الأهل والأوطان وأتوا إليه ممتثلين أمر رب العالمين يدعون فيها والدعاء مستجاب. قال ﷺ: **«أفضل الدعاء دعاء أهل عرفة وأفضل ما قلت وقالت الأنبياء قبلي عشية يوم عرفة لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير»** وعن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال: قال النبي ﷺ: **«إن أكثر دعائي ودعاء الأنبياء قبلي عشية يوم عرفة (لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير. اللهم اجعل في قلبي نوراً وفي سمعي نوراً وفي بصري نوراً اللهم اشرح لي صدري ويسر لي أمري وأعوذ بك من وساوس الصدور وسيآت الأمور وفتنة القبر. اللهم إني أعوذ بك من شر ما يلج في الليل وشر ما تهب به الرياح»**.

ويستحب أن يقول عند التوجه إلى عرفات هذا الدعاء: **(اللهم إليك توجهت وعليك توكلت ووجهك أردت فاجعل ذنبي مغفوراً وحجي مبروراً وارحمني ولا تخيبني وبارك لي في سفري واقض بعرفات حاجتي إنك على كل شيء قدير)** وذكر في البدائع ما يأتي.

إن أهل الحرم كانوا يقفون بعرفات ويقولون نحن أهل حرم الله لا نفيض كغيرنا مما قصدنا فانزل الله عز وجل قوله: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾[1] أمرهم بالإفاضة من حيث أفاض الناس والناس كانوا يفيضون من عرفات وإفاضتهم منها لا تكون إلا بعد حصولهم فيها فكان الأمر بالإفاضة منها أمراً بالوقوف بها ضرورة. وروي عن علقمة

(١) (٢) البقرة: ١٩٩.

رضي الله عنها قالت: (كانت قريش ومن كان على دينها يقفون بالمزدلفة ولا يقفون بعرفات فأنزل الله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾) [1] صدق الله العظيم.

حكمة النزول بمنى

إعلم أنه كان للجاهلية عوائد أقرها الإسلام بعد تطهيرها مما لا يوافق الدين الحنيف. ومن هذه العوائد اجتماعهم بمنى وهو مكان كانوا يقيمون فيه سوقاً يسمونه باسمها كسوق عكاظ. وذي المجاز. والمجنة.

كان العرب يجتمعون بمنى ويتفاخرون بالأنساب والأحساب والعشائر ويتناشدون فيه الأشعار ويتبارون في مضمار الفصاحة والبلاغة. وكانوا يقصدونه من الأماكن النائية للشراء وغير ذلك من الأمور التي تقام لأجلها الأسواق. ولما كان هذا الاجتماع فيه منفعة للناس أقره الإسلام. ولكنه أبدل التفاخر بالأحساب والأنساب بذكر الله تعالى والتسبيح والتحميد وشكر الله تعالى لما أنعم عليهم من فضله حيث يقول الله تعالى في كتابه العزيز ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [2].

ولا يخفى أيضاً أن اجتماع الحجاج في هذا المكان وإقامتهم شعائر الدين الحنيف وتبادلهم المنافع المادية والأدبية أدعى لإظهار عظمة هذا الدين السمح وشوكة المسلمين في عيون أعداء الدين هذا فضلاً عن التعارف والائتلاف والتوادد بين المسلمين المختلفي الأجناس كما بينا في غير هذا المكان.

وعلى الجملة فإن النزول بمنى على هذه الصورة وهذه الكيفية هو أشبه بمعرض من أكبر المعارض التي تقام في العالم أجمع يبهر عقول هؤلاء الذين يسيئون إلى المسلمين في دينهم. لأنه جمع بين فائدتين عظيمتين، فائدة الدين والدنيا، وهذه من الحكم البالغة التي يقف عندها الإنسان خاضعاً خاشعاً راكعاً ساجداً مهما أوتي من العلم والعرفان.

حكمة السعي بين الصفا والمروة

الصفا والمروة اسمان لموضعين من المواضع التي تؤدى فيها بعض مناسك الحج. وكيفية السعي بينهما؛ أن الحاج يمشي هنا وهناك كمن يبحث عن شيء أو كمن يطلب ضالة أو يسأل عن أمر من الأمور بواسطة السعي.

---

(١) (٢) البقرة: ١٩٩.

(٢) (٢) البقرة: ٢٠٠.

والحكمة في مشروعيته. أن السيدة هاجر زوج الخليل عليه الصلاة والسلام حينما أعوزها الماء هي وابنها وفلذة كبدها إسماعيل عليه الصلاة والسلام في هذا المكان. قامت تسعى وتطلب الماء ضارعة إلى الله تعالى أن يهديها إلى ماء تروي به ظمأها وظمأ ابنها. فانفجرت الأرض عن بئر زمزم التي رحم الله بها الملايين من الناس. حيث يستقي منها حجاج بيت الله الحرام إلى يومنا هذا. فإذا سعى الحاج بين الصفا والمروة فإنه يطلب بهذا السعي من الله سبحانه وتعالى أن ينقذه من مخالب العوز والاحتياج وأن يرحمه برحمته الواسعة كما رحم السيدة هاجر وابنها بماء زمزم. وهناك حكمة أخرى. وهي: الاقتداء بالسيدة هاجر في طلب الرحمة والمعونة من الله تعالى جلت قدرته. أولاً. وإحياء لذكرى هذه الحادثة التاريخية ثانياً.

وقد ورد في القرآن الشريف قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾[1] وقال ﷺ: «اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي» وهذه حكمة بالغة وحادثة تاريخية عظمى. وذكر في البدائع ما يأتي:

ولقد كان السعي بين الصفا والمروة في زمن الجاهلية وكان لهم صنم يسمى (أساف) وآخر على المروة يسمى (نائلة) وكانت العرب تعتقد اعتقادات عند هذه المواضع تقرب من اعتقادات الوثنيين. وكان بعض العرب يزعم أن (أساف. ونائلة) كانا رجلاً وامرأة زنيا في الكعبة فمسخا حجرين ووضعا عليها ليعتبر بهما. فلما طالت المدة عبدا من دون الله. وكان أهل الجاهلية إذا سعوا مسحوهما. فلما جاء الإسلام وكسرت الأوثان كره المسلمون الطواف بينهما لأجل فعل الجاهلية اهـ:

ولما بعث المصطفى ﷺ امتنع المسلمون عن السعي بين الصفا والمروة حتى لا يتشبهوا بالجاهلية الأولى في اعتقاداتهم الفاسدة. فنزل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾[2] الآية فحصل السعي. ولكن بعد أن هذّ به الإسلام من شوائب الجاهلية الأولى وانتقل به انتقالاً يناسب الدين الحنيف.

---

(١) (٢) البقرة: ١٥٨.

حكمة رمي الجمرات

رمي الجمرات له حكمة عظيمة. ويقصد به رجم إبليس لعنه الله. والجمرات. هي: جمرة العقبة والجمرة الوسطى، والجمرة الصغرى. وتطلق العامة على ذلك في بلاد العرب: إبليس الكبير والوسطاني، والصغير. وكانت العرب قبل الإسلام ترمي هذه الجمرات مشخصين إبليس عليه لعنة الله. وقد جاء الإسلام وأقر هذا الرجم.

والحكمة فيه ترجع إلى الاقتداء بسيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام. لأن الله تعالى أوحى له في هذه الأراضي المقدسة بذبح ولده فامتثل. وقام ليصدع بأمر الله فوسوس له الشيطان بأن لا يفعل هذا الذبح. فأخذ إبراهيم عليه السلام حصيات ورماه بها. وكان ذلك في الموضع الذي به الجمرة الأولى. ولما نظر إبليس إلى ذلك توجه للسيدة هاجر وأخذ يقبح لها عمل سيدنا إبراهيم من ذبح ولده وفلذة كبده. فأخذت السيدة هاجر حصيات ورمته بها. وكان ذلك في موضع الجمرة الثانية. فلم يبق أمام إبليس عليه لعنة الله إلا إسماعيل عليه السلام. فذهب إليه وأخذ يقبح ويشنع له عمل أبيه. ويقول له إن هذا الفعل لم يحصل في تاريخ الإنسان في الدنيا من يوم إن خلقها الله. فأخذ إسماعيل عليه السلام قبضة من الحصى ورماه بها. وكان ذلك في موضع الجمرة الثالثة.

ولما كان إبليس وسوس في هذا المكان لسيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل والسيدة هاجر وكل منهم رمى عليه الجمرات فاقتداء بهم نرجم إبليس عليه لعنة الله. وأيضاً لما كان إبليس عليه اللعنة عدواً للمسلمين والناس أجمعين ويريد إيقاعهم في المعاصي وارتكاب ما يفسد عليه حجهم ويوسوس إليهم كما وسوس إلى الخليل وإسماعل وهاجر لتغيظه من نزول الرحمات الوافرة على الحجاج شرع رمي الجمرات اقتداء بالخليل وإسماعيل وهاجر. وإرغاماً لأنف إبليس عليه لعنة الله حتى يقطع الأمل من إطاعة الحاج له وانقياده إليه. وكل ذلك حكم بالغة.

وقد قال الله عز وجل: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾[1] صدق الله العظيم.

---

(١) (٣٧) الصافات: ١٠٢ ـ ١٠٧.

الرجم عند الأمم في غابر الزمان

رب غبي جاهل يرمي الإسلام والمسلمين بأمور لا قيمة لها من أجل رمي الجمرات. فقد عقدنا هذا الباب خاصاً لأجل أن نبين لهؤلاء الذين لا يفقهون حكمة الشارع الحكميم في ذلك ونوقفهم على حصول الرجم الذي كان عند الأمم في العصور الغابرة. على اختلاف مللها ونحلها حتى يرتفع كل اعتراض يتوجه للشريعة الإسلامية السمحة.

كان الرجم في الأمم الغابرة حاصلاً كما كان حاصلاً عند العرب. وكانت العرب ترجم الأحياء والأموات. بمعنى أنهم يرجمون قبر من كان صاحبه معروفاً بينهم بالأذى والضرر لعباد الله. من ذلك إنهم كانوا يرجمون الزاني المحصن تقبيحاً لفعلته الشنعاء التي تدعو لاختلاط الأنساب وما فيها من القبائح. وأقرت الشريعة الإسلامية هذا الرجم ولكن بشروط مخصوصة مذكورة في فروع الفقه.

وكانوا يرجمون قبر أبي رغال الكائن في (المغمس) وهو موضع بين مكة والطائف. لأن هذا الخائن كان يقود جيش إبرهة الذي قصد هدم الكعبة المشرفة. وقد أهلكه الله في هذا المكان قبل وصوله إلى مكة.

وكانوا يرجمون قبر أبي لهب لأنه كان عدواً لدوداً للنبي ﷺ وفيه يقول الله تعالى في محكم كتابه ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥﴾[1] وكانوا يرجمون قبر أبي جهينة ويقولون إنه كان من الحكام الطاغين الظالمين.

وقد ورد في القرآن الشريف حكاية عن أهل مدين صدرت منهم لشعيب عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ۝٩١﴾[2] وقال جل شأنه حكاية عن قوم نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ۝١١٦﴾[3].

---

(١) (١١١) المسد: ١ ـ ٥. (٢) (١١) هود: ٩١. (٣) (٢٦) الشعراء: ١١٦.

وليس الرجم خاصاً بالعرب بل هو عام. فتجده عند اليهود والنصارى. فأما بنو إسرائيل فقد ورد في الآية (٢٤ و٢٥) من الأصحاح السابع لسفر يشوع ما هو بالحرف الواحد (فأخذ يشوع عخان بن زراح الفضة والرداء ولسان الذهب وبنيه وبناته وبقره وحميره وغنمه وخيمته وكل ماله. وجمع بني إسرائيل معه وصعد بهم إلى وادي عحور فقال يشوع كيف كدّرتنا يكدّرك الرب في هذا اليوم فرجمه جميع بني إسرائيل بالحجارة وأحرقوه بالنار ورموه بالحجارة).

والنصارى كانوا يرجمون شجرة التين الكائنة بجوار بيت المقدس على يسار جبل الزيتون. لأن هذه الشجرة أراد المسيح عليه السلام أن يأكل منها فلم يجد فيها ثمراً. إقرأ الآية (١٩) من الأصحاح الحادي والعشرين من إنجيل متى. فظهر لك من كل ما تقدم أن الرجم قديم في الأمم. وقد ذكرنا ذلك خشية من غبي جاهل يرمي الإسلام والمسلمين بما لا يرضاه العقل والدين.

حكمة الحلق

الحلق تأكيد وتحقيق بانتهاء مدة الإحرام. وهو مقدم على طواف الوداع. والحكمة فيه أن الحاج: إذا أراد الانصراف بعد أداء المناسك ينبغي له أن يودع البيت الحرام. وبما أن هذا البيت المعظم من المكانة والإجلال في الجاهلية والإسلام كما تعلم كان من الأدب أن يودعه الإنسان وهو في حالة النظافة وإزالة الشعث لأن الخادم إذا أراد أن يودع سيده ومولاه ودعه وهو في أحسن زي وأجمل هندام. فكيف بمن يودع من هو أكبر منزلة وأرفع درجة؟.

والحلق المأمور به شرعاً إذا كان على رأسه شعر فأما إذا لم يكن أجرى الموسى على رأسه لما روي عن ابن عمر رضي الله عنه أنه قال: من جاء يوم النحر ولم يكن على رأسه شعر أجرى الموسى على رأسه: وروى القدوري ما قاله ابن عمر مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ وإن حلق رأسه بالنورة أجزأه والموسى أفضل. والحلق المأمور به خاص بالرجال فلا حلق على المرأة لما روي عن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**ليس على النساء حلق وإنما عليهن تقصير**» وكذا روي عن السيدة عائشة أن النبي ﷺ نهى المرأة أن تحلق رأسها ولأن الحلق في النساء مثله ومن أجل ذلك لم تفعله واحدة من نساء رسول الله ﷺ ولكنها تقصر فتأخذ من أطراف شعرها قدر أنملة. وليس على الحاج إذا حلق أن يأخذ شيئاً

من لحيته. لأن الواجب حلق الرأس بالنص. ولأن حلق اللحية من باب المثلة. لأن الله تعالى زين الرجال باللحى والنساء بالذوائب خلافاً للشافعي رضي الله عنه. وقد ورد في الحديث الشريف: «**إن لله تعالى ملائكة تسبيحهم سبحان من زين الرجال باللحى والنساء بالذوائب**» فاعرف هذا هدانا الله وإياك إلى معرفة أسباب حكمه البالغة.

حكمة استلام الحجر الأسود

قلنا في غير هذا الموضع ما معناه. إن الحجر الأسود مما فضل الله به البيت الحرام على سائر الأمكنة ونقول هنا إن الحكمة في استلامه تعرف من قول النبي ﷺ: «**الحجر الأسود يمين الله عز وجل في الأرض يصافح به خلقه كما يصافح الرجل أخاه**» وكان النبي ﷺ يقبله. ويفسر هذا ما ورد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قبله وقال عند تقبيله: إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا إني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك! ثم بكى فالتفت إلى ورائه فرأى علياً كرم الله وجهه فقال: يا أبا الحسن ها هنا تسكب العبرات وتستجاب الدعوات: فقال علي كرم الله وجهه: يا أمير المؤمنين بل هو يضر وينفع. فقال وكيف. قال إن الله تعالى لما (أخذ الميثاق على الذرية أي الأرواح في عالم الذر كتب عليهم كتاباً ثم ألقمه هذا الحجر فهو يشهد للمؤمن بالوفاء ويشهد على الكافر بالجحود) إذا عرفت هذا فهمت المقصود من قول الحاج عند استلام هذا الحجر: اللهم إيماناً بك وتصديقاً بكتابك ووفاء بعهدك. وليس مراد علي كرم الله وجهه أن الحجر الأسود يضر وينفع بغير إذن الله. بل هذه الخاصية أعطاها الله له. وإنما الضار والنافع هو الله الذي بيده ملكوت السموات والأرض.

روي أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما انتهى في البناء إلى الحجر الأسود قال لإسماعيل عليه السلام ائتني بحجر أجعله علامة لابتداء الطواف فخرج وجاء بحجر فقال ائتني بغيره فأتاه بحجر آخر. فقال ائتني بغيره فأتاه بثالث. وقال جاءني بحجر من أغناني عن حجرك فرأى الحجر الأسود في موضعه.

وكان هذا الحجر في زمن الجاهلية موضوعاً بجوار الكعبة ثم أبعد عنها بعد الفتح الإسلامي ووضع بمكانه الحالي. ويقولون إن تحت هذا الحجر آلة البناء التي كان يعمل بها إبراهيم عليه السلام في الكعبة. والعرب تقدس هذا الحجر جاهلية وإسلاماً: وهو المعنى بقول أبي الطيب في لاميته:

وموطن إبراهيم في الصخر رطبة على قدميه حافياً غير ناعل

وكان هذا الحجر له شأن عظيم جداً فاق حد الوصف. ولما حصل الخرب بين إياد ومضر من بني نزار ودارت رحى الحرب على إياد أرادت الانتقام من مضر فقلعت الحجر الأسود من مكانه ودفنته بجبل أبي قبيس. فرأت ذلك امرأة من خزاعة فأخبرت قومها بذلك فاشترطت إياد على مضر أن تكون ولاية البيت فيهم إن هم ردوا الحجر الأسود وجعلوه في موضعه فرضيت مضر ووفت لهم بذلك. وردوا الحجر الأسود ووضع في مكانه. وصارت ولاية البيت في إياد حتى جاء الإسلام.

الآن قد عرفت الحكمة في استلام الجر الأسود. ولرب قائل يقول: إنه حجر وأية فائدة في إيداع هذه الأسرار وهذه الحكمة وهذه المنفعة في حجر هو من الجمادات؟ فنقول له إن الله سبحانه وتعالى يخص من مخلوقاته ما يشاء ليكون مظهراً لقدرته ومستودعاً لأسرار حكمته ألا ترى أن الشمس والقمر من الجمادات. وقد أودعهما الله تعالى من أسرار قدرته وبديع حكمته ما به بقاء هذا الكون وانتظام أحوال العالم أجمع في مشارق الأرض ومغاربها بحيث يكسبان عالم الحيوان وعالم النبات الموجودة على الكرة الأرضية. ما به قوام الحياة. فالحكمة الموجودة في الشمس والقمر كما أوضحنا هي نفس الحكمة الموجودة في الحجر الأسود مع الفرق بينهما. ذلك الفرق المعلوم للمسلمين. وإن كانت الحكمة في تلك محسوسة وهذه معنوية.

احترام الأحجار عند الأمم المختلفة

ذكرنا في الفصل قبل هذا، الحكمة في استلام الحجر الأسود ويحسن بنا في هذا الفصل أن نذكر كيف كان احترام الأمم الأخرى وتقديسها لبعض الأحجار حتى لا يعترض معترض على المسلمين في احترامهم للحجر الأسود هذا الاحترام الذي عبر عنه بعض الجهلة الأغبياء بأنه بقية من بقايا الوثنية الأولى.

إحترام الأحجار وتقديسها في الأمم والشعوب من قديم الزمان فمنهم من كانوا يعبدونها لذاتها. ومنهم من كانوا يعبدونها ليجعلوها رمزاً لآلهتهم كالرومان واليونان الذين كانوا يرمزون بها لمعبوداتهم من الكواكب وغيرها. وقد كانوا يتفننون في نحتها وتصويرها لتبرز في رونق جميل. والصينيون واليابانيون والهنود كانوا مثلهم في هذه الحال. فإنهم كانوا يمثلون كثيراً من معبوداتهم مثل (بوذا) (وكونفوشيوس) وغيرهما.

أما العرب فأصنامهم كانت ساذجة. ومع ذلك كانوا يعبدونها ويزعمون أنها تقربهم إلى الله زلفى. وترى بالحرم المكي في عتبة باب السلام الخارجية حجراً ضخماً مثل درجة السلم غائصاً في الأرض يطؤونه بأقدامهم: وأهل مكة يقولون عليه أنه صنم من أصنام الجاهلية الأولى الذي كان يسمى (أساف).

وكان بعض أنبياء بني إسرائيل يقيمون الأحجار لأجل تذكار حادثة من الحوادث الكبرى التي يفيد ذكراها كما فعل سيدنا يعقوب عليه السلام عندما رأى ربه في المنام. فإنه بعد هذه الرؤية أقام حجراً تذكاراً لهذه الحادثة التاريخية في موضع أسماه (بيت إيل) يعني بيت الله كما أنه أقام حجراً آخر تذكاراً للعهد الذي حصل بينه وبين لابان: انظر الآية الرابعة والخامسة والأربعين من الأصحاح الحادي والثلاثين من سفر التكوين.

وهناك أحجار كثيرة أقامها سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام في ذيل الجبل تذكاراً لكلام الله له: انظر الآية الرابعة من الأصحاح الرابع والعشرين من سفر الخروج:

وقد أقام يشوع إثنا عشر حجراً تذكاراً لعبور الأسباط نهر الأردن بتابوت العهد: إنظر الآية التاسعة من الأصحاح الرابع من سفر يشوع:

وقد أقام يشوع حجراً أيضاً عندما أخذ العهد على قومه قائلاً لهم: (هذا الحجر يكون شاهداً علينا): انظر الآية السادسة والعشرين من الأصحاح الرابع والعشرين من سفر يشوع:

وفي باريس عاصمة فرنسا بجهة (التروكاديرو) متحفاً اسمه (جيميه) يوجد به كثير من الأحجار المقدسة والمحترمة عندهم.

واليهود لغاية هذا التاريخ يقدسون قطعة من حائط سور المسجد الأقصى من جهة القبلة تسمى (البراق) ويزعمون أنها القطعة الوحيدة الباقية من قاعدة سور الهيكل الأصلي الذي بناه سيدنا سليمان عليه السلام وهدمه بختنصر وسنحاريب وغيرهما من ملوك الأشرويين والرومانيين.

ويهود القدس يجتمعون كل يوم عند هذا السور خصوصاً في عصر يوم الجمعة ويستلمون حجارته باكين خاشعين متذللين متوجهين إلى الله سبحانه وتعالى بأن يرد عليهم ملكهم. وتعاد أورشليم إلى عظمتها وجلالها. وقد وصل بهم الاحترام لحجارة ذلك الهيكل إلى أنهم لا يدخلون حوش بيت المقدس ولا يدخلون من بابه خوفاً من أن تقع أقدامهم على حجر يكون ربما تخلف من هيكلهم في هذا الموضع. وهم يحترمون أيضاً

جانباً من الموضع الذي به قبر إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام. ويجتمعون هناك مساء ويبتهلون إلى الله أن يعيد إليهم ملك بني إسرائيل الذي زال. وهيهات تحصل لهم هذه الأمنية.

واحترام النصارى لا يقل عن احترام اليهود في بعض الأحجار فإنهم يحترمون أحجاراً كثيرة كائنة في بيت المقدس إلى حد كبير ومن تلك الأحجار حجر تحت قبة الصعود يزعمون أن به أثر قدم السيد المسيح عليه السلام عندما صعد إلى السماء. كما أنهم يحترمون قطعة من صخرة بوادي سدرون الذي تسميه العامة (وادي مريم) ويزعمون أن السيد المسيح أسند ظهره إليها عندما نزل من جبل الزيتون إلى المدينة. وهناك صخرة يحترمونها ويزعمون أن عيسى عليه السلام جلس عليها ليشاهد صخرة بيت المقدس. وهناك أحجار كثيرة في كنيسة القيامة وكلها محترمة عندهم. منها حجر يسمى حجر نصف الدنيا. ومنها حجر الغسل ويزعمون أنهم غسلوا المسيح عليه. ولقد كذبوا وافتروا على الله كذباً. وحجر الكأس الذي جاء به جبريل عليه السلام ووضعه على السيد المسيح.

وعامود الجلد الذي يزعمون أن السيد المسيح عليه السلام كان مربوطاً به وجلده أعداؤه وحجر الإكليل الذي يزعمون أنهم أجلسوا عليه المسيح عليه السلام. عندما وضعوا على رأسه إكليل الشوك.

وفي بيت لحم يوجد كثير من الأحجار المقدسة عند النصارى وصخرة بيت المقدس فهي محترمة عند المسلمين والنصارى واليهود ثم صخرة أيوب.

وهناك هيكل في الهند في وادي (الجنج) يقدسه جماعة كثيرة من (الهندوكيين) ولم يقف الأمر في الأمم الأخرى عند تقديس الأحجار. بل تعدت إلى الأشجار والأنهار والحيوانات. فهناك في الهند (نهر الجنج) وهو نهر يقدسه (الهندوكيين) ولقد بلغت الدرجة بهم في تقديسه أن كل حاكم يموت في المدينة التي يمر بها نهر (الجنج) يوصي وصية بدفن جثمانه في هذه المدينة. ويدفع في مقابلة ذلك مالاً جزيلاً. وكل ذلك من باب التقديس والاحترام.

وهناك شجرة مقدسة عند (الهنوكيين) بجوار وادي (الجنج) حتى بلغت بهم الدرجة من تقديسهم لهذه الشجرة أن أحد فروعها مال إلى مسجد من مساجد المسلمين فأراد المسلمون قطع هذا الفرع فقامت مشادة بين المسلمين (والهندوكيين) من أجل هذا (الفرع) كادت تسيل من أجلها الدماء من الفريقين ويتسع الأمر. ولكن السلطة المحلية هناك

تداركت الأمر بالحكمة وأقامت (عاموداً) حمل طرف هذه الشجرة من السقوط. وبذلك انتهى النزاع بين الطرفين!!!

وفي بعض بلاد الهند يقدسون البقر ويحرّمون أكله وذبحه. وهؤلاء على دين البراهمة. وهم من الذين يقولون بتناسخ الأرواح ويخافون أن تكون انتقلت روح من أرواح آبائهم أو أجدادهم في البقر الذي يذبح. ومن أجل ذلك ترى البقر هناك يسير وحده في الشوارع الكبرى من غير حارس يحرسه ويرعاه. ويقف أمام المنازل والحوانيت ولا يستطيع أحد أن يتعرض له بأذى. وتبقى البقرة هائمة على وجهها في الأسواق والطرق حتى يأتي صاحبها في أي وقت ويأخذها لأنه آمن عليها من كل يد تمتدّ إليها بسوء!!!

قال بعض المؤرخين العصريين: يعبد الهندوس البقر ويقدسونه إلى حد (يشقون) هم فيه وينعم البقر: والسائر في شوارعهم يرى بعيني رأسه كيف أن قطعاناً من هذا البقر المقدس تمرّ في عرض الطريق دون أن يعترضها معترض. والويل كل الويل لمن تحدثه نفسه بأن يمس البقرة بسوء.

وقد أقام الهنود المعابد الكبيرة يجرون إلى هياكلها البقر المقدس مزداناً بأبهى الحلل الحريرية معقوداً على جبينها أكاليل الذهب الخالص ومرصعة بالحجارة الكريمة ويرفعون إليها قرابينهم من البرسيم والحشائش والحنطة. ويقفون بجوار البقرة الواحدة عشرات الساعات يرتلون أناشيدهم الدينية وهم حفاة عراة إلا من مآزر صغيرة لفوها حول عوراتهم.

وإذا بالت البقرة أسرعوا إليها يتلقون البول في أوان من الفضة الخالصة يحملونه إلى بيوتهم يتبركون به ويشربونه في أغلب الأحيان.

وإذا مرض منهم إنسان أو اشتكى علة ما. دفعوا به إلى حراس المعابد وفيها يلطخون جسمه بروث البقر المقدس ويتمرغ تحت أقدامها طلباً للشفاء. أما إذا أجزل لهم العطاء قدموا له كوبة من لبن البقرة المقدسة ممزوجاً ببعض بولها.

وإذا نفقت (ماتت) إحدى البقرات المقدسة حزنوا عليها أشد الحزن واحتفلوا بدفنها احتفالاً مهيباً. ويعلو صياحهم ويشتد بكاؤهم. واعتبروا ذلك فاتحة مصائب قد تتابعهم.

وقد كثرت أخيراً قطعان البقر المقدس وأخذت تزاحم الناس في الطريق.

أما إذا عنّ لإحدى البقرات أن تنام على شريط السكة الحديد اضطر السائق أن يوقف

قاطرته وينزل إلى البقرة يزحزحها عن القضبان في لين ورفق. وقد يضطره ذلك إلى الوقوف الساعات الطوال حتى تتكرم البقرة (وتقوم) وتسمح للقاطرة بالمرور!!

وكان قدماء المصريين يحترمون النيل (نيل مصر) احتراماً فاق حد الوصف ويقدسونه أيما تقديس ويسبحونه بتسبيحات مختلفة. وقد وجدت تسبيحة من تسبيحاتهم محفوظة على ورق من البردى في المتحف البريطاني وهذا نص ترجمتها:

لك الإكرام يا حابي. إنك تظهر لكي تجعل مصر تعيش. إنك تروي الحقول التي خلقها (رع) وتمدّ جميع الحيوانات بالحياة وعندما تنزل من السماء فإنك تمد الأرض بالمياه بدون انقطاع. إنك صديق الخبز وكل ما يشرب. إنك تمدّ الحبوب بالقوة وتجعلها تنمو وفيرة. إنك تملأ كل مكان بالعمل. إنك سيد السمك. إنك خالق الحنطة والشعير. إنك حامي الفقير والمحتاج. وأنت إذا قهرت في السماء فإن الآلهة ترتمي على وجوهها ويهلك الرجال وتموت النساء. وعند ما تظهر على الأرض فإن صيحات الفرح تملأ الهواء. ويصبح جميع الناس سعداء. لأن كل شخص سينال طعامه. وأنت الذي تملأ مخازن المنازل بالأطعمة ومخازن الغلال بالحبوب. وتساعد الفقير والمحتاج. إنك أنت الذي تجعل الحشائش تنمو وتجعل كل إنسان غير محتاج إلى الآخر. اهـ.

وكان عندهم احتفالان كبيران للنيل أولهما في شهر يونيو ويطلق عليه (ليلة الدمعة) لأنهم كانوا يعتقدون أن في مثل هذا الشهر من كل سنة تبكي (إيزيس) على زوجها وأخيها (أوزيريس) وعند بكائها تسيل دموعها في النهر فيعقبه الزيادة والفيضان. والاحتفال الثاني في شهر أغسطس من كل سنة وهو يصادف احتفال الحكومة المصرية الآن بوفاء (النيل) وكتابة الحجة المعتادة من قاضي القضاة واستحقاق جباية الأموال على الأراضي التي تزرع وتنتفع بمياه النيل.

فمن كل ما تقدم يظهر لك جلياً أن احترام المسلمين للحجر الأسود ليس من باب الغرابة في شيء ولا يخرج هذا الاحترام إلا أنه شعار لربوبيته التي يتذكرها المسلم عند استلامه أو تقبيله. ولم نسمع أصلاً إن المسلمين عبدوا الحجر الأسود كما ذهب إليه بعض السائحين الذين توجهوا إلى المدينة ومكة تحت ستار شعائر الدين الإسلامي: فإن هذا النفر قد افترى على الله كذباً وقال إن المسلمين في حجهم يعبدون الحجر الأسود الذي هو بقية من بقايا الوثنية التي كانت عند العرب: ولو رجع هذا النفر إلى الأحاديث النبوية الشريفة

الواردة في هذا الموضوع لوقف على حقيقة هذا الحجر ولأراحنا من الرد عليه. ولكن التعصب الأعمى يجعل الإنسان في غاية من الجهل. هدانا الله وإياك إلى الصراط المستقيم. وأظنك بعد هذا لا تحتاج إلى توضيح وبيان.

الحكمة في عدم لبس المخيط
عند الإحرام

إن الشارع الحكيم أمرنا بعدم لبس المخيط وعدم تغطية الرأس عند الإحرام ليكون الإنسان في أعلا درجات الخضوع والتذلل لله تعالى. كأنه يقول في هذه الحالة: يا رب إني لا أملك لنفسي من الأمر شيئاً. وإن كل ما في هذا الوجود لا أملك منه فتيلاً. وإنك أنت المالك لكل كائن ويكون. وها أنا واقف بين يديك كيوم ولدتني أمي. ليس عليّ من عرض الدنيا إلا ما أستر به العورة. وليس هو من المألوف لبسه عند الناس من مخيط الثياب. وأيضاً في عدم لبس المخيط إشارة على أنه أشبه بالطفل المولود الملفوف في شيء غير مخيط. أي أنه لا يملك لنفسه شيئاً من حطام الدنيا إذ الملك لله وحده الواحد القهار.

ولا يخفى أن هذه الحالة هي أكبر درجات الخضوع وأسمى منازل الخشوع والغاية القصوى في التذلل للخالق جل شأنه وعظمت قدرته.

وهناك حكمة أخرى. وهي أن الحاج بهذه الحالة يتذكر أهل المحشر وهم واقفون بغير لباس على بدنهم والذكرى تنفع المؤمنين. ويقال إن لباس العرب كان بسيطاً أيام سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام حتى قالوا إنه لا يختلف كثيراً عن لبس المحرم في زمن الحج. فسبحان من أودع في كل شيء حكمة بالغة.

الحكمة في كون لباس المحرم أبيض

الحكمة في ذلك عظيمة جليلة. وهو أن البياض شعار الطهارة والنظافة وهما يظهران جلياً حين يكون اللباس أبيض. وإلاّ فالمقصود هو عدم لبس المخيط مطلقاً لا فرق بين أسود وأبيض. وهذا الملبس البسيط الذي يلبسه الحاج فيه إشارة إلى أن الإنسان خرج من الدنيا وزخارفها وزينتها وأبهة هذه الحياة الفانية. ووقف يناجي ربه بهذا الملبس البسيط الذي يستوي فيه الملك والصعلوك والأمير والوزير والغني والفقير. ويكون قد نزع عن نفسه ظاهرها وباطنها كما قالوا: ملبساً وشته الأباطيل وموهته الأضاليل وقد جرّد نفسه مما

يملك من كل هذا الوجود إلا هذا الملبس البسيط ليكون ممتثلاً أمر ربه الكريم: حتى يفوز في الدار الآخرة بالسعادة الحقيقية فيحشر في زمن المقبولين الذين أنعم الله عليهم بجنته ورضوانه. وفاز بالغفران العظيم.

حكمة أن لباس المحرم فيه فائدة طبية

يتقول بعض الذين في قلوبهم مرض والمتحاملون على الدين الإسلامي الحنيف أن الإحرام هو سبب كبير للأمراض التي تعتري الحاج في هاتيك البقاع من البرودة شتاء والاحتقانات الدموية صيفاً. فنقول لهم إن الشرع الإسلامي لم يمنع أي حاج من عادته. وشرط عليه إن كان يضره كشف رأسه مثلاً فلا غبار عليه من أخذ مظلة يجعلها على رأسه ويفدي بشيء من ماله. وفي ذلك الفداء حكمة تحيي كثيراً من الفقراء البائسين والمحتاجين المعوزين. ولا يغيب عنك أن لبس المحرم هذا اللباس المخصوص فيه منفعة كبرى طبية تعود على الإنسان بالمنفعة العظمى في عموم جسمه وبدنه. ولقد قال بعض الأطباء: إن الإنسان يلزمه أن يعرض جسمه للهواء الطلق ومؤثرات الجو مدة من الزمن لكي يستريح فيها الجسم ويسترجع قوته ويستعيد نشاطه بملاصقة (أوكسيجين) الهواء لجميع مسام الجسم. وبذلك يكتسب الصحة والعافية:

من أجل ذلك ترى أهل أوروبا الشمالية يقصدون في بعض الأيام الجبال وشواطىء البحار ويخلعون ثيابهم إلا ما يستر عورتهم ويقيمون على هذه الحالة أياماً كثيرة يستعيدون فيها ما فقده الجسم من القوة الطبيعية. ولا غرابة في ذلك فإن الدين الإسلامي الحنيف لا يأمر بأمر إلا إذا كان فيه مصلحة للإنسان تعود عليه من كل الوجوه.

حكمة الهدي

الحكمة في ذلك هو الاقتداء بسيدنا إبراهيم الخيل عليه الصلاة والسلام. إذ أمره الله في المنام بذبح ولده إسماعيل عليه السلام فامتثل. ثم فداه بذبح عظيم. وفي هذا حكمتان.

الأولى: إظهار تمام الطاعة للخالق جلّ شأنه حتى ولو أمرنا بذبح أولادنا.

الثانية: القيام بشكر الله تعالى على نعمة الفداء حيث جعل من يقدم الهدي من الذين يتصدقون مما أنعم الله عليهم ولم يجعله من الفقراء الذين يستحقون الصدقة. وهذا كما لا يخفى نعمة كبرى. فالحاج إذا فعل ذلك يكون في أسمى منازل الرفعة. لأنه لا منزلة في

طاعة الإنسان لمولاه أرقى من كونه يطيع الله في كل أمر يأمره به مولاه ولو بذبح ولده وفلذة كبده.

وإنما وجب الهدي على المتمتع والقارن لأنهما كانا ممنوعين بسبب تحريف الجاهلية. وهو أيضاً بمثابة شكر لله تعالى على تلك النعمة الحاصلة برفع هذا الأصر وهي حكمة بالغة.

القربان عند الأمم في غابر الزمان

يحسن بنا في هذا الفصل أن نتكلم عن القربان الذي كان يحصل في بعض الأمم في الزمن الغاير ليعلم من لم يكن على بينة من الأمر أن الدم الذي يريقه الحاج في تلك البقاع الطاهرة ليس بدعة حصلت في الإسلام إذ هو قديم في الأمم على اختلاف مذاهبها وتباين مشاربها. وقد جاء الإسلام. وهذّب تلك العادات التي لا توافق مشرب الإسلام. وهذا القربان الذي كان يحصل في الزمن القديم كان يتقرب به الناس إلى الله سبحانه وتعالى وكان يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة. وأول ما حصل على هذه البسيطة من أمر القرابين وقصه الله علينا في القرآن الشريف. هو أن قابيل بن آدم عليه السلام قرّب إلى الله قرباناً وقرّب أخوه هابيل قرباناً. فتقبل الله قربان أحدهما ولم يتقبل قربان الآخر ويقال أن قربان الأول كان ثمراً من ثمار الأرض وقربان الثاني كان ذبيحة من أبكار غنمه. وقد قص الله على نبيه ﷺ أحسن القصص فقال وقوله الحق: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ ﴾[1].

وبعد الطوفان شيد نوح عليه السلام موضعاً كان يقرّب فيه كثيراً من الحيوانات وكان يحرقها في هذا الموضع. وكان إبراهيم عليه السلام يتقرب إلى الله بصدقة الخبز وغيره.

ونقلوا عن سيدنا إبراهيم أنه أمره الله أن يذبح عجلة وعنزاً وكبشاً وغير ذلك: أنظر سفر التكوين آية ٩ و١٧: وكان بنو إبراهيم من بعده يقربون إلى الله الذبائح ويحرقونها واستمروا على هذه الحالة حتى بعث موسى عليه الصلاة والسلام. فقسّم الذبائح إلى دموي وغير دموي. والأخير كان لا يخرج عن الماشية التي كانوا يطلقونها في البرية لله تعالى. وفي الحقيقة يطلقونها لأصنامهم. وما زالت فيهم هذه العادة حتى جاء الإسلام وحرّمها.

---

(١) (٥) المائدة: ٢٧.

والذبائح الدموية كانت تنقسم عندهم إلى ثلاثة أقسام: الذبيحة المحرقة. وذبيحة التكفير عن الخطايا. وذبيحة السلامة. وكانوا يحرقون التي تسمى المحرقة ولا يأخذون منها إلا جلدها ويكون خاصاً بالكاهن. وذبيحة التكفير عن الخطايا كانوا يحرقون منها بعضاً والبعض الآخر تأكله الكهنة. وذبيحة السلامة كان لحمها حلالاً لهم. وكانوا يشرطون في الذبيحة التي تقدم وتكون قرباناً أن تكون خالية من كل عيب وإذا كان الإنسان فقيراً لا يمكنه أن يقدم ذبيحة من ذوات الأربع كان يقبل منه ذبيحة الطيور. ولما زالت عبادة الأصنام والأوثان والكواكب في قديم الزمان كانوا يقدمون شيئاً من بعض النباتات ويحرقونها على هياكلهم. وكان قدماء اليونان يدخلون الملح في قرابينهم لأنه كان عندهم رمزاً للصداقة. وكانوا يضعونه مع حب الشعير ويقدمونه للحاضرين. والرومان كانوا يقدمون الذبائح إلى آلهتهم، ومن يحضر جمعهم يأخذ من لحمه تبركاً ويفرقون جانباً من الذبائح على من يحضر من ذوي قرابتهم. وقد كانت كهنتهم عند تقديم الذبائح يرشون على الحاضرين عسلاً وماء حتى ارتقى الأمر إلى أن صاروا يرشون ماء الورد في اجتماعاتهم. ولا تزال هذه العادة مستعملة في أكثر الحفلات الدينية إلى الآن.

ولم تقتصر ذبائح القربان على الحيوان بل بالغ كثير من الأمم المتقدمة حتى كانوا يقدمون ذبائحهم من البشر كالفينيقيين والكنعانيين والصوريين والفرس والرومان والمصريين. وما زالت هذه العادة القبيحة فاشية ومنتشرة في أوروبا حتى صدر قرار من مجلس الأعيان الروماني بمنعها في سنة (٦٥٧) ميلادية ومع صدور هذا القرار بمنعها فإن هذه العادة القبيحة استمرت في بلاد الجرمان مدة طويلة.

وكان ملك الحيرة يقدم في أيامه إلى معبوده المسمى (العزى) الذبائح من البشر. وقد سرت له هذه العادة القبيحة من وثنيي الفرس.

ويقال إن المصريين كانوا يقدمون إلى النيل يوم ١١ بؤنة الشهر القبطي من كل سنة بنتاً بكراً من فتياتهم بعد أن يزينوها بأحسن زينة ثم يغرقونها في النهر الذي كان يعد من بعض معبوداتهم. وما زالت هذه العادة القبيحة فاشية في مصر حتى أبطلها عمرو بن العاص كما يقال بموافقة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنهما. وبعضهم يقول إن هذه الحادثة لا أصل لها في مصر وهو الحق الذي يميل إليه العقل: أنظر التاريخ.

مما تقدم لك كله تأخذ درساً عظيماً في أحوال الأمم وترى أن المسلمين كانوا أسبق الأمم والشعوب في تحريم الذبائح البشرية. وكانوا يسوقون ذبائحهم من الإبل والبقر

والغنم في زمن الحج الذي سمونه (هديا) ويفرق لحمه على الفقراء والمساكين والبائسين والمحتاجين. فانظر حكمة العليم الخبير.

حكمة الرمل

الرَّمل: نوع من السير السريع كالهرولة. وقد شرعه الله لحكمة كبرى وهو أن المسلمين إذا هرولوا وساروا رملاً وهم في حال اجتماعهم يكونون كالبحر الزاخر المتلاطم الأمواج والجيش العرمرم الذي تموج به الفجاج. وهذه الحالة فيها إظهار لشوكة المسلمين وعظمتهم وجلال دينهم وفيها إرهاب للمشركين والكفار في ذلك الوقت. وربما كان في هذا الزمن إذا نقلت الأخبار إلى الأمم والشعوب الأخرى ليتسرب نور الإيمان وجلال الدين الحنيف في قلوب الكفار فيعتنقون الإسلام عن رغبة ومحبة وإجلال وإكبار.

روي عن رسول الله ﷺ أنه لما دخل مكة بعد الهجرة كان كفار قريش قد اجتمعوا عند دار الندوة ينظرون إليهم باحتقار ويستضعفونهم ويقولون أوهنتهم حمى يثرب. فلما دخل رسول الله ﷺ المسجد اضطجع بردائه ورمل ثم قال: «رحم الله أمراء أراهم اليوم من نفسه قوة» وهذا الحديث الشريف فيه من الإيمان الكامل ما فيه. وقد جمع فيه طرفاً كبيراً من حسن السياسة والكياسة.

حكمة طواف القدوم

لما كانت منزلة البيت الحرام من الإجلال والتعظيم تلك المنزلة السامية التي وقفت عليها في موضع آخر إذ هو أشرف بقعة في الأرض. وأول بيت وضع للناس لتمجيد الخالق جلّ وعلا. كان من الآداب الكاملة والمزايا الفاضلة أن يؤدّي الحاج له التحية المشعرة بإجلاله واحترامه. وهذه التحية هي الطواف حوله قبل الصلاة فيه. وقدم على الصلاة لأن أداء التحية بعد الصلاة يشعر بسوء الأدب في هذا الموقف. ولأجل أن تكون التحية قد أدّيت على أكمل الوجوه يصلي الحاج ركعتين في مقام إبراهيم عليه السلام. وهذا هو الأفضل قال الله تعالى: ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾[1] فانظر كيف يؤدّب الله عباده المؤمنين.

---

(١) (٢) البقرة: ١٢٥.

حكمة المبيت بالمزدلفة

الحكمة في ذلك عظيمة. لأن الحاج يظل سائراً طول يومه وهو قاصد منى لأجل أن يعطي نفسه قسطاً من الراحة ويزيل عنه مشقة وعثاء السفر. أمره الشارع بالمبيت بالمزدلفة رحمة به وشفقة عليه ودين الله يسر لا عسر. ولا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها.

ويستحب للحاج أن يدخل المزدلفة ماشياً تعظيماً لها. ويقول عند دخوله هذا الدعاء: اللهم إن هذا جمع أسألك أن ترزقني فيه جوامع الخير كله فإنه لا يعطيها غيرك. اللهم رب المشعر الحرام ورب زمزم والمقام ورب البيت الحرام ورب البلد الحرام ورب الركن والمقام ورب الحل والحرام والمعجزات العظام. أسألك أن تبلغ روح محمد ﷺ أفضل السلام. وأن تصلح لي ديني وذريتي وتغفر ذنبي وتشرح صدري وتطهر قلبي وترزقني الخير الذي سألتك أن تجمعه لي في قلبي وأن تقيني جوامع الشر إنك ولي ذلك والقادر عليه.

وسميت مزدلفة لاجتماع الناس فيها والازدلاف الاجتماع قال الله تعالى: ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾[1] أي جمعناهم. وقيل سميت مزدلفة لاجتماع آدم وحواء عليهما الصلاة والسلام فيها. وقيل لاقتراب الناس فيها من منى. والازدلاف الاقتراب. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ ﴾[2] صدق الله العظيم.

حكمة الوقوف بالمشعر الحرام

الحكمة فيه أن العرب في جاهليتهم كانوا يجتمعون في هذا المكان وتدور بينهم المناظرات والمحاورات في الفخر بالأحساب والأنساب والآباء والأجداد.

فلما جاء الإسلام وسطع نوره أبدل الشارع الحكيم وقوفهم بهذه الكيفية وهذه الصورة بوقوفهم ذاكرين الله تعالى ممجدين خالقهم وهم بذلك يظهرون شرفهم وفضلهم على المشركين ويبينون لهم أن لا شرف إلا شرف الإسلام. وأن لا مجد إلا مجد الإسلام وهي حكمة عظيمة جليلة.

---

(١) (٢٦) الشعراء: ٦٤.

(٢) (٣٨) ص: ٤٠.

حكمة طواف الوداع

إن الحاج إذا أدّى فريضة الحج وقضى مناسكه وعزم على الرجوع إلى وطنه ودّع البيت الحرام كما تودع الوفود من وفدوا عليه عند رجوعهم إلى مواطنهم. وفي هذا إعظام وإكبار للبيت الحرام، وإظهار لمحبتهم إياه. وهم في حالتهم هذه يشيرون إلى أن هذا الطواف المحسوس عنوان على الطواف المعنوي. أي أن الجسم الذي هو في عالم الشهادة مثال لطواف القلب. وأن البيت الذي هو في عالم الوجود إشارة إل ذي الملكوت. فالقلوب تطوف حول الكعبة المشرفة إعلاناً على تعلقها بها وحباً لها. والغاية كلها تعلقها بحضرة رب هذا البيت.

وعلى هذا يكون الحاج قد بدأ حجه على هذا الوجه المشروع. ليكون العمل مقبولاً والأجر وافراً والمناسك قد أدّيت على أتم نظام وكمال.

وكما يقال له طواف الوداع يقال له طواف الصدر. وقد جاء في البدائع ما يأتي:

وليس على أهل مكة ولا من كان منزله داخل المواقيت إلى مكة طواف الصدر إذا حجوا لأن هذا الطواف إنما وجب توديعاً للبيت. ولهذا سمي طواف الوداع. ويسمى طواف الصدر لوجوده عند صدور الحجاج ورجوعهم إلى وطنهم. وهذا لا يوجد في أهل مكة لأنهم في وطنهم. وأهل داخل المواقيت في حكم أهل مكة. فلا يجب عليهم كما لا يجب على أهل مكة وقال أبو يوسف أحبّ إليّ أن يطوف المكي طواف الصدر لأنه وضع لختم أفعال الحج وهذا المعنى يوجد في أهل مكة:

حكمة زيارة المصطفى عليه السلام

الحكمة في ذلك عظيمة جليلة. تقف أمامها وأنت في غاية الخضوع وذلك أن رسول الله ﷺ هو الواسطة الكبرى في نعمة الإسلام والاهتداء إلى الصراط المستقيم ونعيم الآخرة ذلك النعيم المقيم. فقياماً بواجب احترام وتعظيم هذا الواسطة سنّ الشارع الحكيم زيارة القبر الشريف والروضة المباركة التي هي إحدى رياض الجنة ولا يقال إن الزيارة بعد الوفاة لا تفيد كما ذهب إليه الضالون المضلون. فإن الفائدة واحدة في الحياة وبعدها. ولقد قال ﷺ: «**من زارني بعد وفاتي، فكأنما زارني في حياتي**» وقال أيضاً: «**من جاءني زائراً لا يهمه إلا زيارتي كان حقاً على الله سبحانه وتعالى أن أكون له شفيعاً**» وقد ورد كثير من الأحاديث في فضل الزيارة.

هذا ومن كمال التعظيم والاحترام. أنه ينبغي للحاج توديعه ﷺ بعد قضاء فريضة الحج رجاء من الله سبحانه وتعالى أن يغفر ذنوبه ويوفقه إلى العودة إلى الحج وتوالي الزيارة وأن يحرسه بعنايته في سفره وعودته إلى وطنه.

متعنا الله وإياك بزيارة القبر الشريف وجعلنا في زمرة من يشفع لهم سيد المرسلين.

خطبة رسول الله في حجة الوداع

قد رأينا إتماماً للفائدة أن نذكر هنا خطبة رسول الله ﷺ التي خطبها في حجة الوداع لأنها جمعت فأوعت. وفي الوقت نفسه تدل على معجزة لسيد الخلق. لأنه أشار فيها إشارة أنه ينتقل من هذه الدار الفانية إلى الدار الباقية. ولا يجتمع بالمسلمين مرة ثانية في موسم الحج. وها هي نذكرها بنصها. قال عليه الصلاة والسلام: «**إن الحمد لله نحمده ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيآت أعمالنا. من يهد الله فلا مضل له. ومن يضلل الله فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله. أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحثكم على طاعة الله وأستفتح بالذي هو خير. أما بعد أيها الناس اسمعوا مني أبين لكم فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا. يا أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. ألا هل بلغت اللهم اشهد. فمن كانت عنده أمانة فليؤدّها إلى الذي ائتمنه عليها. وأن ربا الجاهلية موضوع وأن أول ربا أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب. وأن دماء الجاهلية موضوعة. وأن أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب. وأن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية. والعمد قود وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجَر ففيه مائة بعير. فمن زاد فهو من أهل الجاهلية. أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه ولكنه رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم. أيها الناس إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله. وأن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض. وأن عدة الشهور عند الله اثني عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم. ثلاثة متواليات وواحد فرد. ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جمادى وشعبان ألا هل بلغت اللهم اشهد. أيها الناس إن لنسائكم عليكم حقاً وإن لكم عليهم حقاً لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم غيركم ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة. فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن**

وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح. فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف. وإنما النساء عندكم عوار لا يملكن لأنفسهن شيئاً. أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً. أيها الناس إنما المؤمنون إخوة فلا يحل لامرىء مال أخيه إلا عن طيب نفسه. ألا هل بلغت اللهم اشهد. فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم أعناق بعض. فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا كتاب الله وأهل بيتي. ألا هل بلغت اللهم اشهد. أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب. أكرمكم عند الله أتقاكم. ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى. ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم قال: فليبلغ الشاهد منكم الغائب. أيها الناس إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ولا يجوز لوارث وصية في أكثر من الثلث. والولد للفراش وللعاهر الحجر. من دعي إلى غير أبيه أو تولى إلى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. اهـ».

حكمة رفع الحرج في الدين

إعلم أن الله سبحانه وتعالى جعل الدين الإسلامي ملائماً للأمة وكل جيل من الناس في كل زمان ومكان إلى أن تقوم الساعة. ولا يخفى أن ديناً هذا شأنه لا شك في أنه يكون سمحاً سهلاً على المتناول لأحكامه والمتعلم لأصوله وفروعه.

ولقد قررت لنا الشريعة الغراء ذلك بالقول والفعل. فقال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[1] وقال أيضاً: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[2]، وقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[3]، وقال: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾[4] وقال ﷺ: «الدين يسر لا عسر» وقال أيضاً: «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا» وقال: «يا أيها الناس إن منكم منفرين فأيكم أمّ بالناس فليوجز وفي رواية: فليخفف فإن من ورائكم الكبير والصغير وذا الحاجة» وقال: «أحب العمل إلى

---

(١) (٢٢) الحج: ٧٨.
(٢) (٢) البقرة: ٢٨٦.
(٣) (٢) البقرة: ١٨٥.
(٤) (٢) البقرة: ٢٨٦.

الله الحنيفية السمحة» وقال علي كرم الله وجهه: أريحوا هذه القلوب فإنها تمل كما تمل الأبدان والنفس مؤثرة للهوى طالبة للراحة أمارة بالسوء فإن أكرهتها أضنيتها وإن أهملتها أرديتها. وغير هذا كثير من الآيات والأحاديث والحكم التي وردت في هذا الباب. ومن الثاني رخصة المسح على الخفين في السفر والحضر وكذلك قصر الرباعية في الصلاة في السفر. وجواز الإفطار في السفر. وترك القبلة في بعض الأحوال. والتيمم عند فقد الماء. وغير ذلك مما هو معلوم ومفهوم لك.

والحكمة في ذلك أن رفع الحرج لا يجعل القلوب نافرة من أي أمر من أمور الدين بل يسهل على الناس تناوله فيكثر المسلمون ولا يجدون من الصعوبات ما يعوقهم عن السير فيه. ولما كان الدين الإسلامي بهذه السهولة وكان كافلاً لصلاح أمري الدنيا والدين في كل زمان ومكان. جعله الله آخر الأديان.

حرمة شرب الدخان في مجلس القرآن

سأل بعض أمراء الهند شيخنا الأستاذ الإمام الشيخ محمد بخيت مفتي الديار المصرية سابقاً عن حكم شرب الدخان في مجلس القرآن فأجاب فضيلته بما يأتي بعد الديباجة:

يحرم شرب الدخان في مجلس القرآن الشريف خصوصاً إذا كان من القارىء نفسه أو من مجاوره حال القراءة في مجلس القرآن. وكذلك يحرم رفع الصوت في مجلس القرآن والتشويش عليه والإعراض عنه ليظاهر قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾[1].

قال العلامة الشبراوي الشافعي في شرح ورد السحر قال شيخنا محمد السباعي الذي ندين الله عليه حرمة شرب الدخان في محلة القرآن ولا وجه للقول بالكراهية. فمن كان معي فهو معي، وإلا فله دين ولي دين. ومما ينبغي واستعيذ بالله منه رفع الصوت بالحديث النبوي في مجلس القرآن مع أنه منهي عنه قال تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾[2] قال المفسرون إن نهي رفع الصوت فوق صوت النبي فالقرآن أولى اهـ.

---

(١) (٧) الأعراف: ٢٠٤.

(٢) (٤٩) الحجرات: ٢.

وبالجملة فحرمة شرب الدخان في مجلس القرآن تكاد تكون واضحة لا تخفى على أحد منصف لأنه من ذوي الروائح الكريهة. وإن كان شاربوه لا يدركون ذلك للإلف والعادة فهم كالسنادية (كمساحي المراحيض) لا يشمون رائحة الغائط للإلف وكثرة التكرار.

وإذا كان العقلاء يرون من الآداب أن لا يشرب الدخان بحضرة ملوك الدنيا وأمرائها أفلا يرون ذلك مخلاً بالآداب بحضرة ملك الملوك وفي وقت مناجاته بقراءة القرآن. فإن قارىء القرآن مناجي ربه. وكم من شيء لا يمنع بغير حضرة الملوك ولكن يمنع بحضرتهم فعلى فرض أن شرب الدخان مكروه في غير مجلس القرآن فهو في مجلس القرآن أولى لإخلاله بالأدب في حضرة مالك الملك ذي العزة والعظمة والجبروت محرم. ألا ترى أن كثيراً من الأشياء مباح خارج الصلاة ولكنه يحرم في أثنائها وإن لم يبطلها وما ذاك إلا لإخلاله بآداب الوقوف بين يدي الله تعالى في الصلاة. نسأل الله تعالى أن يوفقه للتخلق بالأخلاق المحمدية وأن يؤدبنا بالآداب الشرعية إنه قريب مجيب.

لا يعدل المرء عن شيء يقرره	إلا لأمر صحيح ثابت جلي
أما الظنون وما النماء يخلقه	فليس يفعله في الناس غير غبي

قصيدة أمير الشعراء

شوقي بك ـ في الأزهر الشريف

الأزهر الشريف له مكانة عظمى ومنزلة سامية بين جميع الأقطار الإسلامية بل وبين الأقطار الأوروبية.

إرجعوا بنا قليلاً من الزمن الماضي تجدون أن العلوم الدينية مثل التفسير والحديث وأصول الدين والفقه والتوحيد كانت تدرس بين الطلاب التدريس الوافي الذي يربي ملكة الفهم الصحيح وتجد الطالب في ذلك الزمن أينما وجهته إلى أي علم يفكر فيه بالملكة التي وجدت له من تمحيص الحقائق العلمية.

من أجل ذلك قال أمير الشعراء شوقي بك في الأزهر القصيدة الآتية:

قم في فم الدنيا وحيّ الأزهر	وانشر على سمع الزمان الجوهرا
واجعل مكان الدر إن فصلته	في مدحه خرز السماء النيرا
واذكره بعد المسجدين معظما	لمساجد الله الثلاثة مكبرا

واخشع ملياً واقض حق أئمة ... طلعوا به زهراً وماجوا أبحرا
كانوا أجلّ من الملوك جلالة ... وأعز سلطاناً وأفخم مظهرا
زمن المخاوف كان فيه جنابهم ... حرم الأمان وكان ظلهم الذرا[١]
من كل بحر في الشريعة زاخر ... ويريكه الخلق العظيم غضنفرا
لا تحذ حذو عصابة مفتونة ... يجدون كل قديم شيء منكرا
ولو استطاعوا في المجامع أنكروا ... من مات من آبائهم أو عمّرا
من كل ماض في النعيم وهدمه ... وإذا تقدم للبناية قصرا
وأتى الحضارة بالصناعة رثة ... والعلم نذراً والبيان مثرثرا[٢]

* * *

يا معهداً أفنى القرون جداره ... وطوى الليالي ركنه والأعصرا
ومشى على يبس المشارق نوره ... وأضاء أبيض لجها والأحمرا
وأتى الزمان عليه يحمي سنة ... ويذود عن نسك ويمنع مشعرا[٣]
في الفاطميين انتمى ينبوعه ... عذب الأصول كجدهم متفجرا[٤]
عين من الفرقان فاض نهيرها ... وحيا من الفصحى جرى وتحدرا[٥]
ما ضرني أن ليس أفقك مطلعي ... وعلى كواكبه تعلمت السرى
لا والذي وكل البيان إليك لم ... أك دون غايات البيان مقصرا
لما جرى الإصلاح قمت مهنئاً ... باسم الحنيفة بالمزيد مبشرا[٦]
نبأ سرى فكسا المنارة جرة ... وزهى المعلى واستخف المنبرا[٧]
وسما بأروقة الهدى فأحلها ... فرع الثريا وهي في أصل الثرى
ومشى إلى الحلقات فانفرجت له ... حلقاً كهالات السماء منورا
حتى ظننا الشافعي ومالكاً ... وأبا حنيفة وابن حنبل حضرا

---

(١) الذر الملجأ.
(٢) النذر القليل والمثرثر المخلط.
(٣) النسك العبادة والمشعر موضع مناسك الحج.
(٤) جد الفاطميين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وقد كان مضرب المثل في التبحر في العلوم.
(٥) الحيا المطر والفصحى اللغة العربية.
(٦) الحنيفة الشريعة.
(٧) المنارة المأذنة والجرة السرور.

إن الـذي جعـل العقيـق مثـابـة ... جعل الكناني المبارك كوثرا[1][2]
العلـم فيـه منـاهـلا ومجـانيـا ... يـأتي لهـا النـزاع يبغون القـرا[3]
يـا فتيـة المعمـور سـار حـديثكـم ... نـداً بـأفـواه الـركـاب وعنبـرا
المعهـد القـدسـي كـان نـديـه ... قطبـاً لـدائـرة البـلاد ومحـورا
ولـدت قضيتهـا علـى محـرابـه ... وحبت به طفلاً وشبت معصرا[4]
وتقدمت تزجي الصفوف كأنها ... (جاندرك) في يدها اللواء مظفرا

* * *

هزوا القرى من كهفها ورقيمها ... أنتـم لعمـر الله أعصـاب القـرى
الغـافـل الأمـيّ ينطـق عنكمـو ... كـالببغـاء مـردداً ومكـررا
يمسي ويصبح في أوامـر دينـه ... وأمـور دنيـاه بكـم مستبصـرا
لـو قلتمـوا اختـر للنيـابـة جـاهـلا ... أو للخطـابـة بـاقـلا لتخيـرا[5]
آبـاؤكـم قـرأوا عليـه ورتلـوا ... بـالأمـس تـاريـخ الـرجـال مـزوّرا
حتى تلفـت عـن محـاجـر رومـة ... فرأى عرابي في المواكب قيصرا

---

(١) العقيق المسجد الحرام والمثابة مجمع الزمر.
(٢) المراد بالكناني الأزهر نسبة إلى الكنانة وهي مصر.
(٣) النزاع الغرباء والقرى الضيافة.
(٤) طفلاً أي طفلة والمعصر الفتاة المدركة.
(٥) عربي يضرب به في العي والفهامة.

فهرس حكمة التشريع وفلسفته

الجزء الأول